رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية والإسلامية

بقلم
الأستاذ الدكتور علي بن عبد الله الدفاع



مكتبة التوبة

روّاد علم الجغرافية
في الحضارة العربيّة والاسلاميّة

بقلم
الأستاذ الدكتور علي بن عبد الله الدفاع
أستاذ الرياضيات وتاريخ العلوم التجريبية
بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن
ورئيس اتحاد الفيزيائيين والرياضيين العرب

مكتبة
التوبة

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الثانية

١٤١٤هـ-١٩٩٣م

الرياض- شارع جرير- ص.ب. ١٨٢٩٠ الرمز ١١٤١٥
هاتف ٤٧٦٣٤٢١ - فاكس ٤٧٩٠٤٤٣ - المملكة العربية السعودية

الإهداء

إلى عقيلتي العزيزة

"أم عبدالله" وفاءً وتقديرًا

المقدمة

الحمد لله الذي هدانا إلى الإسلام ذلك الدين القيم الذي ارتضاه سبحانه وتعالى ليكون خاتم الأديان وتكون رسالته هي نهاية الرسالات للعباد فلا دين بعده.

لقد كانت الأمم قبل الإسلام تواقة إلى الخلاص من الذل والهوان الذين استعملهما كل من أباطرة الروم وأكاسرة الفرس ضد شعوبهم، فعندما بزغ الإسلام أعطى عطاء باذخا أسعد القلوب وأيقظ العقول، لذا كان نبراس الحضارة العربية والإسلامية سعادة للفرد وطمأنينة له.

وقد بلغت الدول العربية الإسلامية أوج عزها ومنعتها في أقل من قرنين من الزمان، وبهذا تحدت وبجدارة كل الدول التي كانت لها تاريخ وحضارة. فقد وصل الرواد والتجار العرب والمسلمون إلى الصين شرقا وإلى المحيط الأطلسي غربا وتغلغلوا في إيطاليا وفرنسا، مما جعل نتاجهم في مجال علم الجغرافية لايستغنى عنه باحث في هذا الحقل.

ولايخفى على القارىء أن إضافات المسلمين في هذا الحقل هي وجه من أوجه الحضارة المتعددة، لاتظهر فجأة مقطوعة من جهود الأمم السابقة، بل الحقيقة أنها تنتقل من أمة إلى أخرى، وفضل كل أمة يبرز فيما تضيفه إلى هذا التراث العظيم.

إن دراسة تطور علم الجغرافيا يخبرنا بصفة خاصة بتقدم الفكر الإنساني عبر العصور، لذا يلزم الجغرافي المثقف ألا يبدأ دراسته الجغرافية من حيث انتهى سلفه، ولكنه يجب أن يبدأ من أول الأسس لكي تكون نظرته جذرية.

القارىء اللبيب يدرك أنه بينما كانت الأمة العربية والإسلامية ترفع علم المعرفة والفكر عاليا كان العالم في ظلام دامس وأوروبا خاصة تعيش في جهل وتخلف فعندما أحبت أن تزيح عن عاتقها هذه المهانة وجدت أنه لامندوحة من

الدراسة والبحث والتنقيب في نتاج علماء العرب والمسلمين الأوائل في علم الجغرافية للنهل من رحيق هذا المنهل العذب.

ولقد اهتم علماء العرب والمسلمين بعلم الجغرافية اهتماما كبيرا لأنهم كانوا يفهمون تماما ما قرره القرآن الكريم من أن الإنسان هو خليفة الله في أرضه وهو المسؤول الأول عن عمارة هذا الكوكب، لذا درسوا وصححوا الأخطاء التي وقع فيها العلماء البابليون والآشوريون والمصريون واليونان والرومان والصينيون والهنود والفرس. كما اعترفوا بفضل العلماء السابقين.

وقد حاول بعض المستشرقين مثل دي جويه، وريجيس بلاشير، و هـ. درمون، وأغناطيوس كراتشكوفسكي، وكمبل (Kimble)، وسكوى (Achoy)، وجب (Gibe)، وبالنثيا (Palencia) ورينو (Reinauld)، وبارتولد (Bartold)، وفستنفلد (Wusienfeld)، وسارتون (Sarton) أن يقدموا دراسات جيدة لعدد قليل من علماء العرب والمسلمين في ميدان علم الجغرافيا لكي يستفيد علماء الغرب، لهذا السبب رأينا من واجبنا إماطة اللثام عن عدد أكبر من العلماء الذين يمثلون أسلوبا أصيلا في هذا الحقل لكي يطلع عليه شباب أمتنا.

الحقيقة أن بعض المستشرقين بذلوا جهدا يشكرون عليه في التنقيب والتمحيص لكتب الجغرافية العربية والإسلامية، وذلك في سبيل البحث عن إسهامات علماء العرب والمسلمين في هذا المجال، فهم بدون شك الذين بدأوا هذه الحركة العلمية التي دفعت القليل من علماء العرب والمسلمين أن يكتبوا في هذا الموضوع كتابات ذات بال.

لقد شعرت بمرارة شديدة لاهتمام المستشرقين بدراسة تراثنا الجغرافي التليد ليطلعوا وينهلوا من المعارف التي خلفها الأجداد ونحن في سبات عميق، بينما مثقفونا وطلابنا في أمس الحاجة لكتاب عن رواد علم الجغرافيا في الحضارة العربية والإسلامية ليكون مرجعا لهم في هذا المجال الهام.

نسمع أن فاسكو دي جاما عرف الطريق الموصل إلى الهند وأن كريستوفر كولومبوس كشف العالم الجديد (أمريكا)، وأن ماجلان سمى المحيط الهادي بهذا الاسم وطاف حول الكرة الأرضية وننسى أنه ماكان يمكن أن يتحقق شيء من ذلك لولا المعارف الجغرافية التي حصل عليها هؤلاء المغامرون من مصنفات علماء

العرب والمسلمين الأوائل عن الأرض.

هنا أحب أن أؤكد على ضرورة إحياء التراث العلمي العربي والإسلامي مع عدم الانصراف عن العلوم الحديثة، لأننا نحس أن النشء العربي والإسلامي في حاجة ملحة إلى معرفة مآثر الأجداد ليس فقط في ميدان علم الجغرافية ولكن أيضا في ميادين العلوم والفنون المختلفة.

إن كتابنا (رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية والإسلامية) محاولة متواضعة لعرض تطور علم الجغرافية العربية والإسلامية على مدى فترة العصور الإسلامية الزاهرة، وكما بذلنا قصارى جهدنا أن نقدم الظواهر الطبيعية بصورة ميسرة للقارىء، وأن نرتب وننظم نتاج أعمال مشاهير علماء العرب والمسلمين في هذا المجال بطريقة تضاهي المنهج العلمي الحديث الذي اتسعت آفاقه وذلك بتجهيز أدق الآلات لبلوغ صورة من صور الكمال.

هناك حقيقة أريد أن أذكرها وهي دراسة النصوص الجغرافية لنتاج علماء العرب والمسلمين التي لاتزال باقية غير مدروسة دراسة علمية دقيقة. ومثل هذه الدراسة تحتاج للمتخصص في علم الجغرافية لكي يسبر غورها، ولاريب أن إلقاء الضوء على النصوص الجغرافية سيقودنا إلى فهم الكثير من الأفكار والنظريات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها. إن مثل هذه الدراسة أصبحت ضرورية في هذه الأيام.

تفتقر المكتبة العربية إلى مؤلفات علمية في علم الجغرافية تربط التراث القديم بالأفكار الجغرافية الحديثة. لذا أؤمل أن يسد كتاب (رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية والإسلامية) ولو بصورة جزئية هذا النقص في المكتبة العربية والإسلامية.

يقع الكتاب في عشرة فصول: أولها التعريف بعلم الجغرافية، والثاني يلقي نظرة موجزة على إسهام قدماء المصريين في علم الجغرافية، والثالث يسجل نتاج علماء بابل في هذا الموضوع والرابع لمحة تاريخية عن مكانة الفينيقيين في هذا المجال، والخامس يلخص جغرافية الهنود والفرس، والسادس يشمل أعمال الصينيين في هذا الحقل، والسابع يختص بجهود اليونانيين في علم الجغرافية، والثامن يصف أعمال الرومانيين الجغرافية، أما التاسع فيعرض نتاج علماء العرب

والمسلمين في علم الجغرافية وآثارها على النهضة المعاصرة في العالم في مختلف ألوان الفكر الجغرافي، في حين يتناول العاشر سير بعض مشاهير علماء العرب والمسلمين في علم الجغرافية.

أحب أن ألفت نظر القارىء العزيز إلى ملاحظات ذات أهمية كبيرة، تتعلق بسرد المراجع التي اعتمدت عليها في تأليف هذا الكتاب، فلقد أحببت أن أضع المراجع بجانب النص، أو الفكرة المقتبسة بين علامتي تنصيص، وفاء بحق الأمانة العلمية، مع طباعة اسم الكتاب بالأسود لإبرازه للقارىء، وقد تبينت أن هذه الطريقة أسهل للقارىء بدلا من أن يجد نظره موزعا بين متن الكتاب وهامشه، ويمكن للباحث الذي يريد الاستزادة أن يعود بنفسه إلى المصادر التي أشرت إليها وذللتها له، وجعلتها بين يديه دانية القطوف، والجدير بالذكر أن هذه الطريقة هي بالضبط الطريقة التي استخدمها مشاهير علماء العرب والمسلمين في العلوم، وهي في نظرنا طريقة جيدة جدا، بل موضوعية، لأن التوثيق فيها حاصل وبارز للباحث الذي يريد أن يستزيد.

أرجو أن أكون قد وفقت بعملي هذا ـ الذي أرجو من الله تعالى أن يكون مفيدا ـ في إبراز معالم نهضة أسلافنا وطرقهم العلمية في تناولهم الأفكار الجغرافية.

والله الموفق

علي بن عبدالله الدفاع

الظهران ـ المملكة العربية السعودية

محرم ـ ١٤١٠هـ

الفصل الأول

تعريف علم الجغرافية

دون العلماء الأوائل مايوحي بعلم الجغرافية في كتب علم الفلك، فالإنسان منذ الأزل كان يتنقل، لذا كان يكتب مايعرفه عن ظواهر الأرض من جبال وأنهار وبحار ونبات وحيوان ومعادن وغيرها ولاشك أن هذه المعلومات تعتبر من أهم مكونات علم الجغرافية.

الجغرافية كلمة يونانية تتكون من مقطعين هما:

جيو (Geo) ومعناه أرض، وغرافية (Grophia) ومعناه وصف، وبهذا تتألف كلمة جغرافية.

اتفق على تقسيم علم الجغرافية عبر العصور إلى ثلاثة أقسام رئيسية، وقد يتفرع منه عدة فروع كما هو الحال في العصر الحديث، فأقسام الجغرافية الثلاثة هي:

١ ـ الجغرافية الطبيعية وتهتم كثيرا بطبيعة الأرض من حيث البنية الجيولوجية والظواهر الميتورلوجية والمحصولات النباتية والحيوانية.

٢ ـ الجغرافية الفلكية وتتولى شكل الأرض وحجمها وحركتها وكرويتها وعلاقتها بالكواكب الأخرى وغيرها.

٣ ـ الجغرافية السياسية وتبحث عن أقطار الأرض من حيث حدودها السياسية وعن السكان من حيث العدد والحياة الاجتماعية.

كما أيد حاجي خليفة في كتابه (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون) أن الجغرافية كلمة يونانية، فقد ذكر أن علم الجغرافية كلمة يونانية بمعنى صورة الأرض، وهو علم يتعرف منه على أحوال الأقاليم السبعة الواقعة في الربع المسكون من كرة الأرض، وكذلك عروض وأطوال البلدان الواقعة فيها، وأيضا عدد المدن والجبال والبحار والأنهار والبراري إلى غير ذلك.

والمتعارف عليه بين المؤرخين لتاريخ العلوم أن أول من كتب في موضوع علم الجغرافية كتابة علمية بطليموس القلوذي. فقد كتب كتابه الجغرافيا علاوة على ماورد في كتابه المجسطي من معلومات جغرافية قيمة وخاصة في فرع الجغرافية الفلكية.

وكلمة جغرافية في اللغة العربية تعتبر حديثة بعض الشيء، حيث إن علماء العرب والمسلمين كانوا يستعملون (صورة الأرض) أو (قطع الأرض) أو (خريطة العالم والأقاليم) أو (المسالك والممالك) أو (تقويم البلدان) أو (علم الطرق) وغيرها.

لقد كانت النظريات الجغرافية متقدمة نوعا ما عند اليونان، لذا نجد أنهم يعللون وجود الأصداف والقواقع البحرية في الأرض اليابسة البعيدة عن البحر، أنها كانت في الأزل بحرا ثم تحولت أرضا، وذلك بسبب حرارة الشمس التي قلصت مساحة البحر وهناك آراء أخرى جريئة في هذا الموضوع مما يدل على طول باعهم في هذا الحقل.

ومما لايقبل الجدل والتأويل أن علماء العرب والمسلمين في مجال علم الجغرافية تأثروا تماما في جغرافية لمارينوس الصوري (٧٠-١٣٠ميلادية)، وماوراء الطبيعية لأرسطوطاليس كان لهما مردودا نافعا لعلماء العرب والمسلمين المهتمين في ميدان علم الجغرافية.

لقد كان لدى علماء العرب والمسلمين الأوائل في علم الجغرافية قبولا لآراء ونظريات علماء اليونان أكثر من آراء ونظريات الشعوب الأخرى مثل الفرس والهنود وغيرهما. فمثلا فضلوا نظام الأقاليم عند اليونان عن نظام الكشورات الفارسية، ولذا نرى نظام الأقاليم أكثر شيوعا في مؤلفات علماء العرب والمسلمين في هذا الحقل.

لقد صحح علماء العرب والمسلمين في علم الجغرافية كثيرا من الأغلاط في نظريات بطليموس مثل مبالغة بطليموس في تحديد طول البحر الأبيض المتوسط وامتداد الجزء المعمور من الأرض، وكذلك تصوره خطأ بأن كل من المحيط الهندي والمحيط الهادي بحيرة مغلقة. وغلطه في تعيين موقع بحر قزوين والخليج العربي، وتحديد حجم جزيرة سيرلانكا (سيلان).

نعم تفوق علماء العرب والمسلمين في علم الجغرافية على كل علماء العالم في تقديم معلومات صحيحة عن الصين والقارة الأفريقية. مما دفع علماء الغرب خلال العصور الوسطى أن يتلقوا معلوماتهم عن أفريقية والصين من المصادر العربية، لأنهم كانوا يجهلونها تماما.

الفصل الثاني

قدماء المصريين وعلم الجغرافيا

علم الجغرافيا من أقدم العلوم فمنشؤه يقترن تمام الاقتران بتاريخ الإنسان الذي يحتاج إلى الطرق ومعرفة مصادر الغذاء والماء والمناخ الحسن وغيرها.

يذكر شريف محمد شريف في كتابه (تطور الفكر الجغرافي) أن الحضارة المصرية القديمة قد ظهرت منذ عصر ماقبل الأسرات وتطورت في التاريخ وذلك في زمن يمكن وضعه في فترة ليست قبل خمسة وثلاثين قرنا قبل الميلاد وأن كثيرا من المدونات المنتشرة في هذه الفترة الطويلة من التاريخ المصري القديم يختص بالعلاقات الحربية والسياسية والتجارية ويبدو أنها من الكثرة والكفاية لدرجة أنها تعطي صورة واضحة لأفق الفكر الجغرافي عند قدماء المصريين.

لهذا بذل قدماء المصريين جهداً عظيماً لمعرفة منابع نهر النيل فقاموا برحلات نهرية وبرية كثيرة كما أن لهم صلة تجارية وثيقة مع أقطار حوض البحر الأبيض المتوسط ولقد حاول قدماء المصريين بطريقة فنية وعلمية أن يربطوا البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر عن طريق نهر النيل، وهذه الأفكار كلها توحي بحدس جغرافي.

كما وأن لقدماء المصريين أيضا اتصالا مباشرا في شمال أفريقيا وغرب آسيا لأن مصر كانت مركزا تجاريا، والجدير بالذكر أن السفن المصرية أبحرت من البحر الأحمر ووصلت إلى المحيط الهندي.

وقد تمكن قادة مصر أمثال تحتمس الثالث ورمسيس الثاني دحر الغزاة لأرض مصر الخضراء من ذلك أسس قدماء المصريين نظرياتهم الجغرافية.

تفنن قدماء المصريين في رسم الخرائط فقد رسموا خريطة لبحيرة موريس وترعتها والمدينة الواقعة على ساحلها كما عملوا خريطة للقطر المصري والبلدان المتاخمة من أقطار أفريقية.

يذكر عبدالمنعم ماجد في كتابه (تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى) أن أول من قام برسم الخرائط هم المصريون القدماء حيث إن النصوص التاريخية وبعض النقوش على جدران المعابد تدل على أن المصريين القدماء رسموا خرائط الأرض لمصر ومايجاورها.

وظهر واضحا عند قدماء المصريين حب الفضول وذلك في التعرف على الجبال والأنهار والبحار ومصادر الغذاء من حيوان ونبات لذا صار عندهم رغبة شديدة لتعبيد الطرق لكي يتمكنوا من التنقل من مكان إلى آخر.

نعم تكونت عند سكان مصر الرغبة الشديدة في الاكتشافات العلمية ولكنهم وجدوا شيئا من الصعوبات في بادىء الأمر من الحيوانات الضارية المفترسة وقسوة الطبيعة، لذا لم يتمكنوا من الدخول إلى وسط أفريقية.

بدأ قدماء المصريين بعمل اتصالات تجارية قوية مع البلدان المجاورة لكي يستفيدوا من بيع المحصولات الزراعية والحيوانية فاضطروا أن يفتحوا المسالك بينهم وبهذا تحسن وضع مصر على كوكب الأرض.

لقد نمت المعرفة الجغرافية عند قدماء المصريين فسيطرت الملاحة المصرية على كل من شمال إفريقية وشرقي البحر الأبيض المتوسط والساحل الأفريقي للبحر الأحمر، كما وصل بحارة قدماء المصريين بسهولة إلى غرب آسيا.

ومما يؤخذ على قدماء المصريين أنهم كانوا يعتقدون أن كوكب الأرض على شكل مستطيل وأن أطول بعد مابين الشمال والجنوب وهذا افتراض غير صحيح بل إن كوكب الأرض كروي وأثبت ذلك بطريقة علمية علماء العرب والمسلمين في علمي الجغرافية والفلك.

حسب قدماء المصريين سنتهم الشمسية بـ $\frac{١}{٤}$ ٣٦٥ يوما والشهر ثلاثون يوما لذا السنة تكون اثنى عشر شهرا ومن ذلك اعتبروا الأيام الزائدة أعيادا لهم.

يتضح للقارىء أن المغامرة كانت ظاهرة واضحة عند قدماء المصريين وهي في ذلك الوقت تعتبر بحق من أسس النتاج العلمي في مجال الجغرافية.

لقد بذل الإنسان المصري القديم جهدا كبيرا من أجل أن يستقر في الأماكن القابلة للسكن على نهر النيل لذا كان يبتعد كل البعد عن الصحارى القاحلة

لأنهم يهتمون بالمحاصيل الزراعية والحيوانية لأجل غذائهم وتنقلهم من مكان إلى آخر.

اهتم قدماء المصريين اهتماما بالغا بالبحر الأبيض المتوسط لموقعه الاستراتيجي بين ثلاث قارات آسيا وأفريقية وأوروبا كما يمتاز البحر الأبيض المتوسط بكثرة جزره وخلوه من المد والجزر.

توصل الباحثون على المعلومات الجغرافية عن قدماء المصريين عبر الهياكل العظيمة والمصنوعات اليدوية والرسوم على الصخور التي عثر عليها علماء الآثار فجزاهم الله خيرا.

الفصل الثالث

البابليون وعلم الجغرافيا

اهتم البابليون بالتجارة مع البلدان المجاورة لهم، فوصلوا معظم أجزاء شبه جزيرة العرب، وأقصى الهند وشمال أفريقية فعبروا مضيق جبل طارق. لذا كثرت أسفارهم، مما جعلهم يدرسون عن كتب حركة النجوم، لأنها من المصادر الهامة التي يستعينون بها على معرفة الجهات الأربع والمسالك الصحراوية.

تفنن علماء بابل بمعرفة البروج، وهي منازل الشمس على مدار السنة، ويظهر ذلك مما تناقله المؤرخون للعلوم في العصر الحديث، والجدير بالذكر أن الكلمة المستخدمة في اللغة اللاتينية التي تعني برج هي (Sigma) أما في اللغة الإنجليزية فهي (Signa) ومصدرهما اللفظ اليوناني (Sameia).

قام البابليون بدراسة جيدة عن علم الفلك حيث ربطوا علم الجغرافية بعلم الفلك لصلة بعضهما ببعض، ويظهر ذلك فيما ذكره كل من صدقوك وتيلر في كتابهما (الموجز في تاريخ العلوم) أن علماء بابل اهتموا في علم الفلك الذي له صلة وثيقة بعلم الجغرافية. ورسموا خريطة دقيقة لمنطقة البروج الاثنى عشر مما يدل على تمكنهم في هذا المجال، وقد عينوا الوقت الذي يأخذه كل كوكب في مداره المحدد له، كما حسبوا بكل ذكاء طول السنة الشمسية ٣٦٥يوما و١٥دقيقة و٤١ثانية. وهذه القيمة تكاد تكون قريبة من القيمة الحقيقية.

لايخفى على القارىء أن الحضارة البابلية كانت معاصرة للحضارة المصرية القديمة، وقد قامت على بقايا الحضارة السومرية في أرض العراق (مابين النهرين).

أبحر البابليون في كل من نهر دجلة والفرات حتى وصلوا الخليج العربي ولكنهم لم يتمادوا في الخليج لأنهم كانوا مشغولين في علم الفلك المرتبط تمام الارتباط بعلم التنجيم.

ويذكر شريف محمد شريف في كتابه (تطور الفكر الجغرافي) أن تاريخ الامبراطورية البابلية يرجع إلى نحو عام ٢١٠٠ قبل الميلاد. وكان حمورابي أعظم ملوك بابل بل قد يكون أعظم شخصيات التاريخ القديم، فقد وضع القانون الذي كفل بنظامه أعلى درجة من الحضارة للبابليين، ومع أن البابليين قد بنوا سفنا أبحروا بها نازلين في كل من نهر دجلة والفرات حتى البحر، فإنهم لم يتوغلوا في البحر بعيدا بل فضلوا الملاحة على طول السواحل المجاورة ولاشك أنهم يعرفون تمام المعرفة أن الملاحة في الخليج العربي تحتاج إلى معلومات متقدمة في ميدان علم الفلك الذي كان شغلهم الشاغل.

قسم البابليون اليوم إلى أربع وعشرين ساعة والساعة إلى ستين دقيقة والدقيقة إلى ستين ثانية. وبقى هذا النظام مستخدما عبر التاريخ وأول من استفاد من هذا التقسيم كل من علماء الهنود واليونايين والرومانيين.

رسم البابليون خريطة لبلادهم منقوشة على لوح من الطين، توحي في عمق جغرافي، كما توجد أقدم خريطة عملها البابليون في متحف الساميات بجامعة هارفارد الأمريكية.

وأضاف شريف محمد شريف في كتابه آنف الذكر أن أول محاولة نقش الخرائط على ألواح من الطين قام بها البابليون الذين امتازوا بمقدرة جغرافية هائلة والتي مكنتهم من رسم عدد كبير من الخرائط. ولعل من أهم العوامل التي ساعدتهم في ذلك عنايتهم الفائقة النظير بعلمي الفلك والرياضيات، وتعج المكتبات العالمية وخاصة المتحف البريطاني بمجموعة من الخرائط المحفوظة لبلاد مابين النهرين.

ومما يؤخذ على علماء بابل في مجال علم الجغرافية أنهم تصوروا كوكب الأرض على شكل قفة مقلوبة، بينما أثبت كرويتها بطريقة علمية علماء العرب والمسلمين في القرن الثاني الهجري، وبقى تصور علماء العرب والمسلمين حيال كروية الأرض معتبرا عبر الأزمان كلها.

نعم بلغت المعرفة الجغرافية عند علماء بابل قمتها فقد كتبوا تصورا جغرافيا علميا لشبه جزيرة العرب وشمال أفريقية حتى مضيق جبل طارق.

لقد سيطر على البابليين اعتقاداتهم في الأساطير الخيالية التي ذكر بعضها

شريف محمد شريف في كتابه المذكور أعلاه ومنها:

١ ـ كان العالم في نظر البابليين كله داخل قبة السماء التي اعتقدوا أن لها أعمدة فيها وراء البحر. أما مركز الكون فقد زعموه واقعا عند منبع الفرات في جبال (طوروس).

٢ ـ اعتقد البابليون أن الأرض فجة غير ناضجة إذ جاء في أساطيرهم أن الأرض قفة مقلوبة طافية (القفة = قارب مستدير الشكل كان يصنع من نبات الحلفا والبردى ثم يُطلى بالقار وكان هذا النوع من القوارب يستعمل في بلاد النهرين منذ الأزل).

٣ ـ اعتقد البابليون أن الأرض تتكون من سبع طبقات.

٤ ـ اعتقد البابليون أن الشمس تختفي ليلا وخلف جبال في شمال الأرض.

٥ ـ اعتقد البابليون أن كل قطر أو مدينة إنما يرتبط حظه بصورة سمائه وما تحتويه من نجوم وكواكب تسيطر على حظوظ الناس في الحياة.

٦ ـ عرف البابليون من الكواكب عطارد والزهرة والمريخ والمشترى وزحل، وهذه الكواكب في نظرهم هي القوة المسيطرة على حظوظ الناس.

٧ ـ استطاع البابليون تسجيل ظاهرة الخسوف والكسوف مع ملاحظة فترات كل منها.

وخلاصة القول أن الكثير من الوثائق التي حصل عليها علماء الآثار المعاصرين توحي بأن علماء بابل كانوا على علم وبصيرة في علم الجغرافية، فلهم آراء ونظريات في هذا الميدان تدل على طول باعهم في ذلك فقد حددوا بالضبط موقع البلدان التي تعاملوا معها ودونوا معلومات دقيقة عن المسالك التي استخدموها بين هذه البلدان.

الفصل الرابع

الفينيقيون وعلم الجغرافيا

سبق وأن تحدثنا عن دور حضارتين عظيمتين لكل من مصر وبلاد النهرين (بابل) في علم الجغرافية. والآن نريد أن نتكلم عن مكانة الحضارة الفينيقية في ميدان علم الجغرافية علماً أن الفينيقيين لم يكن لهم حضارة بالمعنى المعروف، لأنهم ركزوا مجهوداتهم كلها على النواحي التجارية.

الفينيقيون أمة لها سمعة جيدة جدا في الحركة التجارية لذا كان لهم باع طويل في المسالك البرية والبحرية فجابوا شواطىء البحر المتوسط وغيرها سعيا وراء تسويق سلعهم التجارية. كما أن البلدان التي قطنها الفينيقيون تعتبر همزة الوصل بين الشرق والغرب (مصر وبابل).

يذكر شريف محمد شريف في كتابه (تطور الفكر الجغرافي) أن الفينيقيين أمة تجارية بحرية استقرت أساسا على ساحل الليفانت منذ أقدم العصور، فقد احتلت من الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط شريطا ضيقا مطابقا بالتقريب لما هو اليوم موقع (لبنان) وكان حينذاك يعرف باسم فينيقيا. والفينيقيون في الأصل هجرات سامية يرى بعض المؤلفين أنها جاءت أصلا من بابل، ويرى البعض الآخر أنها من منطقة الخليج العربي. على كل حال ليس هناك اختلاف كبير لمن ينتمون، فهم من أصل عربي سواء كانوا من بلاد النهرين أو الخليج العربي.

ويستمر شريف محمد شريف في حديثه عن المسالك التي اتبعها الفينيقيون في نقل تجارتهم من الشرق إلى الغرب، فيقول (كان من الميسر إلى حد ما الانتقال من بابل إلى مصر بالاتجاه شمالا على طول وادي الفرات ثم الهبوط إلى وادي نهر العاصي بين سلسلتي جبال (لبنان) الداخلية و(لبنان) الساحلية، ثم الانحدار

إلى سهل (الليطاني) أو البقاع إلى أعالي الأردن ثم يسهل بعد ذلك اختراق الأرض (فلسطين) على طول امتداد ساحل البحر الأبيض المتوسط حتى يفضي ذلك إلى الشريط الصحراوي المؤدي إلى أرض مصر).

والحقيقة التاريخية الواضحة أنه لم يشهد للفينيقيين بدور في العلوم التجريبية أو العلوم الفلسفية، بل كانت شهرتهم قائمة على أعمالهم التجارية، كما أن مواقفهم العسكرية والسياسية ضعيفة جدا إذا ماقورنت بما قام به قدماء المصريين والبابليون.

والمتواتر أن الفينيقيين يكرهون الحروب في جميع أشكالها فمثلا عندما تحدث بعض المناوشات بسبب الحركة التجارية بينهم وبين أي شعب آخر، يضطرون إلى ترك البلد الذي حصل فيه النزاع التجاري لمنافسيهم معتقدين أن البيع والشراء فيهما متسع للجميع ولا داعي للنزاع والقتال من أجلهما.

تفنن الفينيقيون في الملاحة فصار عندهم أسطول عظيم في كل من البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر ومدخل المحيط الأطلنطي، لذا اتسعت رقعة التجارة مع العالم الخارجي في أفريقية وآسيا. كما ذاع صيتهم في اقتحامهم عباب البحار والأنهار والمحيطات دون خوف أو تردد.

مما تقدم يظهر أن الفينيقيين عرفوا الطرق المختلفة بين بلدان أفريقية وآسيا، ولكنهم للأسف الشديد لم يسجلوا ذلك على خرائط يمكن الاستفادة منها بل كانوا يرون أن هذا سر ويجب الاحتفاظ به لأنفسهم.

وأضاف شريف محمد شريف في كتابه الآنف الذكر أن الفينيقيين احتفظوا بأسرار الطرق التجارية، والمعارف الجغرافية، حرصا على مصادر بضائعهم ومنابع ثروتهم ورخائهم، حتى تظل التجارة دائما في أيديهم دون منازع، وكان الملاحون الفينيقيون يؤثرون الموت على أن يفضوا بأي من أسرار الطرق التجارية في البحار.

اتخذ الفينيقيون (Phoenisans) مراكز تجارية لهم في كل من قبرص وصقلية وقرطاجة وغيرها. ووصلوا السنغال وبلاد فارس والهند وشمال الهند وشمال أوروبا، بحثا وراء تسويق سلعهم التجارية، لأنهم ينظرون إلى الحرف الأخرى بعين الاحتقار، فيرون أن الزراعة والصناعة من حرف المستخدمين. نعم إن

الفينيقيين أمة متفرقة ولم تصنع حضارة علمية، لأن التجارة شغلتهم عن ذلك ولكن الثابت أن رحلاتهم المتكررة برا وبحرا أكسبتهم معارف جغرافية جمة.

ومما لاشك فيه أن الفينيقيين ألموا إلماما تاما بجميع أرجاء العالم القديم فذللوا بعض الصعوبات في شق وتحديد الطرق التي استخدموها، ولكن المؤرخين يأخذون عليهم أنهم لم يعيروا أي اهتمام لرسم الخرائط لتبيان المسالك التي سلكوها في نقل تجارتهم لبلدان العالم القديم، حتى تكون تراثا لهم فيكونوا خير سلف لخير خلف.

فالاتجاه السياسي الذي تبناه الفينيقيون أعطاهم فرصة التجول في مياه البحار والأنهار والمحيطات شرقية كانت أم غربية دون منازع. لذا تبلورت لديهم معارف جغرافية فريدة عن العالم القديم، ولكن شدة حرصهم على الاحتفاظ بسرية مواقع مصادر تجارتهم، جعلت الاستفادة من معلوماتهم الجغرافية محدودة للغاية.

الفصل الخامس

الهنود والفرس وعلم الجغرافية

كان للهنود اهتمامات بالغة بعلم الفلك الذي يعتبر العمود الفقري لعلم الجغرافية القديم وبالفعل دفع علم الفلك حماس علماء الهند أن يأخذوا بدراسة الجغرافية الرياضية والفلكية.

ولايخفى على القارىء أن الخرافات والشعوذة والسحر كانت منتشرة عند الهنود خاصة في مجالي الفلك والجغرافيا. وفن الجغرافيا يخضع تماما لإرادة غريبة، كان يحتاج إلى إرضائها لكي يتطور.

يذكر س. م. ضياء الدين علوي في كتابه (الجغرافية العربية في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين) أن فلكيي السدهانتات (Siddhantas) كانوا يعتقدون أن الأرض على هيئة كرة مستقلة في الفضاء، وعارضوا الفكرة الأسطورية القديمة التي تقول بأن الأرض يحملها حيوان مايرتكز على حيوان آخر وهكذا، وقد اعتقد بعض علماء الهند أن هناك سبع كرات أرضية ترتكز كل منها على الأخرى، ولكل من هذه الكرات الأرضية سكانها، وفي نفس الوقت اعتقد بعض الهنود بوجود سبع سماوات متتالية.

وعلى الرغم من هذه الخزعبلات لا أحد ينكر مكانة علماء الهند. ففيهم العلماء المتفوقون الذين اعتمد علماء العرب والمسلمين على نتاجهم ليس فقط في علم الجغرافيا ولكن في العلوم الأخرى وخاصة العلوم التجريبية منها.

ومن الصعب على الباحث أن يلم ويستقصي نتاج علماء فارس في مجال علم الجغرافية فعلماء فارس لهم باع طويل ليس فقط في الجغرافيا، ولكن في العلوم الأخرى، فكانت فارس مركزا علميا معتمدا منذ الأزل.

لقد ساد اعتقاد عند مؤرخي العلوم أن علماء فارس كانوا يبلورون فكرة أن

الأرض مسطحة وكان هذا في العصور الأولى من تاريخهم، ولكن الثابت أنه في فترة متأخرة تبنى علماء فارس فكرة كروية الأرض، وصاروا ينشرونها بين علمائهم وخصوصا بعد الفتوحات الإسلامية لبلادهم.

ويذكر س.م. ضياء الدين علوي في كتابه آنف الذكر أن الاعتقاد كان سائدا بين الفرس القدماء أن الأرض على هيئة دائرة مسطحة، مع أنه ليس من الواضح تماما ما إذا كانت كلمة الافسية (سكارينا: Skarena تعني مجرد الشكل الدائري أم الشكل الكروي، ولكنه من المؤكد أنه في العصور المتأخرة تبين للفرس أن الأرض على شكل كروي، ومن المعتقد أن الأرض تتكون من سبعة أجزاء أو العوالم السبعة. وهذه الأجزاء أعطيت الاسم الخاص كشور(Kishwer) والكشورات السبعة هي أرزه (Arzeh)، شاقة (schaveh) ، فوروزرشته -Vo rozersht)، وفوروبرشت (Vorobresht)، وخنرز بامي (Khounrez bami)، وفردادفة (Vidodfeh) والحق أن المعرفة الجغرافية امتدت عند الفرس إلى السند، ودرسوا عن كثب البلدان المتاخمة للمحيط الهندي والخليج العربي. وذاع صيت امبراطورية الفرس في المشرق والمغرب ومن ذلك نتج اتساع تأثيرها على المستويين الآسيوي والأفريقي، مما أعطى علماء الجغرافيا في فارس الفرصة الذهبية أن يعملوا اتصالاتهم العلمية لإغناء هذا الميدان الحيوي.

وخلاصة القول أنه كان لكل من بلاد الهند وبلاد فارس أماكن قابلة للسكن لذا كان هناك حركة تنقل منهما وإليهما. وهذه الهجرات والتنقلات والتبادل التجاري قادت الهنود والفرس إلى خلق منهج علمي لفتح المسالك ومعرفة الأرض الوعرة والسهلة لهذا الهدف.

اضطر سكان الهند وفارس إلى تسجيل خبراتهم وتجارتهم، مما اضطرهم إلى رسم الخرائط لكي تكون كوسيلة إيضاح، للرحالين وهكذا أشرقت المعارف الجغرافية.

قام بحارة بلاد فارس برحلات بحرية فزاروا البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط وطافوا حول سواحل أفريقيا من الغرب إلى الشرق.

أما الهنود فقد ركزوا على العلاقة التجارية مع جيرانهم، لذا لم يكن لهم نشاط كبير في موضوع البحرية، بل كانوا مركزين على الطرق البرية ودراستها ورسمها،

لكي يستفيد منها التجار من بلاد الهند وغيرهم.

نعم إن كلا من علماء الهند وفارس كان لديهم المعرفة العقلية لبعض الأفكار الجغرافية التي لم يسبقهم إليها أحد. فتربية الحيوانات والاهتمام بأصناف النبات جعلت منهم جغرافيين لأن هذا يلزمهم معرفة الطرق والتربة والجبال والأنهار والبحار وعادات السكان.

الفصل السادس

الصينيون وعلم الجغرافية

وضع بلاد الصين الجغرافي يساعد على أن يكون الصينيون متميزين في مجال علم الجغرافية، فطوروا الطرق والمحصولات الزراعية والحيوانية في بلادهم، وطبقوا نفس النظريات على البلدان المجاورة، فوصل تأثيرها معظم بلدان آسيا وأفريقيا والحقيقة أننا لانعرف بالضبط متى بدأت الحركة الفكرية الجغرافية في بلاد الصين، ولكن المتواتر أنها بعد الحضارتين المصرية والبابلية، وعليه نستطيع القول إنه من المحتمل جدا أن علماء الصين استفادوا من نتاج هاتين الحضارتين العملاقتين.

لقد سيطرت الأفكار الخرافية والأساطير على نظريات وآراء علماء الصين في علم الجغرافيا فمثلا ظنوا أن الأرض على شكل مربع، وعملوا خريطة تضم مجموعة من المربعات ذات المركز الواحد والعجيب أن مثل هذه الخريطة بقيت ردحا من الزمن مستعملة في بلاد الصين.

ويذكر شريف محمد شريف في كتابه (تطور الفكر الجغرافي) أن رجلين قاما بقياس أبعاد الأرض فقاما مرة بقياس مابين الشمال والجنوب، ومرة أخرى بقياس مابين الشرق والغرب، وفي الحالتين حصلا على نتيجة واحدة أي أن البعدين متساويان وقد وجداه نحو (٨٤٠٠٠)ميل.

يتضح للقارىء أن الصينيين كان عندهم قناعة تامة أن الأرض مسطحة، لأنهم عاشوا أسرى للخزعبلات العقيمة. ومما يؤسف له أن الخرافات والأساطير كانت متوغلة في معظم حضارات العالم القديم التي ظهرت قبل الحضارة العربية والإسلامية.

بدأت حركة الانفتاح لبلاد الصين في القرن الخامس الميلادي، حيث صار

بينهم وبين بلاد فارس علاقات دبلوماسية لذا بذل كل من الصين وفارس جهدا عظيما في بناء الطرق الموصلة بين هذين البلدين.

لقد درس الصينيون عن كثب المسالك البحرية الآمنة في المحيط الهندي وما يتصل به من بحار، فعرفوا آسيا حتى بحر قزوين ونهر الفرات، لذا استطاع علماء الجغرافيا بالصين أن يرسموا خرائط صادقة وفي غاية الأهمية تمثل المكانة التي وصلت إليها الحضارة الصينية القديمة في هذا الميدان.

وأضاف شريف محمد شريف في كتابه آنف الذكر أن الصينيين ظهروا في بلاد فارس في أواسط القرن الخامس الميلادي وفي مقابل ذلك أرسل ملوك الفرس سفارات إلى الصين لتبادل العلاقات الدبلوماسية والتجارية وغيرها. نعم حاول الصينيون أن يعرفوا بلدان آسيا عن قرب، فأرسل امبراطور الصين بعثة للهند سنة ٦٥ ميلادية لدراسة دينهم البوذي، فعادت البعثة مقتنعة في الدين البوذي لذا صار معظم الصينيين يدينون بالبوذية.

ولايخفى على القارىء أنه حصل لبلاد الصين غارات شرسة من المغول والأتراك خلال القرن الرابع والخامس الميلاديين ولكن الصينيين ردّوهم على أعقابهم وهذا التحرك والتحرش بهم قادهم إلى احتلال معظم بلدان الشرق الأقصى، لتكون حزاما أمينا لهم، كما بقى دينهم الرسمي البوذية.

وينقل لنا شريف محمد شريف في كتابه المذكور أعلاه عن كل من محمد صبحي عبدالحكيم وماهر عبدالحميد الليثي في كتابهما علم الخرائط أن أقدم الخرائط الصينية الخريطة التي أوردها بالتفصيل المؤرخ الصيني سوماشين (Su Machien) في كتاباته المعروفة، والمعتقد أن تاريخ إنشاء تلك الخريطة التي وضعها بي هيسو (Pei Hsiu) الذي يعتبر بحق رائد الكارتوجرافيا الصينية حيث وضع أسسها وأضاف إلى علم الخرائط مايأتي:

١ ـ قسم الخريطة إلى شبكة من الخطوط الرأسية والأفقية لتسهيل تحديد مواقع البلاد.

٢ ـ عرف كيفية توجيه الخريطة.

٣ ـ حدد الأبعاد والمسافات بين مختلف الأماكن.

٤ ـ حدد مقدار ارتفاعات الأماكن وانخفاضاتها على الخريطة بعضها إلى بعض.

٥ ـ بين على الخريطة اتجاهات الطرق وانحناءاتها . .

وأتى بعد بي هيسو علماء صينيون أفذاذ وعلى رأسهم هسيه شوانج (Hsieh choung) الذي عاش فيما بين (٤٢١ـ٤٦٦ ميلادية) والذي صنع خريطة خشبية لكافة أقاليم الصين مساحتها عشرة أقدام مربعة، ثم أتى تشايتان (Chia - Tan) الذي عاش فيما بين (٧٣٠ـ٨٠٥م) والذي رسم خريطة مساحتها ثلاثون قدما مربعا لمعظم قارة آسيا .

مما تقدم يتبين لنا أنه في علم الجغرافيا تمكن علماء الصين من معرفة قارة آسيا عن كثب، لذا صار لديهم اتصالات قوية ليس فقط مع البلدان المجاورة ولكن مع معظم بلدان آسيا وشمال أفريقيا، وهذا الاتجاه ساعد تطور علم الجغرافيا لذا من الصعب جدا أن باحثا يدرس الجغرافيا القديمة دون التعرض للدور الذي قام به علماء الصين .

الفصل السابع

اليونانيون وعلم الجغرافية

يعرف اليونان قديما باسم الهلينيين (Hellenes) حيث استوطنوا هلاس (Hellas) وإن كان وطنهم الحقيقي سواحل وجزر وأشباه الجزر في بحر إيجه.

ومما لاشك فيه أن علماء اليونان طوروا المعلومات العلمية التي ورثوها عن الحضارات السابقة لهم فمثلا طاليس (Thales) الملطي (٦٢٤ـ٥٤٥ قبل الميلاد) والذي يعتبر أول فلاسفة اليونان أتى بعلم الهندسة من المصريين أما المزاول الشمسية فقد جاءت عن طريق البابليين.

لقد أضاف علماء اليونان أفكارا جديدة في مجال علم الجغرافيا وعلى رأسهم هيكايتوس (Hecataeus) الملطي (٥٥٠ـ٤٢٥) قبل الميلاد المؤرخ الكبير الذي يرى أن آسيا للفرس والشعوب المتخلفة أما أوربا فبلاد اليونانيين وأفلاطون (٤٢٨ـ٣٤٨ قبل الميلاد) الذي يرى أن جميع الكواكب ثابتة وإنما الذي يتحرك الفلك الحامل للكوكب، وبطليموس (٩٠ـ١٦٧ميلادية) صاحب كتابي الجغرافيا والمجسطي اللذان يحتويان على معظم المعلومات الجغرافية التي توصلت إليها قريحة علماء اليونان في هذا المجال.

ويذكر شريف محمد شريف في كتابه (تطور الفكر الجغرافي) أن كافة الفروع الرئيسية للجغرافية قد نشأت وتأسست على أيدي علماء اليونان منبثقة عن المفهوم العام للجغرافيا لديهم من أنها علم (وصف الأرض) وكانت الجغرافيا عندهم تنقسم إلى قسمين رئيسيين هما:

الجغرافيا الفلكية وهي التي كان مبحثها مركز الكرة الأرضية من المجموعة الشمسية وأبعاد الكرة الأرضية وخطوط الطول والعرض وحركة الأرض وغير ذلك من الخصائص الفلكية، ثم الجغرافية الوصفية أو الإقليمية وكان مبحثها وصف

البلدان والأقاليم.

لقد تقدمت الجغرافيا عند اليونان تقدما ملحوظا منذ الأزل ولكن بدأ الاهتمام الفعلي اليوناني في علم الجغرافيا تقريبا في القرن السادس الميلادي، في الوقت الذي كانت إدارية العرب مقتصرة على الجزيرة العربية تقريبا، وهذا نابع من التجارة المتبادلة بين سكانها. أما علماء العرب والمسلمين فقد طوروا هذا الحقل من حقول المعرفة حتى صار علما شاملا لعادات الناس وحالاتهم الاجتماعية والاقتصادية، ذلك في القرن الثالث الهجري تقريبا.

درس علماء اليونان المناخ وتأثيره على الحياة الحيوانية والنباتية دراسة مفصلة جدا لعلاقتها الوطيدة بعلم الفلك. لذا فإنهم قسموا الأرض اليابسة إلى ثلاثة أقسام من حيث المناخ، شمالية باردة وجنوبية حارة ووسط معتدلة الحرارة، كما أنهم عرفوا الأرض الاستوائية بعدم صلاحيتها للسكن، وذلك عائد لوقوعها حول خط الاستواء الشديد الحرارة، ولعلماء اليونان دور عظيم في تقديم تحليل علمي لتأثير الحرارة على بشرة الإنسان. استفاد اليونانيون من النجوم في معرفة الأوقات الصحيحة للزراعة والملاحة. وهكذا كانت دراستهم أكثر تقدما من سابقيهم في معرفة حركة النجوم والكواكب. ولقد كانت الأفكار الجغرافية متقدمة نوعا ما عند اليونان لذا نجد أنهم يعللون وجود الأصداف والقواقع البحرية في الأرض اليابسة البعيدة عن البحر، أنها كانت في الأزل بحرا ثم تحولت أرضا وذلك بسبب حرارة الشمس التي قلصت مساحة البحر.

يقول شاكر خصباك في كتابه (في الجغرافيا العربية) «اهتم الجغرافيون الإغريق أيضا بالأبحاث الجيومورفولوجية، ولاسيما مايتعلق بتكون البحار وطغيانها على الأرض المهجورة، وقد عللوا ذلك بأن البحار تمثل البقية الباقية من مسطح مائي عظيم الاتساع تقلصت مساحته واشتدت ملوحته بفعل حرارة الشمس. وكانت أبرز أدلتهم على ذلك وجود الأصداف والقواقع البحرية ورواسب الأملاح داخل اليابس القارى بعيدا عن البحار. كما ارتأى البعض منهم بأن سواحل البحر وأطراف اليابس القاري تحدث بها تغيرات على امتداد فترات زمنية طويلة، وقد تحدث التغيرات في أعقاب هطول أمطار غزيرة، واعتقدوا أيضا بأن بعض السهول كانت تحتلها البحيرات في يوم من الأيام، ثم

ارتفعت قيعان تلك البحيرات بفعل حركة أرضية.

يتضح للقارىء أن المعرفة الجغرافية عند اليونان أشرقت وتألقت، لأنها كانت راسخة الأصول الخالية من الخرافات والأساطير التي سيطرت على نتاج الحضارات السابقة لهم. في بادىء الأمر يظهر أن علماء اليونان ركزوا في دراساتهم وتحقيقاتهم في حقل الجغرافيا على البلدان المجاورة لبحر ايجه، ولكنهم سرعان ما اتسعت نظرتهم إلى الأقطار الغنية في كل من آسيا وأفريقيا وأوروبا، وذلك لتسويق تجارتهم ولامتداد تأثيرهم السياسي والعسكري حتى صارت امبراطوريتهم مترامية الأطراف.

حاول علماء اليونان قياس مساحة المعمورة بالسكان، ولكنهم أخفقوا في ذلك، لأن معرفتهم بالجزء المأهول محدودة جدا، حيث إن عندهم المعلومات الضرورية للقارات الثلاث آسيا وأفريقيا وأوروبا، أما الأماكن الأخرى فاستخدموا الحدس، وهذه الطريقة سقيمة في مجال علم الجغرافية.

تأسس علم الجغرافية عند علماء اليونان على ثلاث حقائق الأولى الكشوفات الجغرافية والثانية رسم الخرائط، والثالثة التأمل في الكون، لذا يتضح أن علماء اليونان وصلوا في علم الجغرافية إلى مستوى راق، وذلك لاعتماد علمائهم في هذا المجال على علم الفلك.

يقول: شريف محمد شريف في كتابه (تطور الفكر الجغرافي) تدبر مفكرو اليونان وفلاسفتهم مختلف الأجرام السماوية، وحاولوا جادين دراستها لمعرفة كنهها، والوقوف على طبيعتها وخصائصها، ثم إدراك نظمها، وتفسير حركتها.

والجدير ذكره أنه لم يكن لدى اليونان خرافات في علم الفلك بالقدر الذي ساد لدى غيرهم من الأمم، بل استطاعوا بكل جدارة التوصل إلى الحقيقة بإعمال الفكر، وتحكم العقل لذا قطعوا في ميدان علم الجغرافية شوطا كبيرا في سبيل التقدم مما جعل المؤرخين للعلوم يشهدون لهم بالنبوغ في هذا الحقل الحيوي.

بذل علماء اليونان مجهودا جبارا في دراسة بعض الحقائق عن كوكب الأرض، فاهتموا بنشأتها ومركزها وحجمها وحركتها، وقد توصلوا إلى بعض المعلومات بالبراهين والأدلة القاطعة التي لاتقبل تأويلا لديهم، فمثلا قالوا بكروية الأرض، وأنها مركز الكون، ومستقرة دون حركة وأن محيطها (٧٣,٠٠٠)كيلومتر.

نعم استفاد علماء اليونان من المعلومات الرياضية والفلكية التي ورثوها عن علماء بابل. لذا نجد أنهم عرفوا معرفة جيدة تحركات النجوم، وتوصلوا إلى نتيجة دقيقة نوعا ما لحجم القمر والشمس والأرض وبعد كل من القمر والشمس عن الأرض.

يذكر شاكر خصباك في كتابه (في الجغرافية العربية) إن انجازات علماء اليونان ترتبط تماما بالجغرافية الفلكية والرياضية التي برزوا فيها، ومع أن اليونان استفادوا فائدة كبرى من العلوم السابقة في علمي الفلك والرياضيات، ولاسيما علوم البابليين. فقد توصل علماء اليونان إلى رصد حركات الكواكب والنجوم والقمر على مدار العام بصورة دقيقة، ووضعوا قائمة بأسماء عدد كبير من الكواكب والنجوم. وقد ربطوا حركة المد والجزر في البحار بتحركات القمر، وإن كان ربطهم وتعليلهم فيه بعض الغموض وكذلك أدركوا تماما بأن أشعة الشمس وزوايا سقوطها على الأرض مسئولة عن توزيع الحرارة على الكرة الأرضية.

لقد برز وتألق دور علماء اليونان في ميدان الجغرافية الفلكية التي تعتمد كل الاعتماد على الرياضيات وذلك لتحديد خط العرض الأساسي الذي يمتد على طول المعمور من العالم. ومن أشهر رواد الحضارة اليونانية الذين دعموا هذا الحقل إقليدس وأرخميدس.

ومن الملاحظ أن علماء اليونان قد نجحوا نجاحا باهرا في رسم الخرائط للمناطق التي يعرفونها، مما قادهم إلى افتراض أن هناك قارات أخرى بجانب القارات الثلاثة آسيا وأفريقية وأوروبا وتوجد خلف المحيط الأطلسي.

يذكر شريف محمد شريف في كتابه آنف الذكر أن اليونان حين تأسيسهم لعلم الخرائط ومزاولة فن رسمها، قد استفادوا كثيرا مما بلغته كل من مصر وبابل من تقدم في علمي الفلك والرياضيات ويمكن القول أن الخرائط اليونانية تعتبر بحق نقطة البداية في تاريخ هذا الفن الجغرافي الهام، والحقيقة أن الخرائط اليونانية كانت تمتاز بالأمانة العلمية والدقة في توضيح المعالم على الخرائط. لذلك كان علماء اليونان يتركون المناطق المجهولة لهم، أو التي ليست لديهم عنها معلومات كافية ـ يتركونها بيضاء.

والجدير بالذكر أن أول خريطة للعالم رسمها العالم اليوناني انكسمندر (Anax-

unander) وذلك سنة ٥٧٥ قبل الميلاد، وقد ضمن خريطته هذه جميع المعلومات المعروفة عن الأرض حينذاك.

ولايسعنا في هذا المقام إلا أن نقول بأمانة إن علماء اليونان لهم باع طويل في علم الجغرافية الفلكية، مما سهل الطريق واختصره على علماء العرب والمسلمين، لذا نرى علماء العرب والمسلمين أولوا عنايتهم للجغرافية الوصفية التي نسيها علماء اليونان.

الفصل الثامن

الرومانيون وعلم الجغرافية

تقلصت الأفكار الإبداعية في علم الجغرافية، في الفترة التي كانت الدول الرومانية مسيطرة على معظم بلاد العالم، ولكن هناك بعض العلماء الذين عملوا في الامبراطورية الرومانية والذين أدوا رسالة جليلة في حقل الجغرافية أمثال: اسطرابون (strobo) يوناني الأصل ولد في بنطس سنة ٦٣ قبل الميلاد، وهو صاحب العمل الجغرافي المكون من ١٧مجلدا، وكذلك بليني (Pliny) من العلماء الموثوق بهم عند الأباطرة وأنتج موسوعته العلمية سنة ٧٩ ميلادية والتي تحتوي على ٣٧مجلدا، أما مارينوس الصوري (Marinus tyre) فله صولة وجولة في علم الجغرافية، مع أنه من علماء الرياضيات، وقد كتب سنة ١١٠ميلادية كتابا في مجال علم الجغرافية صار من أهم المصادر للباحثين.

ولايخفى على القارىء أن إيطاليا لها موقع جغرافي عظيم، ومتميزة بين الدول الأوربية إضافة إلى أنها مع جزيرة صقلية تقسمان البحر الأبيض المتوسط إلى حوضين هامين، وتشتهر إيطاليا بكثرة مرافئها، لذا صارت من الأقطار الأوربية المحببة والمرغوب بها . . والجدير بالذكر أن روما تأسست سنة ٧٥٣ قبل الميلاد.

نمت وترعرعت الامبراطورية الرومانية كقوة عسكرية ضارية، لذا اضطر اليونانيون كارهين الاعتراف بها والتسليم بسلطتهم العسكرية، لذلك استولوا بقوة السلاح على معظم العالم القديم.

يذكر شريف محمد شريف في كتابه (تطورات الفكر الجغرافي) أن تفوق الجيوش الرومانية، وقوة أساطيلها البحرية، جعل النصر حليفا للرومان، فما أن وافى عام١٤٦ قبل الميلاد إلا وقد أجبرت اليونان على الاعتراف بسيادة روما، وبذلك خلا البحر الأبيض المتوسط ممن ينافس روما على سيادته وأخذت البلاد

المطلة على البحر الأبيض المتوسط تقع صرعى في يد القوة الرومانية التي آلت إليها سيادة البحر والبر، وبذلك ظل البحر الأبيض المتوسط قرونا عديدة بحر رومانيا خالصا، لذا بسطت الامبراطورية الرومانية سلطانها على مساحات كبيرة فيما وراء البحار بكل من قارات آسيا وأفريقيا وأوروبا، واقتضى حكم هذه الأقطار حفظ الاتصال بينها وبين الحكومة المركزية في روما.

ومما لاشك فيه أن الرومان اهتموا اهتماما بالغا ببسط نفوذهم السياسي والاقتصادي عبر القوة العسكرية على العالم القديم، لذا اضطروا أن يعبدوا الطرق الموصلة إلى أجزاء الامبراطورية الرومانية المترامية الأطراف، وفي نظرنا أن تمهيد الطرق ظاهرة جغرافية لأن المسالك سواء كانت برية أو بحرية هي الوسيلة التي توفر الجهود والطاقات البشرية بين الدول.

ويذكر شريف محمد شريف في كتابه آنف الذكر أن الطرق البرية التي اهتم الرومان بإنشائها، ونالوا شهرة ببنائها في كافة أرجاء امبراطوريتهم الفسيحة، مكنت الرومان من السيطرة على كافة الولايات والأقطار، وارتفعت لديهم الكفاءتان العسكرية والاقتصادية، وبذلك يمكن القول أن الجغرافية أعطت الرومان النفوذ والسلطة، وليس أدل على اهتمام الرومان بالجغرافية من أنه في عهد الامبراطور أغسطس انتشرت خرائط للامبراطورية الرومانية معروضة في روما لتعليم المواطن العادي.

والمعروف بل المتواتر عن المؤرخين للعلوم أن علماء الرومان لم يصلوا إلى المكانة العلمية التي وصل إليها علماء اليونان، فالحقيقية أن الرومان يعتبرون متخلفين علميا، لأنهم مجموعة من الفلاحين لايهتمون بالعلم، ولكنهم ركزوا على جمع المال والحروب المتكررة للسيطرة على مناطق الثروة الزراعية والمعدنية مهما كلف الأمر.

وعندما قويت نفوذ الامبراطورية الرومانية في عهد الامبراطور الروماني قسطنطين عام ٣٢٤م بدأ عصر التدهور العلمي في العالم آنذاك، وظهرت بعض الأفكار الجغرافية الخرافية التي تدل على جهل مطبق، وذلك بسبب سيطرة الكنيسة على المراكز الثقافية في ذلك الحين.

ويذكر شاكر خصباك في كتابه (في الجغرافية العربية) أنه من المفروض أن

يستمر التقدم العلمي الذي نماه علماء اليونان، إلا أن تبني الامبراطورية الرومانية الديانة المسيحية في عهد الامبراطور قسطنطين قد أدى إلى فرض تفكير الكنيسة العقيم على الثقافة الأوربية وذاعت مفاهيم جغرافية متخلفة ونسخت النظريات العظيمة المتطورة عن الأرض وظواهرها الطبيعية والبشرية وشكلها وحجمها وأقطارها، كل هذه الأفكار توارت في زوايا النسيان.

نعم لم يبق هذا التدهور طويلا، حيث بعث الله تبارك وتعالى نبي الهدى محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم الذي بدأ انطلاقة الحضارة العربية والإسلامية التي خدمت الإنسانية، فحفظ علماء العرب والمسلمين نتاج اليونان في ميدان علم الجغرافية وأضافوا إليه مفاهيم جديدة اندهش منها علماء العصر الحديث.

الفصل التاسع

العرب والمسلمون وعلم الجغرافيا

مما لاشك فيه أن علماء العرب والمسلمين قد ذللوا المعلومات التي ورثوها من الحضارات السابقة لهم في علم الجغرافيا، فعلماء العرب والمسلمين صححوا كثيرا من الأغلاط في نظريات بطليموس، مثل مبالغة بطليموس في تحديد طول البحر الأبيض المتوسط وامتداد الجزء المعمور من الأرض، وكذلك تصوره خطأ بأن كلا من المحيط الهندي والمحيط الهادي بحيرة مغلقة، وغلطته في تعيين موقع بحر قزوين والخليج العربي وتحديد حجم جزيرة سيرلانكا (سيلان).

بدهي أن علماء العرب والمسلمين تفوقوا على علماء الرومان في مجال علم الجغرافية لأنهم دخلوا الصين وأفريقيا دون الرومان. ودعاهم ذلك إلى دراسة مناخ الغابات المختلفة هذا مما دفع علماء أوربا خلال العصور الوسطى أن يتلقوا معلوماتهم عن أفريقيا والصين من المصادر العربية، لأنهم كانوا يجهلونها تماما.

يجب أن نذكر في هذه المناسبة أن لعلماء العرب والمسلمين الفضل في التعرف على الجغرافية الطبيعية والاقتصادية للبلدان التي مروا بها. كما أن الفتوحات الإسلامية هيأت لهم فرصة لدراسة صفات الأرض وأقسامها.

يقول كل من مريسي لومبارد وعبدالرحمن حميدة في كتابهما (الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي خلال القرون الأربعة الأولى). لقد كان صدر العصر الوسيط، أي منذ تأسيس القسطنطينية في القرن الرابع الميلادي حتى موجة الاندفاع الصليبي ابتداء من القرن الحادي عشر، كان حقبة شرقية في التاريخ، شرقية في كل مجالاتها وفي كل مظاهرها. ويكون هذا صحيحا، على الخصوص، بالنسبة للقرون الثلاثة التي تبدأ من منتصف القرن الثامن حتى أواسط القرن الحادي عشر الميلادي والتي تنطبق على أوج الازدهار في العالم الإسلامي. ففي تلك الفترة

كانت تستقر في الشرق الإسلامي المراكز الفعالة في الحياة الاقتصادية والفكرية، أما الغرب الأوربي فلم يكن يحوي أكثر من مساحات خاوية ومستقبلة ضمن رقعة انحسرت فيها الفعالية التجارية والثقافية منذ انحطاط روما وزحف جحافل البرابرة من أواسط آسيا.

وأضاف محمد السيد غلاب في مقالة تحت عنوان (الجغرافيون المسلمون ودورهم في تطور الفكر الجغرافي) ظهرت ضمن بحوث المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول (جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠٤هجرية) أن دراسة تطور الفكر الجغرافي لدى علماء العرب والمسلمين في فترة ازدهار العلوم العربية والإسلامية تعتبر بحق حلقة هامة في تاريخ علم الجغرافية وتطور أفكاره الرئيسية. ونحب هنا أن نؤكد على أن الإسلام قد دعا العرب والمسلمين عامة إلى النظر في السماوات والأرض، وإلى تأمل الكون، وظواهر الطبيعة وسقوط الأمطار ونمو الأعشاب والأشجار، وتعاقب الليل والنهار وخسوف القمر وكسوف الشمس وبدء الخلق وتطوره، ودعا أيضا إلى السفر والارتحال والسياحة في الأرض وتأمل خلق الله واختلاف الألسنة. كما دعا الإسلام إلى التدبر والتعقل لاكتشاف أسرار المخلوقات وتعظيم الخالق المصور سبحانه وتعالى.

أقبل علماء العرب والمسلمين على دراسة التراث الجغرافي النظري الذي ورثوه عن الحضارتين اليونانية والرومانية، حيث كان لدى علماء العرب والمسلمين الرغبة الصادقة بل العارمة ليس فقط لمعرفة المسالك والطرق للأمة الإسلامية الفسيحة ولكن للعالم أجمع.

يذكر محمد محمود الصياد في كتابه (من الوجهة الجغرافية) أن روح البحث العلمي عندما ظهر الإسلام قد انعدمت أو كادت، إذ فشل علماء الرومان في الأخذ بآراء فلاسفتهم بل ظفرت الكنيسة المسيحية ببلورة أفكارها العقيمة، ولكن علماء العرب والمسلمين عندما تقدمت دولتهم عادوا إلى بعث النظريات الجغرافية اليونانية القديمة، وربطوا بذلك بين العلم القديم والحديث، واختلفوا عن اليونان والرومان معا، فقد كان اليونان أصحاب حضارة وثقافة، بينما الرومان كانوا قوم حروب وفتوح، أما العرب والمسلمون فقد قاموا بالأمرين معا فأسسوا دولة إسلامية عظيمة مترامية الأطراف ترتكز على أسس وقوانين راسخة، وبنى في

الوقت نفسه علماء العرب والمسلمين حضارة عالمية، لم تكتف بالحدود المحلية، بل أخذت عن الحضارات المصرية والبابلية والفارسية والهندية واليونانية وغيرها.

استفاد علماء العرب والمسلمين من نتاج علماء اليونان والرومان في مجال الجغرافيا الفلكية ولكنهم لم يتوقفوا على النقل عن علماء اليونان والرومان، بل أبدعوا ليس فقط في الجغرافيا الفلكية ولكن أيضا في الجغرافية الوصفية التي تعتبر من ابتكاراتهم العلمية، فأضافوا أفكارا ومفاهيم جديدة في مجال علم الجغرافية بوجه عام.

يذكر أغناطيوس كراتشكوفسكي في كتابه (تاريخ الأدب الجغرافي العربي) أن علماء الغرب يعرفون تمام المعرفة أن علماء العرب والمسلمين هم الذين أرسو الأسس الأولى لعلم الجغرافية الحديثة، علماً أنهم استفادوا الفائدة الرائعة من المادة الهائلة في مجال علم الجغرافية التي ورثوها عن علماء اليونان خلال العصور الوسطى.

وأضاف شاكر خصباك في كتابه (في الجغرافيا العربية) أن علماء العرب والمسلمين استفادوا فائدة كبيرة من آراء اليونان والرومان الجغرافية، حيث عمل المترجمون العرب على نقل أهم المؤلفات الجغرافية والرياضية والفلكية إلى اللغة العربية. ثم تلت هذه المرحلة مرحلة الإبداع الذاتي التي طور فيها علماء العرب والمسلمين علم الفلك والجغرافية والرياضيات وبقيت العلوم الأخرى تتطور تطورا ملحوظا. ولذلك فقد كانت خدمة العرب للفكر الجغرافي خدمة مزدوجة فقد حفظوا تراث اليونان من الضياع، كما قدموا المفاهيم الجغرافية في حقول متعددة ولاسيما حقلي الجغرافية الفلكية والوصفية.

إن مِن أهم المصادر التي نهل منها علماء العرب والمسلمين علم الجغرافية هي:

١ ـ الشعر العربي القديم، حيث إن الشعر العربي القديم غني بأعلام وأماكن جغرافية كانت معروفة عند البدو الرحل.

٢ ـ علماء اللغة العربية، حيث بقيت الصلة متينة بين اللغويين والجغرافيين، ويظهر ذلك واضحا من المعاجم العربية.

٣ ـ القرآن الكريم والأحاديث النبوية تناولت كثيرا من المعلومات الجغرافية الفلكية والوصفية.

٤ ـ قصص تناولها اليهود والنصارى تحتوي على معلومات جغرافية ثمينة.
٥ ـ المصادر الفارسية والمصرية والفينيقية والهندية واليونانية والرومانية وغيرها.
٦ ـ الرحلات التي قام بها علماء العرب والمسلمين محاولين معرفة المسالك والممالك.

المصادر الأولية للمعرفة الجغرافية عند علماء العرب والمسلمين:

كانت معرفة العرب الجغرافية قبل الإسلام محدودة للغاية، فلم تتعد معرفة البلاد المجاورة لهم كالهند وإيران وتركيا والشام ومصر والحبشة والعراق، وذلك فيما يتعلق بعلم الأنواء والهداية بالنجوم ومسالك الطرق الصحراوية والإنتاج الزراعي، لأن التعامل مع هذه البلدان تجاريا كان على أشده.

ولم تستمر الحال على هذا، بل بعد بعثة الرسول ﷺ انتشر الإسلام وكثرت الفتوحات الإسلامية، لذا صار لعلماء العرب والمسلمين صولة وجولة في مجال علم الجغرافية التي كانت في حالة وهن في العصر الروماني المتدهور علميا.

ولايخفى على القارىء أن العرب قبل الإسلام اشتهروا في رحلتيهما التجارية (رحلة الشتاء ورحلة الصيف) مما أعطاهم الفرصة الذهبية لمعرفة المسالك والممالك آنذاك. فعندما كثرت الفتوحات الإسلامية كان العرب عندهم معلومات جغرافية كافية لكثير من البلدان المفتوحة بواسطة جيوشهم الأشاوس.

لقد استقى علماء العرب والمسلمين المهتمون في علم الجغرافية أيضا كثيرا من معلوماتهم الجغرافية من الشعر العربي القديم، حيث كان من أهم وأغنى المصادر في هذا المجال الحيوي لذا نرى نوابغ اللغة العربية من كبار رواد علم الجغرافية وعلى رأسهم الأصمعي.

ويذكر محمد محمود الصياد في كتابه (من الوجهة الجغرافية) أن أشعار العرب اشتملت على كثير من الحقائق الجغرافية الخاصة بوصف بيئتهم الطبيعية حتى أصبح الشعر العربي القديم مصدرا هاما في الكتابات الجغرافية الأولى فهو غني بالأعلام الجغرافية من أودية وآبار وجبال وتلال ومعالم ورسوم ونظرة سريعة في المعلقات السبع أوالعشر توضح مدى اهتمام العرب بالمظاهر الجغرافية لبلادهم. وقد انتقلت هذه المعلومات الثمينة من جيل إلى آخر على ألسنة الرواة، فقد كانت

رواية الشعر من الفضل ماعني به العرب على مر العصور، ولذا لم يكن غريبا أن نجد الجغرافية بين الفنون التي يعمل بها اللغويون.

إن المعلومات الجغرافية الثمينة التي ضمنها العرب الأوائل أشعارهم تحت اسم الجغرافية الوصفية التي تميز بها علماء العرب والمسلمين. كما أنهم لم يهملوا الجغرافية الفلكية لالتصاقها بمعرفة المناخ وحركة النجوم التي يهتدي بها العرب في الصحاري القاحلة.

وهناك إجماع عند مؤرخي العلوم أن أسباب تفوق علماء العرب والمسلمين في علم الفلك صحو السماء خلال معظم شهور السنة كما كان لعلماء العرب والمسلمين اهتمامات كثيرة في دراسة النجوم وحركتها. ولذا عرفوا عددا كبيرا منها ولاتزال تحمل الاسم العربي.

لقد طور علماء العرب والمسلمين في علم الجغرافية لأنهم يعتقدون بقناعة أنه العلم الوحيد الذي يجتمع فيه التاجر والمسافر والقاضي والفقيه والأديب وعلماء العلوم البحتة والتطبيقية، فهو المصدر الذي يعرف الإنسان بتاريخ الزراعة والتجارة وموقع البلاد وعادات أهلها، لذا حث المصطفى محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم على دراسته.

أخذ علماء العرب والمسلمين بتوجيه الرسول ﷺ وتنفيذ أوامره، فكانت دراستهم في الأول مقتصرة على الثروة الحيوانية والموقع والمناخ، ولكن سرعان ماتسعت رقعة الدولة الإسلامية وبدأ علماء العرب والمسلمين بتطوير كل من الجغرافية الوصفية والجغرافية الفلكية ونبغوا فيهما، وبقيت مؤلفاتهم من أهم المصادر في هذا الميدان.

ويذكر عبدالرحمن حميدة في كتابه (أعلام الجغرافيين العرب) أن عناية العرب بعلم الجغرافية وليدة ظروف البيئة إلى حد كبير جدا فقد نشأوا في وسط يلزمهم أن يلموا بالمعلومات الجغرافية المختلفة فلم يكن بمقدورهم أن يقوموا بتجارتهم عبر الصحارى الشاسعة، إلا إذا عرفوا شيئا عن النجوم والكواكب التي تلمع في سمائهم الصافية الأديم ليتخذوا منها علامات، وما كان لهم أن ينتقلوا بإبلهم وأغنامهم وهي أثمن مايملكون إلا إذا عرفوا موارد المياه ومنابت الكلأ وعرفوا الوحش من حيوان البادية وأين يعيش.

اشتهر العرب قبل الإسلام وبعده بالرحلات المتكررة باحثين عن مصادر رزقهم عبر تسويق تجارتهم، وإثراء معرفتهم الجغرافية خلال اتصالاتهم الشخصية، لذا تجشموا أعباء ومتاعب السفر.

ومما لاشك فيه أن علماء العرب والمسلمين هم الذين قضوا على المعتقدات الفاسدة التي تبناها الرومانيون بسبب تعاليم كنيستهم المسيحية العقيمة. لذا اندفع علماء العرب والمسلمين إلى دراسة علم الجغرافية، فهم الذين بدأوا الحركة الفكرية الجغرافية التي قامت على أسس علمية فقد قسموا علم الجغرافية إلى فروع كثيرة هي الجغرافية الطبيعية والبشرية والاقتصادية والسياسية والتاريخية. وبهذا العمل الشريف أنقذ علماء العرب والمسلمين علم الجغرافية من الخرافات والأساطير التي لاتأتي بخير.

اهتمام علماء العرب والمسلمين بعلم الجغرافية:

في بادىء الأمر كانت دراسة علماء العرب والمسلمين لعلم الجغرافية تستند على معرفة الأرض من حيث مسالكها وسكانها من إنسان وحيوان ومنتجاتها النباتية والمعدنية ثم نشاط قاطنيها من الناحية الاقتصادية.

عندما كبرت الدولة الإسلامية بعد الفتوحات وجدوا أنه من الضروري الوقوف على أحوال البلاد من أجواء ومسافات وعادات وحرارة وبرودة واتجاهات سياسية واقتصادية.

وبالفعل اهتم علماء العرب والمسلمين بعلم الجغرافية اهتماما بالغا بالجغرافية الوصفية وذلك بعد الفتوحات الإسلامية، والجغرافية الوصفية تعتبر من أهم فروع الجغرافية الحديثة وهي التي أهملها الهنود واليونان والرومان وغيرهم من السابقين لعلماء العرب والمسلمين ولذا يحسن القول أن علماء العرب والمسلمين هم مؤسسو علم الجغرافية الوصفية.

البريد من أهم الوسائل التي قادت علماء العرب والمسلمين إلى تطوير معلوماتهم الجغرافية كما أن كلمة بريد كلمة عربية فصيحة وليست ككلمة جغرافية التي تعتبر دخيلة على اللغة العربية والتي كان يستخدم علماء العرب والمسلمين مكانها (علم تقويم البلدان) وفي الإسلام أول من فكر في البريد

معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه، ثم عممه على البلاد الإسلامية عبدالملك بن مروان.

نجد أن معرفة الطرق بين الأقطار الإسلامية ضرورية، لكي يصل البريد إلى الخليفة في الوقت المناسب-وساعي البريد في ذلك الوقت يختلف تماما عن ساعي البريد الآن فالشخص الذي يكلف في هذه المهمة عادة من الثقات والمعروفين لدى الخليفة لأنه ينقل الأخبار أولا بأول عن العمال ونوايا الأعداء فهو العين الساهرة للخليفة.

لقد أولى علماء العرب والمسلمين عناية خاصة للجغرافية الفلكية والرياضية لأنها تحدد خطوط الطول والعرض فعلماء العرب والمسلمين هم الذين طوروا في علم الجغرافية الفلكية والرياضية حيث استعملوا النظريات الرياضية والمثلثية في بعض ابتكاراتهم الجغرافية لذا فهم بحق مطوروا الجغرافية الفلكية والرياضية التي كانت في عزها في الفترة اليونانية وتقهقرت في العصر الروماني.

اهتم علماء العرب والمسلمين في دراسة نتاج بطليموس وخاصة كتابه المجسطى وكتاب الجغرافية ويعرف بكتاب (المرشد إلى الجغرافيا) أو (المدخل إلى الجغرافيا) لأنها من أهم المصادر التي استفاد منها علماء العرب والمسلمين في مجال علم الجغرافية قام بترجمة المجسطي الحجاج بن يوسف بن مطر (١٧٠-٢٢٠هجرية) ثم صحح هذه الترجمة وعلق عليها ثابت بن قره الحراني (٢١٩-٢٨٨)هجرية.

المجسطي المعروف باسم الجامع عند علماء العرب والمسلمين أما عند علماء الغرب فاسمه المجسط وهذا الكتاب يحتوي على معلومات في غاية الأهمية عن كل من علم الفلك وعلم الجغرافية وقد تم نشره سنة٨٨٩ هجرية.

ركز علماء العرب والمسلمين على دراسة علم الجغرافية لأن البيئة تحتم عليهم ذلك فمثلا فريضة الحج تفرض على علماء العرب والمسلمين معرفة المسالك والطرق المؤدية إلى مكة المكرمة أيضا ضرورة الوقوف على حدود البلدان المفتوحة وغيرها.

مع أن علماء العرب والمسلمين درسوا بكل دقة الجغرافية الفلكية التي تعتمد تماما على علم الرياضيات والجغرافية الوصفية التي تختص بوصف المدن والأقطار

والأنهار والجبال وحالة السكان فلم يكتفوا بهذا بل أعطوا عناية تامة لمعرفة المناخ والتقاسيم السياسية وعادات الناس، ولم يهملوا أبدا العلاقة القوية بين علم الجغرافية والتاريخ وعلم الاجتماع.

ساق علماء العرب والمسلمين البراهين على أن للأرض والمناخ تأثيرا في بشرة الإنسان وبدنه وأخلاقه، وبين الجغرافيون العرب والمسلمون الصلة القوية بين علمي الجغرافية والفلك بما جاءوا به من نظريات كثيرة في علم الجغرافية الرياضية والفلكية تدل على مواقيت الصلاة والصيام والحج فلعلماء العرب والمسلمين الفضل في ربط الجغرافية بعلمي الفلك والرياضيات والتي قدموا فيهما دراسات عميقة تدل على طول باعهم في هذين الميدانين الحيويين.

تميز علم الجغرافية عن سائر العلوم الأخرى لأن الكثير من الذين عملوا في هذا الميدان غير متخصصين به فمنهم اللغوي والطبيب والرياضي والفلكي وغيرهم لأن علماء العرب والمسلمين رأوا أن علم الجغرافية مادة ثقافية وضرورية للإنسان حيث إنها تجمع بين كثير من فروع المعرفة.

لقد تحمل علماء العرب والمسلمين مشاق ومخاطر الطرق للطواف في البلدان النائية للحصول على معلومات جغرافية جديدة كما أنهم كانوا يتنافسون على الحصول على المعلومات الصائبة لأن الحكام والتجار يشجعونهم على ذلك ويصرفون لهم المكافآت التشجيعية السخية والمغنية.

وكان تشجيع الحكام والتجار آنذاك نابعا عن أهمية المعلومات التي يحصل عليها علماء الجغرافية والتي ساعدت هؤلاء الحكام والتجار في معرفة الطرق والأقاليم وعادات السكان والمحصولات الزراعية والمعدنية ومما لاشك فيه أن الدراسات التي قام بها علماء العرب والمسلمين في ميدان علم الجغرافية كانت من أهم المصادر لتقوية نفوذهم.

اعتماد علماء العرب والمسلمين في علم الجغرافية على الدراسة الميدانية:

لقد اعتمد علماء العرب والمسلمين في حقل الجغرافية على الرحلات الميدانية لكي يحصلوا على الخبرة الشخصية التي لاتقدر بثمن وذلك لاهتمام المسلمين في النواحي التجارية والفتوحات، لذا نرى علماء العرب والمسلمين تميزوا عن غيرهم

في الأسفار للمعاينة الميدانية. ويظهر ذلك في مؤلفاتهم العديدة في هذا المجال ونتيجة لرحلاتهم الكثيرة عرفوا عن كثب الجزء المعمور من الأرض (الجزء الشمالي) وغير المعمور (الجزء الجنوبي) وخط الاستواء والمنطقتين الاستوائية والقطبية وغير ذلك.

حث الإسلام على الأسفار في طلب الرزق ونشر تعاليم الدين الحنيف: فقال: تبارك وتعالى: **﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا، فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾** «سورة الملك آية١٥».

وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه:

سافر تجد عوضا عمن تفارقه   وانصب فإن لذيذ العيش في النصب

إني رأيت وقوف الماء يفسده   إن سال طاب وإن لم يجر لم يطب

والشمس لو وقفت في الفلك دائمة   لملها الناس من عجم ومن عرب

ولم يكتف علماء العرب والمسلمين في علم الجغرافية على مجرد السماع والنقل، بل استندوا على التجربة والمشاهدة الميدانية، وذلك باستخدام الخرائط الجغرافية كوسائل للإيضاح. وقد استفادوا من الاتصال التجاري الذي صار بينهم وبين البلدان التي يتعاملون معها. لذا أصبح عندهم اطلاع واسع في حقل الجغرافية بوجه عام.

والجدير بالذكر أنه يتخلل الرحلات الميمونة بعض القصص الطريفة التي تنعش القارىء إلى درجة أنه يصير متعشما لزيارة تلك البلاد مما دفع عجلة تطور علم الجغرافية.

عندما يقوم علماء العرب والمسلمين برحلة حول العالم عادة يكون لها طابع علمي أدبي نتج عن ذلك أن تقارير الرحلات التي دونها علماء العرب والمسلمين لها أهمية علمية خاصة لأنها تحتوي على معلومات قيمة عن الاقتصاد والسياسية والعمران وتعدد السكان والحياة الاجتماعية والعلمية للبلدان التي زاروها.

وهناك بعض الرحلات التي يقوم بها بعض السائحين المثقفين وتشمل بعض الأحيان معلومات استكشافية مفيدة للباحث في حقلي الأدب والجغرافية، لذا نجد علماء العرب والمسلمين لم يهملوا هذا الجانب الهام، بل استغلوه أحسن استغلال.

نعم بقيت القارة الأفريقية مجهولة لعلماء الغرب، اللهم إلا السواحل الشمالية من القارة الأفريقية، بينما درس علماء العرب والمسلمين بالتفصيل هذه القارة واستفادوا من خبرات قاطنيها الزراعية والحيوانية، ولم تكن قسوة المناخ والغابات حاجزا أمامهم. والحق أن علماء أوروبا اعتمدوا في مصنفاتهم على ماكتبه علماء العرب والمسلمين ليس فقط عن القارة الأفريقية ولكن أيضا عن المحيط الهندي وغيره.

مع الأسف الشديد أن يتناقل علماء الغرب أن علماء العرب والمسلمين لهم دور فقط في البر والصحارى ومعرفة طرقها، أما الملاحة فإنهم يجهلونها تماما. ولكن الحقيقة والأمانة توضح أن علماء العرب والمسلمين تميزوا في معرفة كل من البر والبحر، فكان لهم دور مرموق في الأسفار عبر الخليج العربي والبحر الأبيض المتوسط وغيرهما.

وكان العرب والمسلمون يجوبون عباب البحر منذ فجر التاريخ، وذلك لأن بلادهم محاطة بالبحر من ثلاث جهات، يبدأ من خليج السويس وينتهي إلى الخليج العربي عند البصرة، والحقيقة أن المغامرة في البحر أقل بكثير هولا من عبور الصحاري القاحلة والجبال العارية في شبه الجزيرة العربية وغيرها.

ولاننكر أن الملاحة العربية والإسلامية تأثرت ببعض القصص والروايات الفارسية، ويظهر ذلك واضحا وجليا من بعض المصطلحات التي لاتزال متداولة في البحرية العربية والإسلامية مثل بندر والذي يقصد به ثغر، ونوخذا ويراد به ربان السفينة، ودفتر ويعني الارشادات البحرية، وخن وتعرف بالاتجاه وغير ذلك كثيرا.

بعد الفتوحات الإسلامية الكثيرة اضطر خلفاء المسلمين أن يتجهوا إلى الملاحة لمواجهة الروم في البحر الأبيض المتوسط لحفاظهم على حدود بلادهم البحرية المترامية الأطراف.

ويذكر محمد فائز القصري في كتابه (النهضة الأوربية) أن الدولة الإسلامية الجديدة اضطرت لمجابهة الروم والفرس والرد على غزو السفن البيزنطية لسواحل مصر والشام بعد تحريرها ولمقاتلة العدو في البحر أيضا، لذا فكر معاوية بن أبي سفيان بإنشاء دار لصناعة السفن في عكا، فكانت مثلا لامعا لدور الصناعة التي

أنشئت فيها بعد على سواحل البحر الأبيض المتوسط ولاسيما في موانىء طرابلس وبيروت وصيدا وصور وعكا ودمياط والإسكندرية وتونس والأندلس (ميناء ألمرية) وقد مكنت هذه المصانع العرب من فتح جزر البحر الأبيض المتوسط وسواحل فرنسا وإيطاليا، فأصبح البحر الأبيض المتوسط عربيا بعد أن كان روميا.

لقد كان علماء العرب والمسلمين من هواة خوض البحار وارتياد الأقطار المختلفة الإسلامية وغير الإسلامية ، لذا نجدهم أول من وضع أصول الرسم على سطح الكرة الأرضية وهكذا ليس بغريب على القارىء العربي أن يتفوق علماء العرب والمسلمين في التنقل في الجزيرة العربية والأقطار العالمية المجاورة فهذه الصفة تكاد تكون من طبيعة العرب، لأنهم اشتهروا بالرحلات في جميع أنحاء الجزيرة العربية والعالم لتعاملهم في التجارة.

دور علماء العرب والمسلمين في تطوير علم الجغرافية:

لعب موضوع شكل الأرض دورا هاما في ميدان علم الجغرافية، فقد اختلف علماء العرب والمسلمين على شكلها في بادىء الأمر، فمنهم من يقول إنها مبسوطة مسطحة والبعض الآخر يصر على أنها كروية ، ولكن في النهاية استقر رأيهم بأنها مدورة كتدويرة الكرة، وصارت هذه الحقيقة مسلمة عند علماء الجغرافية في العصور الإسلامية.

اهتم علماء العرب والمسلمين اهتماما كبيرا في تحديد الجهات الأربع، ولهم أيضا باع طويل في تحديد المناطق التي تكثر فيها الجبال والأنهار، مما يعطي فكرة عن تعمقهم في دراسة الجغرافية الطبيعية، ومن دراستهم هذه عرفوا بكل إتقان كروية الأرض التي كانت مدار النقاش في ذلك الوقت.

تناول علماء العرب والمسلمين في دراستهم الأقاليم السبعة وتحدثوا عنها من حيث صلاحيتها للزراعة كما تكلموا عن البحار والأنهار بوجه عام وغير ذلك من الظواهر الجغرافية والجدير بالذكر أن كلمة إقليم عربية أصيلة تعني الجزء المقلوم من الأرض.

حدد علماء العرب والمسلمين الأقاليم السبعة تحديدا علميا دقيقاً، اعتمده آنذاك علماء الجغرافية والتجار الذين يتنقلون من بلد إلى آخر للبيع والشراء

ويتضح ذلك من أقوال علماءالعرب والمسلمين الأوائل.

يقول إخوان الصفاء وخلان الوفاء في كتابهم (رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء - الجزء الرابع) «الأقاليم هي سبعة أقسام، خطت في الربع المسكون من الأرض، كل إقليم منها كأنه بساط مفروش قد مد طوله من المشرق إلى المغرب وعرضه من الجنوب إلى الشمال، وهي مختلفة الطول والعرض فأطولها وأعرضها الإقليم الأول، وذلك أن طوله من المشرق إلى المغرب نحو من ثلاثة آلاف فرسخ (الفرسخ -٣أميال) عرضه من الجنوب إلى الشمال نحو مائة وخمسين فرسخا، واقصرها طولا وعرضا الإقليم السابع وذلك طوله من المشرق إلى المغرب نحواً من ألف وخمسمائة فرسخ، وعرضه من الجنوب نحواً من سبعين فرسخ، وأما سائر الأقاليم ففيما بينهما من الطول والعرض، وهذا مثال ذلك، والله أعلم بالصواب والمرجع والمآب».

كان لدى علماء العرب والمسلمين قناعة واضحة وجلية أن الأقاليم السبعة التي اعتمدوها مقسمة تقسيما ليس طبيعيا، بل بخطوط وهمية عملها الإنسان لمصالحه السياسية والاقتصادية، وأن هناك مناطق وعرة ومستحيل الوصول إليها في ذلك الوقت نتيجة جبالها الشامخة والبحار الهائجة كما تبين لهم أن الأرض أصغر كوكب، وهذا الأمر بحد ذاته تفوق علمي عظيم.

يقول إخوان الصفاء وخلان الوفاء في كتابهم آنف الذكر«واعلم أن الأرض بجميع ماعليها من الجبال والبحار بالنسبة إلى سعة الأفلاك ماهي إلا كالنقطة في الدائرة، وذلك أن في الفلك ألفا وتسعة وعشرين كوكبا، أصغر كوكب منها مثل الأرض ثماني عشرة مرة، وأكبرها مائة وسبعين مرة، فلشدة البعد وسعة الأفلاك تراها كأنها الدر المنثور على بساط أخضر، فإذا فكر الإنسان في هذه العظمة تبين له حكمة الصانع وجلالة عظمته، فينتبه من نوم الغفلة ورقدة الجهالة ويعلم أنه ماخلق هذه الأشياء إلا لأمر عظيم وذلك قوله تعالى: ﴿**ماخلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق**﴾.

فمعرفة علماء العرب والمسلمين في علم الجغرافية راجع لاتصالهم التجاري، فقد وصلت تجارتهم المناطق الجليدية في أقصى الشمال، وجابوا قارة أفريقية والشرق الأقصى حتى وصلوا الصين، لذا نجد أنهم صححوا الأخطاء الكثيرة

التي وقع فيها علماء اليونان والرومان عند تحديد مواقع المدن والمسالك باستخدام خطوط الطول والعرض.

يتضح للقارىء أن علماء العرب والمسلمين في مجال علم الجغرافية استفادوا من هذه الرحلات فوصلوا إلى بعض الحقائق الجغرافية التي تعتبر بحق انتصارات علمية مثل رسم الخرائط الجغرافية ومعرفة الحالة الاقتصادية للبلاد ومعلومات فلكية ثمينة لايمكن الحصول عليها إلا بهذا الطريق.

نعم معظم نوابغ علماء العرب والمسلمين في علم الجغرافية عملوا في ميدان التجارة ولكن كان لديهم الاستعداد اللازم للتأمل العلمي، فصاروا رواد الفكر في هذا الحقل، كما أن الرحلات في ذلكم الوقت كانت ضرورية لطلاب العلم الذين يريدون أن يشتغلوا في علم الجغرافية الوصفية، لأن الرحلة عبارة عن مرجع من المراجع التي يعتمدون عليها في مؤلفاتهم العلمية والأدبية كما أن العلماء الأوائل اشتهروا بتنقلاتهم للدراسة على أيدي مشاهير الأساتذة في العلوم التجريبية في بقاع العالم، لذا نرى أن علماء العرب والمسلمين قلوبهم كانت مفعمة بحب الرحلات.

لقد أدرك علماء العرب والمسلمين بعد قناعتهم التامة بكروية الأرض أن ليس هناك مانع أن توجد أرض ثانية على الجهة الأخرى من الأرض، لذا يتضح للقارىء أن علماء العرب والمسلمين أول من فكر في اكتشاف أمريكا بطريقة علمية.

لعلماء المسلمين إضافات جوهرية في علم الجغرافية تفوق كثيرا ماتوصل إليه كل من علماء اليونان والرومان، فقد ترك لنا علماء المسلمين وصفا لجميع البلدان من أسبانيا غربا إلى تركستان ومصب السند شرقا وأولوا عناية خاصة للأماكن المأهولة بالسكان والمناطق الزراعية، وحاولوا معرفة مدى انتشار المزروعة وأماكن وجود المعادن.

والمتواتر عند المؤرخين أن علماء كل من اليونان والرومان معلوماتهم كانت ناقصة عن البلدان الواقعة إلى الشرق من بحر قزوين، كما كانوا يجهلون تماما الساحل الشرقي لآسيا إلى الشمال من الهند الصينية. بينما تمكن علماء العرب والمسلمين من معرفة سواحل آسيا الشرقية إلى كوريا شمالا، ويرجح بعض الرواة

أن علماء المسلمين عرفوا اليابان فلله درُّهم.

تفوق علماء العرب والمسلمين في علم الجغرافية:

سجل علماء العرب والمسلمين ملاحظاتهم الجغرافية الثمينة من خلال رحلاتهم المتكررة برا وبحرا، لذا نرى أنهم اعتبروا علم الجغرافية علما قائما بذاته، ولعل الذي دفعهم إلى هذا الاعتقاد أسباب كثيرة منها:

١ ـ الفتوحات الإسلامية التي أوجبت عليهم معرفة المسالك، والمناطق الزراعية لتموين الجيوش الفاتحة.

٢ ـ فريضة الحج التي ألزمت كل مسلم ومسلمة القيام بزيارة مكة المكرمة، مما اضطرهم إلى دراسة الطرق المؤدية إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة عن كثب.

٣ ـ الحرص على الخبرة الشخصية التي قادت علماء العرب والمسلمين في علم الجغرافية لأن يتنقلوا في البادية ليسمعوا أخبار القبائل وأشعارهم لكي يستخلصوا بعض المعلومات الجغرافية والفلكية من أقوالهم.

٤ ـ حب العرب الواضح للرحلات لأنهم امتهنوا التجارة التي كانت المعول لتنشيط الاكتشافات الجغرافية العظيمة التي قام بها رواد الفكر في هذا المجال الحيوي.

٥ ـ كان ولاة الأمور يقربون إليهم رجال العلم، ويجزلون العطاء عندما يكتشف أحدهم طريقا سهلا يخدم الأمة لمعرفة أجزاء الدولة الإسلامية والدول المجاورة لهم.

٦ ـ حياتهم البداوية التي تفرض على العرب والمسلمين معرفة الاتجاهات والمناطق وموعد هطول المطر والآبار، فهم جغرافيون بحكم بيئتهم.

ومما زاد في تفوق علماء العرب والمسلمين في علم الجغرافيا كونهم ينتمون إلى بلدان عديدة، فمنهم من جاء من سمرقند والأندلس وفارس والشام ومصر والهند وغيرها، وكل هؤلاء دونوا معلوماتهم الجغرافية بلغة واحدة لغة القرآن الكريم، لذا نجد أن علوم الجغرافية عند العرب والمسلمين تمتاز عن غيرها في التجارب والمشاهدات الشخصية فمثلا العالم من الشام يستطيع أن يكتب عن بلاد الشام بطريقة علمية تفوق غيره من بلاد الأندلس وهكذا.

اجتمع علماء العرب والمسلمين فصهروا معلوماتهم المختلفة المصادر في بوتقة واحدة حتى صاروا قادة الفكر في هذا الميدان، فهم الذين وصفوا الأقاليم وصفا علميا منظما يخضع للمشاهدة والدراسة العلمية فبينوا حدود الأرض وتقاسيم الممالك، وضبطوا المسافات بين الأقطار، ووصفوا للبلدان ملامحها المتعددة من جبال وبحار وأنهار ومعادن وآبار وغيرها.

وصل علماء العرب والمسلمين في العلوم الجغرافية إلى القمة في القرنين الثالث والرابع الهجريين، ولذا يمكن تقسيم مؤلفاتهم الجغرافية إلى أربعة أقسام:

الأولى: وهي التي تناولت الدولة العباسية من الناحية الطبيعية والبشرية والاقتصادية والفلكية.

الثانية: امتدت للعالم الإسلامي بأسره، ولذا فقد درسوا الأندلس وشمال إفريقية بالتفصيل.

الثالثة: تطرقت لمعرفة الكرة الأرضية وسكانها من الناحية الجغرافية الوصفية.

الرابعة: اهتمت بالملاحة لأن علماء العرب والمسلمين صار لديهم معرفة واضحة جيدة بالرياح الموسمية حيث كان لهم شأن عظيم في التجارة شرقا وغربا آنذاك.

لقد اشتهر علماء العرب والمسلمين بنشاطهم الجم في حقل علم الجغرافية فبعض علماء الغرب أعجبوا بنتاجهم الجغرافي، فكتبوا عن ذلك في مؤلفاتهم الجغرافية والتاريخية، ونوهوا عنهم في أحاديثهم، وهذا أقل مايجب عمله نحو عمالقة علماء الجغرافية في الإسلام.

ومما يؤسف له أنه في القرن السادس الهجري انتشرت الفوضى واهتزت السلطة في الدولة الإسلامية، لذا وقف تقريبا عصر الاكتشافات الجغرافية، فاقتصر علماء العرب والمسلمين في علم الجغرافية على الاقتباس من مصنفات السابقين لهم. ومن هنا بدأ عصر المعاجم والموسوعات العلمية التي جمع فيها أعمال علماء العرب والمسلمين الأوائل في كل من العلوم البحتة والتطبيقية.

نعم إن الموسوعات والمعاجم مثل (معجم البلدان) لياقوت الحموي، و(نهاية الأدب) للنويري، و(مسالك الأبصار) للعمري، و(صبح الأعشى)للقلقشندي وغيرها أفادنا الباحثين في جميع فروع المعرفة وخاصة في علم الجغرافية بفروعها المختلفة.

إن النظريات والآراء الحديثة في علم الجغرافية ليست إلا امتداداً للنظريات والآراء والاتجاهات الفكرية عند علماء العرب والمسلمين الأوائل في هذا المجال، فمن أراد أن يواصل معلوماته الجغرافية، فلابد له من إيجاد رابطة التسلسل التاريخي وإلا صارت معلوماته ضبابية هشة.

لقد حثنا ديننا الحنيف على التأمل ودراسة السماوات والأرض، والكون، وتعاقب الليل والنهار، وخسوف الشمس، ونمو الأعشاب والأشجار وغيرها، وهذه كلها من المقومات الأساسية لعلم الجغرافية، إضافة إلى أن الدين الإسلامي دعانا إلى السفر واستعمال العقل لاكتشاف أسرار الكون، والله المستعان.

الفصل العاشر

بعض مشاهير علماء العرب المسلمين في علم الجغرافية

قام علماء العرب والمسلمين بمجهودات عظيمة في الكشف عن المعرفة الجغرافية، مما جعلهم في مقدمة رواد الحركة الفكرية في علم الجغرافية، حيث أضافوا إضافات جوهرية وأصيلة في هذا المجال العلمي تدحض كل المقولات المشبوهة التي تدعي أن العقل العربي والإسلامي، عقل علوم أدبية وشرعية، وأن العلوم التطبيقية والنظرية التي برز فيها علماء العرب والمسلمين ماهي إلا مقولات حرفية عن اليونان والهنود والفرس وغيرهم.

حمل علماء العرب والمسلمين مشعل الفكر الجغرافي في زمن كانت دياجير الظلام ضاربة بأطنابها على ربوع بلاد الغرب، وذلك بترجمة نتاج كل من علماء اليونان والهنود والفرس إلى اللغة العربية وتخليصه من الخرافات والأوهام التي ليس لها صلة بالعلم الجغرافي وهذا طبعا ناتج عن قناعة كاملة لدى علماء العرب والمسلمين أن المعرفة الجغرافية تنتقل من أمة إلى أمة، وفضل كل أمة إنما هو ماتزيده من معلومات وحقائق ونظريات في هذا الحقل.

لقد اعتمد علماء العرب والمسلمين في دراساتهم وبحوثهم الجغرافية على الملاحظة والقيام بالتجارب والقياسات الدقيقة والرحلات الميدانية والمراجع الموثوق بها فشككوا في الكثير من نظريات اليونان والهنود والفرس الخاطئة وعدلوها. وبذلك افتتحوا الطريقة العلمية الحديثة في التفكير والبحث لمعرفة الحقائق الجغرافية.

الخــوارزمــي:

هو أبو عبدالله محمد بن موسى الخــوارزمي، عاش فيما بين عامي

(١٦٤-٢٣٥هجرية) في بغداد، تتلمذ على كبار المفكرين هناك، لمع في زمن الخليفة العباسي المأمون في كل من العلوم الرياضية والفلكية والجغرافية، وكان يلقب بالأستاذ لعلمه وحكمته.

كان أبو عبدالله الخوارزمي متواضعا بليغ اللسان ذا روح علمية صحيحة ذاع صيته لإخلاصه وتبيان الحقيقة وإعلان شأن الحق، سما العلم بنفسه وصقل مواهبه، يحب طلاب العلم ويحل مشكلاتهم العلمية والاجتماعية بنفس رحبة.

من المؤسف أن هناك من يخلط بين صاحب الترجمة وأبي عبدالله بن أحمد الخوارزمي صاحب كتاب (مفتاح العلوم) المتوفي سنة ٣٨٧هجرية، والذي كان له باع طويل في كل من علم الطب والمنهج العلمي.

اهتم المأمون برعاية أبي عبدالله الخوارزمي لمعرفته الثاقبة واتساع آفاق معرفته، فعينه رئيسا لبيت الحكمة ووضع تحت يده المال والعلماء، فأبدع في تنظيم بيت الحكمة بمساعدة زملائه المخلصين، لذا صار بيت الحكمة مركزا علميا يأتي إليه الباحثون من كل فج.

لقد جمع أبو عبدالله الخوارزمي كتب اليونان العلمية في بيت الحكمة وعين كبار المترجمين لترجمتها إلى اللغة العربية وأغدق عليهم المال، فلم يمض مدة طويلة حتى تمكن علماء العرب والمسلمين النابهين من ترجمة وتحليل معظم نتاج علماء اليونان العلمي.

طور الخوارزمي في بيت الحكمة الفكر الرياضي بإيجاد نظام علمي لحل معادلات الدرجة الأولى والثانية ذات المجهول الواحد بطريقة جبرية وهندسية، لذا يعتبر كتاب الجبر والمقابلة للخوارزمي هو أول محاولة منظمة لتطوير علم الجبر على أسس علمية منطقية.

لاريب أن أبا عبدالله الخوارزمي هو مؤسس علم الجبر، وهو مكتشف نظرية الخطأين التي تعتبر اللبنة الأولى في علم التحليل العددي الرياضي، وهو أيضا واضع قواعد البحث العلمي التجريبي الحديث باستخدام النماذج الرياضية، لذا نرى أن نبوغه في مجال العلوم الرياضية طغت على مكانته العلمية في كل من علم الجغرافية وعلم الفلك، على ذلك وجدتني ملزما أن أعرض نبذة مختصرة عن نتاجه في ميدان علم الجغرافية.

لم يهمل محمد بن موسى الخوارزمي علم التاريخ فقد أعطاه جل اهتمامه لأنه من العلوم التي تحدد مسار الحضارات المختلفة، ويذكر إسماعيل باشا البغدادي في كتابه (هدية العارفين : أسماء المؤلفين وآثار المصنفين) أن الخوارزمي كتب في علم التاريخ كتابا مهما سماه (كتاب التاريخ).

لأبي عبدالله الخوارزمي صولة وجولة في علم الجغرافية، فقد اختصر كتاب (المجسطي) لبطليموس وسماه (السند هند) أي (الدهر الداهر) لأنه يحتوي على معلومات فريدة من نوعها ليس فقط في علم الجغرافية ولكن أيضا في علم الفلك. كما ألف الخوارزمي كتابه الشهير (رسم الربع المعمور) والمعروف باسم (صورة الأرض) الذي تحدث فيه بإسهاب عن الجبال والمدن والطرق في العالم.

وكتاب (صورة الأرض) للخوارزمي ظل من أهم المراجع التي استمد منها علماء العرب والمسلمين معلوماتهم في حقل علم الجغرافية، حيث رصد الخوارزمي في هذا الكتاب منهجه العلمي في ميدان علم الجغرافية، لذا بقى هذا الكتاب قنديلا لمعاصريه وللتابعين في هذا الموضوع.

ولا شك أن أبا عبدالله الخوارزمي نال شهرة عظيمة من مؤلفه (صورة الأرض) والذى سطر فيه معلومات ثمينة عن القارة الأفريقية التي كانت مجهولة فى ذلك الوقت لذا صار كتابه هذا من أهم المصادر التي اعتمد عليها الباحثون في علمي الجغرافية والتاريخ.

ويقول شاكر خصباك في كتابه (في الجغرافية العربية) حظى الخوارزمي بتقدير فائق من لدن المستشرقين الأروبيين، واعتبره البعض واضع أسس علم الجغرافية العربية.

وخلاصة القول أن الخوارزمي كان من أهل خوارزم، ولكنه ترعرع وتعلم وعلم في دار السلام (بغداد) فهو من علماء العرب والمسلمين الذين نفخر بهم لأعمالهم الجليلة في العلوم التجريبية.

الكثير يعرف مكانة أبي عبدالله الخوارزمي في علوم الرياضة، ولكن لانجد الكثيرين يعرفون له فضلا في ميدان علم الجغرافية، فهو من الرعيل الأول الذين أرسوا الأسس لعلم الجغرافية، فكتابه (صورة الأرض) ترك آثارا خالدة

في هذا المجال، وقد نشره المستشرق هـ. فون مجييك (H.V.Meik) سنة ١٣٤٥هجرية..

نعم لايزال الخوارزمي محل تقدير واحترام العلماء والمؤرخين في العلوم الرياضية، ولكنه كان أيضا علامة زمانه في علم الجغرافية، فقد بلغ الغاية من الشهرة والذكر ليس فقط في العلوم الرياضية ولكن أيضا في علمي الجغرافية والفلك.

لقد تبوأ الأستاذ الخوارزمي مركزا مرموقا في بيت الحكمة، ولكن لم يمنعه هذا المنصب من مواصلة جهوده العلمية، فكان يعمل ليلا ونهارا في البحث والتنقيب والاستقصاء، فهو بحق من جبابرة المفكرين في الحضارة العربية والإسلامية.

إن عدم معرفة شباب الأمة العربية والإسلامية بنتاج عالمنا الجليل محمد الخوارزمي يعتبر إجحافا وعيبا فاضحا، لأنهم لو عرفوه لكان حافزا لأن يقتدوا بمنهجه العلمي وقريحته المثلى، وبهذا سيرفعون مستوى المدنية الحديثة.

أبو الوليد الأزرقي المكي:

هو محمد بن عبدالله بن أحمد بن محمد بن الوليد بن عقبة بن الأزرق يكنى بأبي الوليد الأزرقي المكي لانعرف متى ولد، ولكن الثابت أنه ولد بمكة المكرمة وتوفي فيها سنة ٢٥٠هـ تقريبا.

اختلف المؤرخون في تاريخ وفاة أبي الوليد الأزرقي المكي فحاجي خليفة يذكر في كتابه (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون) أنه توفي سنة ٢٢٣ هجرية ويتفق معه إسماعيل باشا البغدادي في كتابه (هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين) أما أغناطيوس كراتشكوفسكي فينوه في كتابه (تاريخ الأدب الجغرافي العربي) أن الأزرقي المكي توفي سنة ٢٤٤هجرية، ويؤكد ذلك أيضا كل من عمر رضا كحالة في قاموسه (معجم المؤلفين الجزء العاشر) وأيضا دائرة المعارف الإسلامية.

وينقل لنا خير الدين الزركلي في قاموسه (الأعلام الجزء السابع) أن كلاً من رشدي الصالح ملحس في مقدمة الطبعة الملكية من كتاب (أخبار مكة) وأحمد تيمور باشا في الخزانة التيمورية نقلا عن العقد الثمين للفاسي أن أبا الوليد

الأزرقي المكي كان حيا في خلافة المنتصر العباسي التي كانت فيمابين ٢٤٧-٢٤٨هجرية. لذا أرخ صاحب الأعلام لوفاة الأزرقي نحو ٢٥٠هجرية. والكاتب لهذه الترجمة يميل إلى هذا التاريخ الذي أكده خير الدين الزركلي رحمه الله.

عرف باسم الأزرقي نسبة إلى جده الأزرق أبي عقبة من آل غسان وينحدر أبو الوليد الأزرقي من أسرة عريقة في مكة المكرمة، وقد تأثر صاحب الترجمة أبي الوليد الأزرقي بمكانة أسرته لذا كان مثالا للنزاهة والأمانة والصدق بالقول والعمل.

كان أبو الوليد الأزرقي المكي أول من حاول أن يكتب عن تاريخ مكة المكرمة لأن المسلمين في ذلك الوقت كانوا في أمس الحاجة إلى معرفة تاريخ المدينة المقدسة (أطهر بقعة في العالم كله) لكي يستخدموه كدليل جغرافي للتعرف على معالم المدينة نفسها والمدن المجاورة لها والطرق المؤدية إليها.

ويذكر إسماعيل باشا البغدادي في كتابه المذكور أعلاه أن محمد بن عبدالله الأزرقي المكي صنف كتابا رائعا لتاريخ مكة شرفها الله تعالى، اشتمل على أخبارها وجبالها وأوديتها المتعددة وكتاب أخبار مكة ضخم لشموليته على وصف مفصل للشعائر الدينية المتعلقة بالحج والعمرة.

وأضاف أغناطيوس كراتشكوفسكي في كتابه آنف الذكر أن أبا الوليد الأزرقي المكي قدم عرضا جغرافيا وتاريخيا لمكة المكرمة، ثم وصف الكعبة الطاهرة وتاريخها المتأخر كما وصف الأبنية المحيطة بالمسجد الحرام ثم يعقب هذا تعداد الدروب والأحياء بمكة مع ذكر عدد كبير من الأسماء. مما لاشك فيه أن كتاب (أخبار مكة) لأبي الوليد الأزرقي المكي له قيمة علمية عظيمة بالنسبة لتاريخ نشأة مدينة مكة المقدسة ونموها عبر العصور. كما لايخفى على القارىء أن هناك أعداداً هائلة من الكتاب الذين كتبوا عن هذه المدينة العظيمة ونهجوا منهج أبي الوليد الأزرقي المكي، فإليه يعود الفضل في ظهور هذا النمط من الجغرافية.

وينوه أغناطيوس كراتشكوفسكي في كتابه المتقدم الذكر أيضا أن أبا الوليد الأزرقي المكي وضع القواعد الأساسية للمؤلفين الذين يرغبون أن يؤلفوا عن

المدن فيرى أن يضم مقدمة جغرافية تعطي وصفا علميا طوبرغرافيا للمدينة بينما تحتوي بقية مادة الكتاب على تراجم حياة المشاهير من أهل المدينة.

انتشر نمط تاريخ المدن الذي بدأه أبو الوليد الأزرقي المكي انتشار واسعا فكتب الخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣هجرية (تاريخ بغداد) في أربعة عشر مجلدا وابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ هجرية (تاريخ دمشق) في ثمانية عشرة مجلدا وكذلك النرشخي المتوفى سنة ٣٤٨هجرية (تاريخ بخارى) الذي يحتفظ بأخبار بلاد ماوراء النهر قبل الإسلام وفي فترة الفتوحات.

وخلاصة القول يتضح للقارىء أنه في هذه الأيام لايوجد مدينة كبرى في العالم إلا ولها كتاب يحتوي على تاريخها وجغرافيتها وحالتها الاجتماعية والتربوية وتعداد سكانها ومحاصيلها الزراعية والصناعية، وهذا شيء رائع والفضل يعود لصاحب الفكرة الأولى ألا وهو أبوالوليد الأزرقي المكي.

نستطيع القول الآن أن أبا الوليد الأزرقي المكي مؤرخ جغرافي مرموق، حيث إنه هو الذي بدأ هذا النوع من الجغرافية التاريخية فهو بلا ريب كاتب خصب فياض ألف كتابه (أخبار مكة) بأسلوب أدبي سهل متناسق فلله دره.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: كم منا يعرف أن أبا الوليد الأزرقي المكي هو أول من بدأ تواريخ المدن؟ المتعارف عليه أن علماء الغرب هم الذين بدأوا هذا النمط من الكتابة لذا رأيت أنه من الواجب على أن أكتب سيرة موجزة لأبي الوليد الأزرقي المكي لسببين.

- أن هذا الصنف من النتاج العلمي يحتوي على معلومات جغرافية وتاريخية.
- أن ابن مكة المكرمة هو الذي أرسى قواعد منهج المصنفات في تواريخ المدن والمعروف لدى الباحثين الكبار في العصر الحديث أن الشرط الأساسي لأن يكون البحث العلمي أصيلا أن يسهم البحث في تقدم المعرفة وأن يكون الباحث هو أول من بدأ به وهذا الشرط ينطبق بحذافيره على عالمنا أبي الوليد الأزرقي المكي والحق أن أبا الوليد الأزرقي المكي من أصحاب الكفاءات النادرة ومن العلماء الذين تفخر بهم الأمة العربية والإسلامية.

الكنـــــدي:

هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي عاش فيما بين (١٨٥-٢٥٢هجرية)

اختلف المؤرخون للعلوم حول مكان ولادته، ولكن المتواتر أنه ولد في الكوفة ونشأ وترعرع في البصرة وتلقى تعليمه على يد جهابذة الفكر في بغداد.

نما الكندي في بيت علم وجاه، فجده الأشعث بن قيس من أصحاب الرسول ﷺ ووالده إسحاق كان حاكما على الكوفة في أيام المهدي والرشيد (١٥٨-١٩٣هجرية).

أجمع النسابون على أن الكندي من آل كندة، الأسرة القحطانية العريقة التي حكمت اليمن ردحا من الزمن. لهذا نستطيع أن نقول إن الكندي عاش في جو يساعد على تطوير مواهبه.

احتل أبو يوسف الكندي منزلة عالية عند كل من المأمون والمعتصم لغزارة علمه وحكمته وعقليته المتوقدة، لذا كان من جلساء الخليفة العباسي المأمون الدائمين.

يذكر ظهير الدين البيهقي في كتابه (تاريخ حكماء الإسلام) أن أبا يوسف الكندي كان أستاذا لابن المعتصم أحمد وله رسائل إلى أحمد بن المعتصم منها:

١ - اعتزل الشر فإن الشر للشرير خلق.

٢ - من لم ينبسط بحديثك فارفع عنه مؤونة الاستماع منك.

٣ - أعط الهواء وطع من شئت، ولاتغتر بمال وإن كثر، ولاتطلب حاجة إلى كذوب، فإنه يبعدها وهي قريبة. ولا(إلى) جاهل فإنه يجعل حاجتك وقاية لحاجته.

٤ - لاتنتج مما تكره حتى تمتنع عن كثير مما تحب وتريد.

لقد كان للخليفة العباسي المأمون (١٩٨-٢١٨هجرية) دورا عظيما في توجيه الكندي لدراسة علم الفلسفة، حيث شجعه على ترجمة ودراسة مصنفات أرسطوطاليس في علم الفلسفة ولذا يعتبر الكندي من كبار المفكرين والفلاسفة العرب ويلقب بفيلسوف العرب، لأنه حلق في سماء علم الفلسفة.

إن شهرة الكندي في علم الفلسفة جعلت الكثير من المؤرخين للعلوم يجهلون دور الكندي في مجال علم الجغرافية، بل المأثور عنه أنه من نوابغ علم الفلسفة ليس فقط في الحضارة العربية والإسلامية ولكن أيضا بين علماء العالم.

اهتم أبو يوسف الكندي في علم الجغرافية اهتماما بالغاً لعلاقة هذا الفن بعلم

الفلك الذي تفنن فيه. لذا ألف كتابه المعروف (رسم المعمور من الأرض) الذي يحتوي على خرائط وصور من الأرض، ومعلومات جغرافية أخرى وبقي هذا الكتاب مدة طويلة من المصادر الهامة للباحثين في هذا الميدان الحيوى.

عكف الكندي على التأليف، فقد بلغت مؤلفاته ثلاثمائة تقريبا بين كتاب ورسالة ويذكر اسماعيل باشا البغدادي في كتابه (هدية العارفين: أسماء المؤلفين والمصنفين)، بعضها والذي يهمنا هنا نتاج الكندي الذي يتعلق في علم الجغرافيا فقط وهي:

(رسالة في أبعاد مسافات الأقاليم)، (ورسالة في المساكن)، (والرسالة الكبرى في الربع المسكون)، (ورسالة في معرفة أبعاد الجبال)، (ورسالة في استخراج بعد مركز القمر من الأرض) وغيرها.

بلور نفيس أحمد في كتابه (الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي) مكانة أبي يوسف الكندي في حقل علم الجغرافية فوضعه في قائمة كبار المفكرين الذين لهم إسهامات في هذا الميدان.

نال الكندي شهرة عظيمة بين معاصريه والتابعين له في رسالته عن البحار والمياه والجبال التي بقيت من أهم المراجع لطلاب علمي الجغرافية والجيولوجيا لما تحتويه هذه الرسالة من معلومات أصيلة وهامة لايستطيع الباحث في كل من علم الجغرافية وعلم الجيولوجيا أن يستغنى عنها.

أولى أبو يوسف الكندي موضوع المد والجزر عناية خاصة لعلاقته القوية في الملاحة، كما هو معروف أن الرحلات سواء كانت برا أو بحرا بقيت من أهم وسائل المعرفة الجغرافية حتى نهاية القرن الرابع عشر الهجري.

وخلاصة القول أن شهرة الكندي قد غطت في الفلسفة على دوره في علم الجغرافية مع العلم أن له آراء جيدة في هذا الميدان ولذا رأيت أنه من واجبي أن أكتب عن مكانته العلمية في علم الجغرافية.

استفاد الكندي من نتاج علماء اليونان والهنود والفرس في علم الجغرافية مما جعله يتوصل إلى بحوث وآراء أصيلة في هذا الموضوع الهام.

امتاز الكندي بأمانته العلمية، إذ كان ينسب كل المعلومات التي حصل عليها من العلماء الأوائل إلى أصحابها لذا كانت مؤلفاته المتنوعة من أهم المصادر التي

يعتمد عليها الباحثون ليس فقط في علم الجغرافية ولكن أيضا في العلوم الأخرى كالفلسفة والطب والصيدلة والهندسة والفلك.

لا ريب أن الكندي من علماء العرب والمسلمين الذين لهم فضل في تقدم علم الجغرافية لذا أتعشم من أبناء الأمة العربية والإسلامية أن يقتدوا به، لأنه فعلا يعطي صورة واضحة عن العقلية العلمية لدى علماء العرب والمسلمين الأوائل.

أبو المنذر الكلبي :

هو أبو المنذر هشام بن أبى النصر محمد بن السائب الكلبي، لانعرف الكثير عن نشأته، إلا أنه تربى في بيت علم، وتوفي في الكوفة سنة٢٠٤هجرية، كان من النابغين الذين اشتهروا في علمي الجغرافية والتاريخ تلقى تعليمه على يد جهابذة الفكر في الكوفة، فكان يشار إليه بالبنان لتفوقه وذاكرته المدهشة بالقوة.

يتحدث الخطيب البغدادي في موسوعته (تاريخ بغداد) (المجلد الرابع عشر) عن نبوغ أبي المنذر الكلبي فيقول: ذات مرة قال الكلبي حفظت مالم يحفظه أحد ونسيت ما لم ينسه أحد كان لي عم يعاتبني على حفظ القرآن فدخلت بيتا وحلفت أن لا أخرج منه حتى أحفظ القرآن فحفظته في ثلاثة أيام.

وحقا إن هذه القصة عجيبة، فلابد أن أبا المنذر الكلبي كان عبقريا فريدا. وإلا كيف حفظ القرآن عن ظهر قلب في مدة ثلاثة أيام فالشاب لايستطيع أن يقرأ القرآن في ثلاثة أيام، فلله در عالمنا العملاق.

ويعتبر المؤرخون للعلوم أن أبا المنذر الكلبي كان حسن المعرفة وجيد القريحة ليس فقط في الجغرافية ولكن أيضا في التاريخ. فهو أول من دون معلومات ذات قيمة تعد من أهم المصادر للباحثين في هذين الحقلين وخاصة في فترة ماقبل الإسلام.

كان يربط الكلبي علاقة قوية بالخليفة العباسي المأمون، لشهرته الفائقة النظير في علم الأنساب الذي أولاه جل اهتمامه فله في ذلك صولة وجولة مما دفع المأمون أن يأمره بتأليف كتابه المشهور (الفريد في الأنساب) والذي بقى من أهم المراجع في هذا الموضوع الحيوي، وله أيضا في علم الأنساب كتاب (جمهرة الأنساب)، وكتاب (الموجز في النسب)، وكتاب (الملوكي في الأنساب).

أما مكانته في علمي الجغرافية والتاريخ، فهو علامة عصره دون منازع وقد ورث رغبته في هذين المجالين عن والده محمد بن السائب. ولذا ذاع صيته بين المؤرخين والجغرافيين في العالم، والحق أنه مؤرخ وجغرافي بارز في علم الأنساب وأخبار العرب والمسلمين.

لقد قضى جل أوقاته في المطالعة والبحث في كتب الأقدمين في كل من علم الجغرافية وعلم الأنساب. ويتضح ذلك جليا في مصنفاته التي بلغت تقريبا مائة وخمسين كتابا أشهرها في ميدان علمي الجغرافية والتاريخ: كتاب (ألقاب قريش)، وكتاب (ملوك كندة)، وكتاب (أسواق العرب)، وكتاب (حكام العرب)، وكتاب (النسب الكبير)، وكتاب (الأقاليم)، وكتاب (البلدان الكبير)، وكتاب (البلدان الصغير)، وكتاب (قسمة الأرض)، وكتاب (الأنهار) وكتاب (عجائب البحر) وغيرها.

لقد سرد كل من إسماعيل باشا البغدادي في كتابه (هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين) وياقوت الحموى في موسوعته (معجم الأدباء) المجلد التاسع عشر معظم مؤلفات الكلبي التي تناقلها علماء العرب والمسلمين وتتلمذ عليها طلاب علمي التاريخ والجغرافية في الحضارة العربية والإسلامية.

يذكر نفيس أحمد في كتابه (الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي) أن أقدم مادونه علماء العرب والمسلمين مما له علاقة بمسائل الجغرافية هو ماكتبه هشام بن محمد الكلبي وهو يعد بحق مصدرا ممتازا في تاريخ ماقبل الإسلام. ولكن للأسف الشديد لم يصلنا من مؤلفاته سوى قلة قليلة جدا لاتسمن ولاتغني من جوع. ولقد تواتر أنه كتب عشرة كتب تحتوي على موضوعات جغرافية ولاريب فهو من الذين كتبوا بدقة عن جزيرة العرب.

أيد سليمان الندوي في كتابه (أرض القرآن) نفيس أحمد على أن الذي في متناول اليد اليوم من مؤلفات الكلبي فعلا شذرات قليلة، ولكنها تحمل معلومات جغرافية عظيمة، بل تعطي الباحث فكرة عن المكانة العلمية التي وصل إليها علماء العرب والمسلمين في هذا المجال الهام. ولعل الوقت يكشف لنا بعض نتاج الكلبي إن شاء الله.

وخلاصة القول: حظى الكلبي برعاية وعناية الخليفة العباسي المأمون، فكان

ذا مقام رفيع عنده، فانتشر اسمه بين الناس لعلاقته الوطيدة مع راعي العلم المأمون ولمكانته العلمية المرموقة في كل من علم الجغرافية وعلم الأنساب، فهو يعد بحق صاحب المنهج العلمي الرصين في علم الأنساب، بل هو الذي أشعل فتيله، وعلم الأنساب من الموضوعات الهامة جدا لدى علماء العرب والمسلمين.

المعروف أن أبا المنذر الكلبي كان صديقا ومستشارا للخليفة العباسي المأمون لتفوقه في علوم القدماء العرب ولحكمته وعلمه، والجدير بالذكر أن المأمون كان يحترم ويقدر العلماء وأصحاب المواهب.

اندهش المؤرخون من غزارة نتاج ابن المنذر الكلبي الحافل بالأفكار الأصيلة، حيث كان يدرس العلم للعلم، فقد بذل حياته للاستزادة، ولكشف الحقائق العلمية، فكان أبو المنذر الكلبي يرى في البحث والاستقصاء والمتابعة متعة ولذة.

يجب على الباحثين في كل من علم الجغرافية وعلم التاريخ أن يبدأوا بجدية في البحث والتنقيب عن مؤلفات أبي المنذر الكلبي التي سترسم لشباب الأمة العربية والإسلامية صورة واضحة للعقلية العربية والإسلامية الجبارة.

البلاذري:

هو أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البغدادي، المعروف باسم البلاذري. لانعرف الكثير عن نشأته إلا أنه نشأ وترعرع في بغداد وتعلم على يد كبار المفكرين هناك، وتوفي سنة ٢٧٩هجرية بدار السلام.

تربى في بيت علم فهو من أسرة ثرية مثقفة، كان جده جابر من كبار الشعراء والمؤرخين في عصره. لذا ورث أبوالحسن البلاذري قريحته الشعرية من جده فهو يعتبر بحق شاعرا كبيرا وأديبا ومؤرخاً وجغرافيا.

أثرى أبو الحسن البلاذري النهضة الحضارية التي كانت تعيشها الأمة العربية والإسلامية بمصنفاته، فكان من كبار المترجمين من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية، مما أعطاه الفرصة بأن يكون من كتاب الدرجة الأولى في كل من علم الجغرافية وعلم التاريخ فمؤلفاته العديدة تحتوي على معلومات أصيلة في علم الجغرافية. لهذا أجمع المؤرخون للعلوم على أن يضعوه في قائمة الجغرافيين في العالم.

ويذكر نفيس أحمد في كتابه (الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي) أن أبا

الحسن البلاذري ينال تقديرا كبيرا كمؤرخ لأنه محل ثقة وذو مواهب نقدية متميزة، ومع أنه لم يكن جغرافيا في المقام الأول إلا أنه قد ناقش موضوعات جغرافية في غاية الأهمية في معظم مؤلفاته وعلى رأسها كتاب (البلدان وفتوحها وأحكامها).

وكتاب البلدان وفتوحها وأحكامها لأحمد البلاذري يحمل بين طياته معلومات عن الفتوحات الإسلامية. ومعلومات متنوعة عن الحياة العمرانية والسياسية والاجتماعية والجغرافية في العالم العربي والإسلامي في ذلك الوقت فهو من الكتب النادرة التي تجمع بين فروع المعرفة المختلفة.

ولقد ورد في هامش معجم الأدباء (الجزء الخامس) لياقوت الحموي أن كتاب البلدان وفتوحها وأحكامها قد طبع طبعة جديدة في ليدن سنة ١٢٨٧هجرية بواسطة المستشرق الهولندي دي جويه وقامت بنشره أيضا في مصر شركة طبع الكتب العربية سنة ١٣١٩ هجرية وهو يعتبر من أحسن الكتب وأهمها وأصحها خاصة فيما يتعلق بالفتوحات الإسلامية.

أعطى أيضا جل اهتمامه لدراسة الأنساب، فهو من جلساء الخليفة العباسي المأمون ومن أقرب الناس للخليفة العباسي المتوكل، ومثل موضوع الأنساب من الموضوعات التي يتداولها الحكام الأوائل مما دفع بأبي الحسن البلاذري أن يكتب كتابا في هذا المجال سماه (كتاب الأخبار والأنساب). لقد اتصف هذا الكتاب بالإتقان وسهولة الأسلوب ووضوح الرؤية عند المؤلف، والبلاذري يعتبر بحق راوية نسابة من الصنف الأول.

ويذكر حاجي خليفة في كتابه (كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون) أن أبا الحسن البلاذري كتب كتابا مفيدا عن أنساب الأشراف، وهذا الكتاب يتكون من عشرين مجلد ولكنه توفي قبل أن يتمه. استفاد الباحثون في علم الأنساب من المادة التي انتهى من كتابتها قبل وفاته.

ولصاحب الترجمة البلاذري مؤلفات أخرى منها على سبيل المثال لا الحصر كتاب (البلدان الصغير)، وكتاب (البلدان الكبير)، وكتاب (الاستقصاء في الأنساب والأخبار)، وله ديوان شعر. فهو غزير النتاج ليس فقط في التاريخ ولكن أيضا في الجغرافية، فمؤلفاته تختص تقريبا في هذين المجالين.

وخلاصة القول حرص أبو الحسن البلاذري على قراءة ثقافات الأمم الأخرى من مصادرها الأصلية لذا انقطع للبحث والتنقيب والاستقصاء فخرجت مؤلفاته تشتمل على معلومات علمية دقيقة وفريدة من نوعها.

فمصنفات البلاذري تكشف عن قدرة علماء الأمة العربية والإسلامية على العطاء السخي والقدرة الهائلة التي منحها الله سبحانه وتعالى إياهم في بناء الحضارة الإنسانية.

والحق أن أبا الحسن البلاذري من جغرافيي العرب والمسلمين الذين اشتغلوا بالتاريخ والأدب لذا نرى إسهاماته في علم الجغرافية لاتخلو من اللمسات التاريخية والأسلوب الأدبي الرائع.

فنبوغ البلاذري في كل من الجغرافية والتاريخ والأدب تجعله ضمن الخالدين في تاريخ الحضارة العربية والإسلامية ومن المؤسف حقا أن نتاجه في علم الجغرافية لم يأخذ حقه من البحث والتنقيب ولذلك وجدت إحقاقا للحق أن أكتب هذه السيرة المختصرة جدا عنه، لعلها تكون حافزا لبعض الباحثين في ميدان علم الجغرافية أن يزيلوا ما أصاب أعماله العلمية من إهمال.

المروزي :

هو جعفر بن أحمد المروزي لانعرف شيئا عن نشأته الأولى، ولكن المأثور أن مكتبته نقلت إلى بغداد بعد وفاته وبيعت في طاق الحراني سنة٢٧٤هجرية، والجدير بالذكر أن طاق الحراني محلة ببغداد، تقع بالجانب الغربي.

يمكننا أن نستخلص أن أبا العباس المروزي توفي سنة ٣٧٤هجرية تقريبا كما أنه قضى مدة طويلة في بغداد قبل أن ينتقل إلى أهواز المدينة التي توفي فيها.

نال المروزي شهرة عظيمة بالخطابة، حيث كان بليغا وفصيحا وعذب اللسان وعنده ملكة قوية على التعبير. والحق أنه يملك مواهب متعددة صنع كتاب (البلاغة والخطابة) الذي بقي ردحا من الزمن في متناول الدارسين في هذين الحقلين.

لم يهمل عالمنا القدير المروزي الجانب الأدبي. فقد احتل مكانة مرموقة متميزة في هذا الجانب. فله استنباطات جيدة تدل على تذوقه لهذا الفن العريق عند العرب وقد دون خبرته في هذا الميدان في مؤلفَيْه كتاب (الآداب الكبير)، وكتاب

(الآداب الصغير).

عرف بين معاصريه بأبي العباس المروزي العالم الجليل الذي نذر حياته للبحث والتنقيب والاستقصاء فقد كتب في معظم فروع المعرفة بطريقة سلسة وجذابة ومريحة للقارىء.

أعطى أبو العباس المروزي عناية خاصة لعلم الجغرافية فكتب كتابا نادرا سماه (كتاب المسالك والممالك) استمد منه علماء العرب والمسلمين معلوماتهم الجغرافية، وبقى مرجعا هاما للباحثين في هذا المجال الحيوي.

اهتم المروزي بعلم الجغرافية اهتماما بالغا، لأنه يعتقد أن هذا الفرع من فروع المعرفة ضروري لمعظم أفراد المجتمع، ولأنه جزء من حياتهم.

خصص المروزي حصة كبيرة من وقته للكتابة عن المسالك والممالك حيث إن المعلومات آنذاك كانت تعتمد اعتمادا كبيرا على الخبرة الشخصية المستخلصة من الزيارات لبعض البلدان، لذا استطاع المروزي بكل جدارة أن يجمع معلوماته الجغرافية عن المعابر البرية والبحرية عن طريق علاقته المتميزة مع الحكام والتجار.

يذكر محمد بن إسحاق النديم في كتابه (الفهرست) أن أبا العباس المروزي كان أحد المؤلفين الأشداء للكتب في سائر العلوم وكتبه المتنوعة كثيرة جدا ومنتشرة في جميع أنحاء العالم المتحضر في ذلك الوقت وهو أول من ألف في المسالك والممالك كتابا متكاملا يستحق التقدير.

وأكد نفيس أحمد في كتابه (الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي) أن جعفر بن أحمد المروزي (المتوفى سنة٨٧٧ميلادية) كتب كتابا هاما حول المسالك والممالك.

وخلاصة القول يتصف أبو العباس المروزي بصفات العالم الواثق من نفسه، فاشتهر بالمرح والحكمة واتساع المعرفة. فشق طريقه ليس فقط في علم الجغرافية، ولكن أيضا في الخطابة والبيان والبلاغة. كان ممتع المجالسة والصحبة ومتواضعا.

ومن الغريب جدا أن أبا العباس المروزي لم يذكر اسمه في كثير من المراجع التي بين أيدينا، مع العلم أنه شخصية فذة وغزير النتاج.

نعم إن شخصية عالمنا الجليل المروزي تحاط بغيوم الغموض وعدم الاعتناء مع العلم أنه كتب في معظم فروع المعرفة كتابة جيدة، وأول من حصر المعلومات

الجغرافية عن المسالك من علماء العرب والمسلمين.

أعترف أنه من الصعب أن يكتب باحث عن حياة عالم متميز كالمروزي الذي لم ينل حقه من البحث والاستقصاء فقد ذكره كل من ابن النديم ونفيس أحمد في بضعة أسطر لاتسمن ولا تغني من جوع، لذا رأيت أنه من الواجب علي أن أسطر هذه الترجمة المختصرة عنه، لعل أبناء جلدته شباب الأمة العربية والإسلامية في المستقبل القريب يقدمون للقارىء دراسة متكاملة عن مكانة أبي العباس المروزي العلمية.

ابن خرداذبة :

هو أبو القاسم عبيدالله بن أحمد بن خرداذبة الخراساني، عاش فيما بين ٢٠٥-٢٨٠ عرف بالخراساني لأنه من خراسان، ولكنه تعلم وترعرع في بغداد، فهو من كبار علماء الجغرافية في الحضارة العربية والإسلامية، وله نتاج جيد في معظم فروع العلوم الاجتماعية.

كان والد ابن خرداذبة حاكما على طبرستان وذلك في أوائل القرن الثالث الهجري، كما أنه من المحبين للعلم وأهله، لذا من الواضح جدا أن أبا القاسم ابن خرداذبة نما في بيت علم، وقد أثبتت الدراسة الحديثة التي قام بها علماء الاجتماع أن البيئة لها تأثيرها الكبير على النشأة.

نال ابن خرداذبة احترام وتقدير وحظوة الخليفة العباسي المعتمد، فولاه خدمة البريد بفارس. وهذه الوظيفة لاتسند إلا للشخص الموثوق به عند الدولة، كما شهد ثورة الزنج، فكان له دور مرموق في إخماد الفتن آنذاك.

نعم إن اهتمام الخليفة العباسي المعتمد بابن خرداذبة نابع من مكانته العلمية وثقافته الواسعة وحكمته اللامعة، فلاعجب فهو من أسرة عريقة ومثقفة وكان من أقرب الناس إلى الخليفة المعتمد، بل كان من ندمائه الخاصين.

لقد استفاد ابن خرداذبة من صلته القوية بولاة الأمر آنذاك فحصل على الوثائق الرسمية التي استخدمها في مؤلفاته دون عناء يذكر، لذا صارت مؤلفاته من أهم المؤلفات التي خلفها علماء العرب والمسلمين في علم الجغرافية لاحتوائها على المعلومات الدقيقة الموثقة.

درس عبيدالله بن خرداذبة الموسيقى والأدب على يد إسحق الموصلي، فنبغ

فيهما فصار من كبار أدباء الدولة العباسية، فعرف بمنهجه وأسلوبه القوي المعبر ولكن مكانته العلمية في حقل الجغرافية طغت على مآثره في الموضوعات الأخرى.

اهتم ابن خرداذبة بدراسة علم الأنواء اهتماما بالغا، لأن العرب والمسلمين يعتنون بهذا الحقل، فألف كتابا في هذا المجال سماه (كتاب الأنواء) بين دفتيه معلومات أصيلة عن علم الأنواء الذي لعب دورا هاما في الحضارة العربية والإسلامية.

أولى ابن خرداذبة عناية خاصة لدراسة التاريخ. فقد كتب كتابا هاما في هذا الحقل عنوانه (جمهرة أنساب الفرس) وصار من أهم المصادر التي يعتمد الباحثون عليها في دراستهم للأنساب. لأن صاحب الترجمة أجاد بوضع منهج مرتب في هذا الميدان.

ذاع صيت عبيدالله بن خرداذبة بين معاصريه في كتابه (أدب السماع) الذي دون فيه خبرته الطويلة التي اكتسبها من مجالسته للخليفة المعتمد ولأعيان البلاد. كما ألف كتابا في الطبخ بقى متداولا بين الناس، فابن خرداذبة لم يترك بابا في المعرفة إلا وطرقه، مما يدل على ذكائه النادر وحكمته البراقة ومثابرته الفذة.

استخدم ابن خرداذبة معظم معلوماته الجغرافية من كتاب المجسطي لبطليموس التي ضمنها كتابه (المسالك والممالك) الذي صار من المراجع الهامة للباحثين في علم الجغرافية لما يحمل بين ثناياه من معلومات جغرافية نادرة حصل عليها من خبرته الطويلة في هذا المجال الحيوي.

والجدير ذكره أن أبا القاسم بن خرداذبة هو أول من استعمل مصطلح (المسالك والممالك) والذي استخدمه بعده معظم علماء العرب والمسلمين الذين عملوا في علم الجغرافية.

والحق فإن كتاب (المسالك والممالك) لابن خرداذبة عبارة عن موسوعة موثقة في علم الجغرافية فقد قدم ابن خرداذبة معلومات وافية وبالغة عن الدولة العباسية المترامية الأطراف، وخاصة فيما يتعلق بالمسافات بين البلاد لعلاقتها الوثيقة بالرحلات التجارية والبريد.

كانت الرؤية واضحة عند ابن خرداذبة حول كروية الأرض. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه في هذا المكان. هل علماء العرب والمسلمين المتخصصين في

علمي الجغرافية والفلك استقوا فكرة كروية الأرض عنه؟ المصادر العلمية توحي بهذا.

ومما يؤسف له أن كتاب (المسالك والممالك) لابن خرداذبة يوجد كمخطوط مع ترجمة النص باللغة الفرنسية بقلم دي خويه في مكتبة ليدن بهولندا تبني عليه العناكب بيوتها، منتظرا أحد شباب الأمة العربية والإسلامية أن ينبشه ويحققه ويخرجه في ثوب جديد للملأ.

وخلاصة القول أن ابن خرداذبة قد جمع بين علم الجغرافية والتاريخ والأدب فهو يجمع المعايير من كبار علماء الحضارة العربية والإسلامية، ولكنه من علماء العرب والمسلمين البارزين في علم الجغرافية، حيث توصل إلى نتائج وأفكار رائعة في ميدان علم الجغرافية لم يسبقه إليها أحد لذا حاز على رضاء وتبجيل ليس فقط معاصريه، ولكن جميع علماء الجغرافية في المعمورة لأن كتابه (المسالك والممالك) بقي المرجع الوحيد لطلاب العلم ردحا من الزمن.

لقد كان لأعمال ابن خرداذبة في علم الجغرافية الأثر العظيم في تقدم هذا الموضوع، حيث إن أسلوبه العلمي يخاطب المتخصصين وذلك ناتج عن بحثه وتنقيبه واستقصائه للحقائق العلمية الجغرافية والتاريخية التي ورثها من العلماء الأوائل.

ولايخفى على القارىء العزيز أن عبيدالله ابن خرداذبة من علماء العرب والمسلمين الأوائل في علمي الجغرافية والتاريخ لذا فقد بذل جهدا كبيرا في الكشف عن الحقائق العلمية الغامضة التي تعلمها عن علماء بابل والإغريق والرومان، لقد كان لنتاج ابن خرداذبة أكبر الأثر في تقديم وارتقاء الحضارة العربية والإسلامية بوجه عام.

أتعشم أن تكون هذه الترجمة المختصرة لابن خرداذبة حافزا قويا للمتخصصين في علم الجغرافية والتاريخ والأدب من أبناء الأمة العربية والإسلامية أن يبذلوا بعض الوقت لتقديم دراسة أوفى عن هذا العالم العملاق، لأن الباحثين في حقل علم الجغرافية لم يعطوا نتاجه العلمي حقه من التحقيق والبحث والاستقصاء.

اليعقوبي :

هو أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح العباسي ويكنى

بأبي العباس ويعرف باسم أحمد الأخباري، ولانعرف متى ولد وإن كان الثابت أنه ولد في بغداد. وقد اختلف المؤرخون في تاريخ وفاته، ولكن من الراجح أنه توفي سنة ٢٨٤هجرية في بغداد، وقد أكد ذلك كل من نفيس أحمد في كتابه (الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي)، وبروكلمان في كتابه (تاريخ الأدب العربي)، وعمر رضا كحالة في كتابه (معجم المؤلفين)، ونقولا زيادة في كتابه (الجغرافية والرحلات عند العرب) وغيرهم.

ترعرع ونما اليعقوبي في بيت علم، فجده كان من رجال العلم والأدب والسياسة. عينه الخليفة العباسي المنصور واليا لأرمينية ومصر، أما والده فقد تولى أعمال البريد، وهذا العمل من الأعمال الهامة جدا في الدولة، لذا لاغرابة أن ينبغ اليعقوبي في كثير من العلوم ولكنه حاز على شهرة مرموقة في علمي الجغرافية والتاريخ.

ينقل لنا ياقوت الحموي في كتابه (معجم الأدباء - الجزء الخامس) عن ابن عمر، محمد بن يوسف بن يعقوب المصري الكندي، المؤرخ في تاريخ له، أنه قال: «إن أحمد بن إسحاق بن واضح مولى لبني هاشم توفي سنة٢٨٤ هجرية، وله تصانيف كثيرة، منها: كتاب التاريخ كبير، وكتاب أسماء البلدان مجلد، وكتاب في أخبار الأمم السابقة صغير، وكتاب مشكلة الناس لزمانهم».

يعتبر اليعقوبي من أوائل العرب والمسلمين الذين اهتموا اهتماما بالغا بالجغرافية البشرية، حيث دون كل مشاهداته التي حصل عليها من زياراته الكثيرة لمختلف المجتمعات الإسلامية في مؤلفاته بطريقة علمية تدل على طول باعه ليس فقط في علم الجغرافية والتاريخ ولكن أيضا في علمي الاجتماع والأدب.

كان اليعقوبي من المغرمين بعلم الجغرافية منذ نعومة أظفاره، لذا برز في هذا العلم وذاع صيته بين طلابه، مما دفعه إلى الأسفار المتصلة لكي يرى على الطبيعة ماسطره في كتابه (كتاب البلدان) الذي بقى من أهم المصادر للمتخصصين في هذا المجال.

يقول اليعقوبي في كتابه (كتاب البلدان) «إني عنيت في عنفوان شبابي وعند احتيال سني وحدة ذهني بعلم أخبار البلدان والمسافة مابين كل بلد وبلد، لأني

سافرت حديث السن واتصلت أسفاري ودام تغربي، فكنت متى لقيت رجلا من تلك البلدان سألته عن وطنه وقصره، فإذا ذكر لي محل داره وموضع قراره سألته عن بلده وزرعه ماهو وساكنيه من هم عرب أم عجم حتى أسألهم عن لباسهم ودياناتهم ومقالتهم والغالبين عليهم».

يتميز (كتاب البلدان) لليعقوبي بالمعلومات الجيدة الموثقة عن بعض المدن الرئيسية في العالم الإسلامي، وكذلك يحتوي على بعض الأفكار والنظريات العلمية عن طبوغرافية تلك المدن ويظهر للقارىء من قراءة كتابه (كتاب البلدان) أنه ساح بالفعل في معظم البلدان التي كتب عنها.

ويذكر عبدالرحمن حميدة في كتابه (أعلام الجغرافيين العرب) أن أحمد اليعقوبي أنجز كتابه (كتاب البلدان) في مصر، وذلك في فترة خلافة المعتمد على الله العباسي المتوفى سنة ٢٧٧هجرية. ويمتاز هذا الكتاب عن غيره بالغزارة وبدقة التفاصيل التاريخية التي عرضها اليعقوبي عن المقاطعات والمدن التي تناولها بالوصف، كذلك عالج جغرافية المغرب العربي معالجة علمية نادرة معتمدا على الوثائق التاريخية والجغرافية الدامغة.

وهناك كتاب آخر لليعقوبي يعرف باسم (تاريخ اليعقوبي) نشرته دار صادر في بيروت على جزأين سنة ١٣٧٩هجرية، فالجزء الأول يشتمل على التاريخ من آدم وحواء حتى مولد إسماعيل بن إبراهيم، كما عرض اليعقوبي في هذا الجزء أديان وأسواق وشعراء العرب، أما الجزء الثاني فيبدأ بمولد الرسول ﷺ وينتهي بأيام أحمد المعتمد على الله الخليفة العباسي الذي عاصر اليعقوبي.

تميز أسلوب اليعقوبي بالسهولة والوضوح، فلم ينسج على منوال المؤرخين والجغرافيين السابقين له، بل بذل جهدا عظيما في تمحيص وتحقيق كل مايكتب، لذا ظهر كتابه (تاريخ اليعقوبي) في ثوب جديد يختلف تمام الاختلاف عن كتب التاريخ المتداولة بين معاصريه.

وخلاصة القول أن اليعقوبي عرف بأسماء كثيرة كالمصري، لأنه قضى وقتا طويلا في مصر، والأصبهاني نسبة المدينة أصبهان المشهورة في بلاد فارس، وكذلك بالكاتب لأنه كرس وقته للكتابة عن النواحي الاجتماعية والحضارة والإدارية والاقتصادية والتاريخية والجغرافية فهو واضع الجغرافية الإقليمية، كما أن

له دورا مرموقا في تطوير كل من الجغرافية الطبيعية، والبشرية.

لقد تميزت مؤلفات أحمد اليعقوبي باحتوائها على الثروة العلمية التي لاتقدر بثمن فكتابه (كتاب البلدان) يعتبر بحق الملتقى الذي تتقابل فيه الجغرافية القديمة بالجغرافية الحديثة.

كما أنه لم يهمل أبدا الجانب الفلكي والرياضي في كتابه المذكور، لذا فقد أسهم اليعقوبي بقسط ضخم في هذين الميدانين الحيويين.

نعم لم يعتمد اليعقوبي في جميع معلوماته الجغرافية على مجرد السماع والنقل بل نهج الطريق الصحيح للبحث وهو طريق المشاهدة، فساح في البلاد والبحار والأنهار، ودون ملاحظاته لذا صار كتابه (كتاب البلدان) من المصادر الضرورية للباحثين في الجغرافية الطبيعية والبشرية على السواء.

لقد قدم اليعقوبي تصورا رائعا وواضحا عن البلدان التي كتب عنها، لذا من يقرأ في كتاب البلدان لليعقوبي يحس بأنه كتاب مثالي ومتقدم، ويمتاز بالدقة وحسن الحبكة. فقد وصف على سبيل المثال بغداد وصفا دقيقاً يدل على طول باعه في كل من التاريخ والجغرافية وعلم الاجتماع.

أما كتابه الآخر (تاريخ اليعقوبي) فهو كتاب قيم وضخم حشد فيه معلومات عن أخبار العالم قبل الإسلام، ودراسة شاملة عن خصائص الحضارة العربية والإسلامية، وبعض الملاحظات على نتاج بعض المؤرخين السابقين له. وفيه أخضع التاريخ للفلسفة، لذا يعتبر اليعقوبي من كبار المفكرين في مجالي الجغرافية والتاريخ، حيث امتاز بقدرته على إدراك الجزئيات إدراكا بارعا، حتى صار مؤلفه (تاريخ اليعقوبي) عبارة عن إناء شامل للحياة العقلية والعقائدية والأخلاقية والأدب.

عاش اليعقوبي في فترة كان الخلفاء العباسيون يشجعون طلاب العلم، فاستفاد من هذا الاتجاه الحميد فوسع آفاق البحث العلمي في كل من علم الجغرافية وعلم التاريخ، فهو العالم الناقد المتميز البعيد كل البعد عن طرح الغرائب والعجائب والشعر في مؤلفاته، فصارت مصنفاته تشبه الكتب الحديثة، كما اشتهر بأسلوبه السهل الممتع الخالي من التصنع والحشو والخزعبلات.

وعلى الرغم من أن اليعقوبي عنده النزعة التجديدية، إلا أن المراجع العربية

في مجالي الجغرافية والتاريخ لم يتطرقوا له إلا بأسطر متكررة ومتناثرة هنا وهناك. ولهذا بذلت جهدا عظيما في كتابة هذه السيرة الموجزة راجيا من الله تعالى أن يسخر أحد شباب الأمة العربية والإسلامية بالكتابة عنه إكمالا لما كتبته ولما كتبه غيري عن أبي الجغرافية العربية.

الفتية المغرورون :

لقد غامرت أعداد كبيرة جدا من العرب والمسلمين في الكشف عن بلدان غير معروفة ليس فقط في بحر الظلمات (المحيط الأطلنطي) ولكن أيضا في أصقاع أخرى في العالم. لذا رأينا من المناسب أن نكتب عن هذه المغامرة التاريخية لأشخاص عاشوا في لشبونة في القرن الثالث الهجري والذين عرفوا باسم المغرورين أي المخاطرين، وفي بعض الأحيان يستخدم تعبير المغررين.

وقصة المغامرة تناقلها علماء التاريخ والجغرافية كما أوردها أبو عبدالله محمد الإدريسي (٤٩٣-٥٦٠هجرية) وجوهرها: ركب أبناء العم الثمانية ومعهم المتاع الذي يكفيهم مدة طويلة بحر الظلمات ليتعرفوا على مافيه وإلى أين ينتهي، فأبحروا شرقا مدة أحد عشر يوما فوصلوا إلى بحر غليظ الموج كدر الريح، كثير الصخور، قليل الضوء، فأيقنوا بالهلاك فردوا قلاعهم نحو الجنوب اثنى عشر يوما إلى أن وصلوا جزيرة الغنم (فرأوا أعدادا هائلة من الغنم فأقاموا فيهامدة قصيرة وأكلوا من لحوم الأغنام هناك، فوجدوها مرة لاتؤكل ثم استمروا في نفس الاتجاه اثنى عشر يوما أخرى فبلغوا جزيرة مأهولة بالسكان أهلها كانوا ذوي بشرة حمراء وشعرهم قليل ناعم وطوال القامة ولنسائهم جمال عجيب، فاعتقلوا في بيت ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع أدخل عليهم رجل يتكلم اللغة العربية فسألهم عن حالهم، ولكن سيد الجزيرة أمر بترحيلهم معصوبي الأعين إلى البر التي بلغوها بعد إبحار ثلاثة أيام بلياليها، وهناك كتفواإلى الخلف وتركوا بالساحل إلى أن طلع النهار، فأقبل عليهم قوم من البربر فحلوا وثاقهم وأخبروهم أنهم بجنوب مراكش على مسيرة شهرين من بلدهم لشبونة.

يعتقد بعض المؤرخين والجغرافيين أن الجزيرة الأولى التي مر بها الفتية المغرورون هي جزيرة ماديره (Medeira) أما الثانية فهي جزيرة الكناري (Canaries)، إن رحلة الفتية المغرورين دفعت المهتمين في الرحلات الجغرافية

للكشف عن أسرار المحيطات والبحار ومافيها.

ويذكر عبدالرحمن حميدة في كتابه (أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم) أن الأمير مصطفى الشهابي لايستبعد أبدا أن يكون الشاطىء الذي رسوا فيه للمرة الثانية إحدى جزر أمريكا الجنوبية في البحر الكاريبي، لأن مثل هذه المدة التي قطعوها تحملهم إلى هذه المنطقة، ولايستبعد بعد ذلك أن يكون هؤلاء العرب قد استوطنوا هذه الجزيرة واختلطوا بأهلها ثم توغلوا في قارة أمريكا الجنوبية.

والحقيقة أن البحوث الجغرافية الحديثة توحي بأن أمريكا كانت معروفة قبل رحلة الملاح الإيطالي كريستوفر كولومبوس، لذا يميل بعض الجغرافيين إلى أن الملاحين العرب والمسلمين كان لهم السبق في ذلك، والدليل أن لغة الهنود الحمر سكان أمريكا الأصليين تحتوي على كلمات عربية كثيرة وكذلك مساكنهم ومنشآتهم تشبه تماما منشآت العالم العربي والإسلامي آنذاك.

ولايخفى على القارىء أن هناك بعض التخمينات حول النقطة التي وصلها الفتية المغرورون بالفعل ولكن المتواتر والمتفق عليه بين الجغرافيين أن هذه الرحلة الميمونة دفعت الملاحين في العالم وعلى وجه الخصوص الملاحين الأوربيين لاكتشاف العالم الجديد.

وخلاصة القول أنه نتيجة لرحلة الفتية المغرورين استطاع العرب والمسلمون أن يغامروا في أماكن أخرى فاتسعت معارفهم الجغرافية، فاقتحموا المحيطات والبحار ليطلعوا على مافيها.

كما اهتم علماء العرب والمسلمين اهتماما بالغا في رسم الخرائط الملاحية وصناعة السفن واستعمال الأجهزة الفنية المتقدمة في ذلك الزمن مثل الأسطرلاب والبوصلة لتساعدهم على الإبحار، ويجب أن لاننسى أن رحلة الفتية المغرورين أجبرت كريستوفر كولومبوس أن يطبق نظرية البكري التي تقول (إن المتجه من شاطىء أوربا غربا يصل إلى آسيا لأن الأرض كروية) فلله در أبي عبيد البكري (٤٣٢-٤٨٧).

ولاريب أن المؤرخين الجغرافيين في العالم يعترفون بأن للعرب والمسلمين خبرة طويلة في الإبحار في المحيطات والبحار والأنهار لغرض التجارة، ولكن رحلة

الفتية المغرورين كان الهدف منها علميا، لأنهم أرادوا أن يكتشفوا عالما جديدا.

ولايخفى على المتتبع لتاريخ الرحالة من العرب والمسلمين أن يرى وثائق تاريخية وجغرافية تعطي أخبار أسفارهم وتنقلهم، فقد ذكروا المدن والجزر التي وصلوها والمسافات التي قطعوها والصعوبات والمخاطر التي تغلبوا عليها. لذا أتعشم أن أكون قد وصلت إلى هدفي وهو البدء في دراسة هذا الجانب المشرق من الجغرافية العربية والإسلامية.

ابن الفقيه الهمذاني:

هو أبو بكر أحمد بن إسحاق بن إبراهيم بن الفقيه الهمذاني ويكنى بأبي عبدالله من علماء القرن الثالث الهجري المرموقين لانعرف الكثير عن حياته ولكن المتواتر أنه توفى بعد سنة ٢٩٠هجرية وهو من أهالي همذان مدن فارس الشهيرة ولذا لقب بالهمذاني.

نما وترعرع أبو بكر بن الفقيه في بيت علم فمعظم أفراد عائلته اشتهروا بالحديث والأدب كما حاز ابن الفقيه مكانة علمية عالية بين علماء الحديث والأدب ولكنه تميز وتألق نجمه في علم الجغرافيا.

ويذكر شاكر خصباك في كتابه في الجغرافيا العربية (دراسة في التراث الجغرافي العربي) أن ابن الفقيه الملقب بالهمذاني والمولود في مدينة همذان والذي عاش في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) اشتهر في أيام المعتضد العباسي لكونه جغرافيا مرموقا وله كتاب معنون (كتاب البلدان) ضاع معظمه فلم يعثر إلا على نسخة مختصرة منه قام بإعدادها على بن جعفر الشيرازي عام٤١٣هجرية.

تميز (كتاب البلدان) لابن الفقيه بأن المؤلف تناول العلوم الجغرافية بأسلوب أدبي سلس كما احتوى على بعض المقطوعات الشعرية لذا اعتمد عليه كل من المسعودي والمقدسي وياقوت الحموى وغيرهم من علماء العرب والمسلمين المتخصصين في العلوم الجغرافية في مؤلفاتهم في هذا الميدان الحيوي.

لقد حشد ابن الفقيه في كتابه (كتاب البلدان) معلومات كثيرة عن الجغرافية والتاريخ قاصدا بذلك تثقيف الجماهير لذا كتب كتابه هذا من خمسة مجلدات

شملت أفكاراً ونظريات جغرافية وتاريخية عن البحار والأنهار وكذلك ضمنه معلومات مفيدة جدا عن رحلاته للصين والهند وبعض أطراف البلاد الإسلامية كالبصرة والكوفة ومكة المكرمة والمدينة المنورة وتهامة والبحرين واليمن ومصر والشام وبلاد الروم.

عكف ابن الفقيه الهمذاني على التأليف فصنف كتابين الأول عبارة عن مختارات من الشعر لشعراء معاصرين له، أما الثاني فهو الكتاب الخاص بعلم الجغرافية (كتاب البلدان) والظاهر أن الكتاب الأول مفقود أما كتاب البلدان فقد نشر أحمد زكي الوليدي التركي ملخصا له ويوجد في الجزء الخاص من المكتبة الجغرافية العربية التي جمعها دي خويه في ليدن بهولندا سنة ١٣٠٣هجرية.

يجمع المؤرخون في العلوم أن (كتاب البلدان) لابن الفقيه يحتوي على معلومات ضرورية ونادرة لكل من الجغرافية والأدب فهو من المصادر الهامة للباحثين في مجالي الجغرافية والأدب، ولكن سمعة ابن الفقيه في ميدان علم الجغرافية طغت على شهرته في الأدب، لأنه عرف بين مؤرخي العلوم أنه من علماء الجغرافية المتميزين.

تحدث ابن الفقيه عن خط الاستواء وذكر أنه الخط الوحيد الذي يقسم الأرض إلى قسمين متساويين وهو أكبر خط في كرة الأرض كما تطرق لكروية الأرض وأثبتها بطريقة علمية تدل على طول باعه في الجغرافية الرياضية.

قدم أيضا ابن الفقيه دراسة موثقة حول عجائب المخلوقات في كل من بلاد الصين والهند. مما جعل المتخصصين في علمي النبات والحيوان يعتبرون كتابه (كتاب البلدان) وثيقة جغرافية عظيمة وضرورية للباحثين في حقول المعرفة المختلفة.

وخلاصة القول أنه يتضح للقارىء أن أبا عبدالله بن الفقيه الهمذاني كان من كبار أدباء الحضارة العربية والإسلامية، وعالم بتقويم البلدان دون منازع فقد قدم خدمة جليلة لمكتبة علم الجغرافية في الدول الإسلامية.

كان أبو عبدالله بن الفقيه من المقربين للمعتضد العباسي لعلمه وفصاحة لسانه وعذوبة بيانه، وقد استفاد ابن الفقيه من علاقته بالمعتضد العباسي حيث تمكن من زيارة معظم البلاد الإسلامية للالتقاء بجهابذة الفكر في كل من

الجغرافية والأدب.

لقد نال ابن الفقيه سمعة جيدة بين معاصريه بذكائه الخارق للعادة وسرعة بديهته ولكن للأسف فإن نتاجه العلمي في كل من الجغرافية والأدب كان مجهولا لابناء جلدته.

نأمل أن تكون هذه الترجمة المختصرة جدا عن ابن الفقيه دافعا لأبناء جلدته أن ينبشوا في مكتبة ليدن بهولندا عن إسهامات هذا المفكر العظيم ليس فقط في علم الجغرافية ولكن أيضا في الأدب لكي يخرجوه للملأ.

ابن رسته :

هو أحمد بن عمر المشهور بابن رسته لانعرف بالضبط متى ولد ولا متى توفى ولكن المتواتر أنه من علماء القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجري. وهو من أهالي فارس ومكث ردحا من الزمن في مدينة أصفهان.

الثابت أن ابن رسته أدى مناسك الحج سنة ٢٩٠ هجرية وقضى مدة قصيرة في مكة المكرمة والمدينة المنورة ولكن أبا علي بن رستة استفاد من إقامته القصيرة هناك، وذلك لتتلمذه على كبار علماء العلوم الشرعية في الحرمين الشريفين، كما تمكن ابن رستة من وضع المنهج العلمي لدراسة الجغرافية الإقليمية حيث وصف الطريق من بغداد إلى مكة المكرمة ومن المدينة المنورة إلى مكة المكرمة والطريق من مصر إلى مكة المكرمة ومن دمشق إلى المدينة المنورة وغيرها.

اهتم أبو على بن رستة في علم الفلك لعلاقته القوية بعلم الجغرافية لذا قدم دراسة تتعلق بمركز الأرض وحجمها وعلاقتها بالفضاء الخارجي، كما شرح بتفصيل خطوط الزوال وحركة الأجرام السماوية في كتابه الأعلاق النفسية وهذا يوحي بأنه من العلماء المتمكنين في علم الفلك.

قضى أبو علي بن رستة معظم حياته في البحث والاستقصاء، لذا أنتج موسوعته المشهورة باسم (الأعلاق النفسية) التي تحتوي على معلومات قيمة ونادرة في علم الجغرافية والرياضيات والفلك، لقد اعتمد ابن رستة في تأليف موسوعته على مؤلفات علماء العرب والمسلمين الأوائل البارزين في العلوم التجريبية لذا أخرجها موسوعة متكاملة.

وطبع الجزء السابع من موسوعة الأعلاق النفسية لابن رستة في المكتبة الجغرافية بليدن بهولندا سنة١٣٠٩ هجرية وصار من أهم المصادر للباحثين في ميدان علم الجغرافية وكذلك توجد نسخة أخرى في مكتبة المتحف البريطاني بلندن.

كان ابن رستة من المعجبين بمدينة أصفهان التي ينتمي إليها فيقول عنها في كتابة (الأعلاق النفسية): وتربتها أصح الترب، تبقى بها الثمار سنة مثل العنب على ورقة قشرة... والتفاح والسفرجل والرمان حتى يجمع فيها العتيق والجديد منها، وتبقى بعد ذلك مدة طويلة، ثم بها معادن الفضة إلا أنها في هذا الوقت مهجورة لا يعمل فيها وآثار العمل الذي كان يعمل فيها قائمة من آبار محفورة كان يستخرج منها الجوهر.

وتحدث ابن رستة في موسوعته الأعلاق النفسية عن عجائب المخلوقات من حيوان ونبات وآثار ومبان وبحار وأنهار كما قدم دراسة وافية عن المناخ وأثره على المخلوقات وكذلك عن التضاريس المختلفة لجميع البلدان التي تعرض لها في بحوثه كما امتدت بحوثه إلى تاريخ تأسيس مكة المكرمة والمدينة المنورة وبغداد وغيرها من المدن العظيمة المشهورة آنذاك.

لقد بذل ابن رستة جهدا عظيما في تحديده حجم الأرض والمساحات المسكونة منها كما حدد أماكن الأنهار والبحار والبحيرات والجبال والمدن على الخرائط التي رسمها والتي بقيت من أهم المصادر الجغرافية التي يعتمد عليها الباحثون في الأزل والحديث.

وخلاصة القول أن ابن رستة استفاد من نتاج كل من ابن العباس أحمد الفرغاني وابن معشر جعفر البلخي اللذين يعتبران من كبار علماء الفلك في الحضارة العربية الإسلامية. ولكنه أيضا أضاف إضافات جوهرية لعلمي الفلك والجغرافية.

لايخفى على ذوي الألباب مكانة ابن رستة المرموقة بين علماء الجغرافية ليس فقط في العالم الإسلامي ولكن في المعمورة فهو الذي تحدث عن كروية الأرض بطريقة علمية لاتقبل الجدل والتأويل وإن كانت نظريات ابن رستة في هذا الموضوع لاتخلو أبدا من تأثير ابن خرداذبة، لأن ابن خرداذبة له السبق في تنظير

كروية الأرض.

لقد تفنن ابن رستة في تناوله فروع الجغرافية الرياضية فاتبع أسلوبا ومنهجا في هذا المجال لم يسبقه إليه أحد حيث جمع آراء ونظريات علماء العرب والمسلمين في هذا الميدان الحيوي وعلق عليها واستنتج طريقة عملية حديثة لدراسته الجغرافية الرياضية.

نستطيع القول الآن عن كتاب (الأعلاق النفسية) لابن رستة أنه موسوعة عظيمة متكاملة في المعارف التاريخية والجغرافية والفلكية والرياضية فابن رستة من كبار جغرافيي الحضارة العربية والإسلامية، لذا فإن مكانة ابن رستة المتميزة بين جغرافيي العالم طغت على مكانته في العلوم الأخرى.

أتعشم أن تكون هذه السيرة الموجزة عن عالمنا القدير ابن رستة حافزا ومؤثرا لهمة شباب الأمة العربية والإسلامية المتخصصين في علم الجغرافيا أن يبحثوا وينقبوا عن إسهاماته ليس فقط في علم الجغرافية ولكن أيضا في العلوم الأخرى التي لها علاقة قوية في علم الجغرافية بهذا نستطيع بكل جدارة أن نبرهن للملأ المكانة التي وصل إليها العقل العربي والإسلامي في مجال العلوم التجريبية من خلال دراسة شخصية ابن رستة اللامعة.

ابن فضلان:

هو أحمد بن عباس بن رشيد بن حماد المعروف باسم ابن فضلان، من كبار المفكرين في دار السلام، لانعرف بالضبط متى ولد ولامتى توفي، لكن الثابت والمتواتر أنه عاش في القرن الرابع الهجري، كان من المقربين للقائد العباسي المشهور محمد بن سليمان لذكائه الخارق للعادة وحنكته السياسية وقدرته على النقاش المقنع، لذا كان يصحبه محمد بن سليمان معه في جميع لقاءاته الرسمية.

وذاع صيت القائد العباسي محمد بن سليمان بين معاصريه عندما هزم الدولة الطولونية هزيمة نكراء، كما عمل إلى إرجاع مصر إلى الدولة الإسلامية سنة ٢٩٢هجرية، فلا يستبعد أن القائد محمد بن سليمان استفاد من نصائح ابن فضلان التي كان يقدمها له آنذاك.

طلب ملك الصقالبة من أمير المؤمنين الخليفة العباسي المقتدر بالله أن يرسل

بعثة من العلماء لتفقيه شعبه وتعريفهم شرائع الإسلام. ينقل لنا نقولا زيادة في كتابه (الجغرافية والرحلات عند العرب) ملخصا عن هذه البعثة «وماكان في وسع الخليفة العباسي المقتدر بالله أن يرفض مثل هذا الطلب، وجاراه في ذلك وزيره حامد بن عباس، فرأى الاثنان في مثل هذا التحالف خيرا فانتدبا وفدا للقيام بما طلبه ملك الصقالبة، وكان الوفد فيه أربعة رجال رسميين ـ غير الحاشية ـ وكان فيه أحمد بن فضلان الذي عهد إليه برئاسة الوفد، وهو الذي يقول عن نفسه ـ فندبت أنا لقراءة الكتاب عليهم وتسليم ما أهدى إليه والإشراف على الفقهاء والمعلمين».

استفاد ابن فضلان من رحلته، فقدم تصورا واضحا للبلغاريين من حيث حضارتهم وعاداتهم وتجارتهم وتقاليدهم، فكان ذكيا لامعا دقيق الملاحظة يدون مايراه ويتخيله، والحق أن ابن فضلان لم يكن سائحا بل كان باحثا جغرافيا واجتماعيا متمكنا من مادته، لذا نجده يعرض في رسالته وصفا شاملا ومتكاملا لأمراء الشعوب والشعوب التي زارها.

يذكر نفيس أحمد في كتابه (الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي) أن ابن فضلان كان من طلائع الجغرافيين الرحالة، حيث لقيت كتاباته في علم الجغرافية تقديرا عظيما من الباحثين في مجال علم الجغرافية ولعل ماكتبه عن البلغار وقزوين وغيرهم من أهم المصادر التي يعول عليها طلاب العلم، فمثلا ياقوت الحموي اعتمد على رسالة ابن فضلان عند تأليفه موسوعته معجم البلدان.

يتضح للقارىء أن ابن فضلان كان باحثا تجريبيا عظيما وعلى ثقافة عالية، فكان يحاول أن يصل إلى الحقيقة بأي طريقة، لهذا كان يقضي الليل ساهرا في القراءة والنهار متنقلا للتعرف على مشاكل الناس وخاصة العامة منهم، فهو ليس عالما جغرافيا فقط ولكنه كان أيضا مؤرخا وعالما في علم الاجتماع.

وخلاصة القول يظهر لنا أن ابن فضلان كان أديبا وعلى اطلاع واسع في العلوم الشرعية، فقد تميز بأسلوبه الخلاب السهل، كما أنه كان من المحبين لنشر الإسلام والمخلصين لهذا الدين القويم، فالخليفة العباسي المقتدر بالله أصاب عندما كلفه بحمل رسالة الإسلام إلى ملك الصقالبة، لما عرف عنه من صدق الحديث وعفة اللسان، فهو من كبار الدعاة إلى الإسلام.

لقد طرح ابن فضلان ملحمة علمية حول الظروف السياسية والعلاقات الدولية التي كان تعيشها الدول الإسلامية في العصر العباسي الأول، بهذا يمكن القول أن رسالة ابن فضلان كانت حافلة بالمعلومات الضرورية لمن أراد دراسة البلدان المجاورة للدولة الإسلامية آنذاك وأن هذه الرسالة توحي بمادة اثنوغرافية متنوعة تصف القبائل البدوية في معظم أجزاء آسيا، كما يجب أن نعرف أن رسالة ابن فضلان تميزت بطابعها القصصي الفريد، فقد كتبها ابن فضلان بلغة حية وجزلة واضحة البنية خالية من الحشو والنعوت الجوفاء.

من أراد أن يدرس خصائص وعجائب بلاد البلغار والروس والخزر يلزمه أن يرجع إلى ماكتبه ابن فضلان عن هذه البلدان، لأنه كتب عنها بأمانة وخبرة العالم الباحث المثابر، حيث استفاد ابن فضلان من تجربته الميدانية استفادة عظيمة.

الحقيقة أنه من الصعب على الباحث المتقصي للحقائق المتحري للصدق والأمانة أن يكتب عن حياة ابن فضلان، لأن ماكتب عنه لايسمن ولايغني من جوع، بل إن معظم الذين كتبوا عنه يتطرقون فقط لمكانته المرموقة في حقل الجغرافية، وينسون أنه متعدد المواهب وأن له صولة وجولة وآراء سديدة وقيمة في الأدب والتاريخ والفلسفة وعلم الاجتماع.

لا أكون مبالغا إذا قلت لك أيها القارىء إنه يندر أن تجد أحدا يعرف دور ابن فضلان في علم الاجتماع علما أنه ركز وبذل جهدا كبيرا لدراسة عادات وتقاليد الشعوب التي مر بها في رحلاته، فهو من فحول علم الاجتماع.

لقد أسدى ابن فضلان خدمة حقيقية وحيدة لعلم الاجتماع لاتقل أبدا عن مجهوداته التي تفضل بها لعلم الجغرافية والأدب والتاريخ والفلسفة، فلله در ابن فضلان وجعله قدوة حسنة لشباب الأمة العربية والإسلامية.

قدامة بن جعفر :

هو قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد، ويكنى بأبي الفرج، ويلقب بالكاتب البغدادي، لأنه نما وترعرع في بغداد. وهو من أسرة نصرانية، ولكنه أسلم وكان درعا للإسلام.

لانعرف الكثير عن نشأة قدامة بن جعفر في بغداد، ولكن المتواتر عنه أنه من علماء الجغرافية المرموقين الذين عاشوا في أوائل القرن الرابع الهجري، وتوفي في

دار السلام سنة ٣٢٠ هجرية على دين الإسلام الحنيف.

احتضنه الخليفة العباسي المكتفي بالله بعد إسلامه، لبلاغته وفصاحته، فقدامة ابن جعفر من كبار الفلاسفة في الحضارة العربية والإسلامية، بل كان من العلماء الذين يشار إليهم بالبنان في علم المنطق. لقد تميز على أقرانه بالذكاء والنباهة الخارقين للعادة، لذا ذاع صيته في المناصب التي تقلدها في الدولة.

كان والد ابن قدامة من أدباء الحضارة العربية والإسلامية المرموقين، ويتضح ذلك جليا من كلام أبي بكر الخطيب البغدادي عندما قال في كتابه (تاريخ بغداد - الجزء التاسع) «جعفر بن قدامة بن زياد، أحد مشايخ الكتاب وعلمائهم، وافر الأدب حسن المعرفة وله مصنفات في صنعة الكتابة وغيرها».

لقد استفاد قدامة بن جعفر من علاقته القوية بالخليفة العباسي المكتفي بالله، فزار كثيراً من البلدان بحكم مركزه القيادي، حيث أسند إليه رئاسة ديوان الخراج في الدولة العباسية وتولى أيضا عمل صاحب البريد، وهذه الوظيفة لايُعيّن فيها إلا الرجال الذين عرفوا بعلمهم الغزير وذكائهم الخارق للعادة وولائهم للدولة المنقطع النظير.

كان قدامة بن جعفر على بصيرة وبيان في المواصلات والنتاج الزراعي والحياة الاجتماعية في البلاد العربية والإسلامية بل في جميع بقاع العالم، وذلك لصلاته القوية مع العلماء البارزين ليس فقط في علم الجغرافية ولكن أيضا في علم الاجتماع. فهو من قادة الفكر في الحضارة العربية والإسلامية.

نعم إن الوظائف التي عمل بها قدامة بن جعفر أكسبته خبرة بالشئون الإدارية والمالية ومعرفة المسالك والممالك والاطلاع على أحوال الجماهير عن كثب، لذا صارت كتاباته مهمة للباحثين لما تحتوي عليه من معلومات نادرة.

نال أبو الفرج قدامة بن جعفر شهرة عظيمة في كتابه (كتاب الخراج وصنعة الكتابة) الذي يتكون من ثمانية أجزاء ويشتمل على معلومات فريدة عن الحالة السياسية في الدولة العباسية آنذاك، وأفكار عن الجغرافية الرياضية. كما قدم وصفا متكاملا عن الجبال والأنهار في الأقاليم السبعة المعروفة في المعمورة.

اعتمد قدامة بن جعفر في تأليف كتابه (كتاب الخراج وصنعة الكتابة) على مؤلفات علماء العرب والمسلمين الأوائل وكبار مفكري اليونان، لذا يعتبر ابن

قدامة من المدرسة اليونانية العربية في مجال علم الجغرافية. ومما يؤسف له أن معظم هذا الكتاب القيم قد ضاع ولم يبق إلا الأجزاء الأربعة الأولى منه والذي قام بتحقيقها ونشرها دي جويه سنة ١٢٦٧ هجرية باللغة الفرنسية، والتي بقيت وثيقة علمية لايستغنى عنها باحث في مجال علم الجغرافية.

اعتكف أبو الفرج بن قدامة على التأليف، فأنتجت قريحته المتوقدة مجموعة من الكتب الثمينة أوردها محمد بن إسحاق النديم في كتابه (الفهرست) وهي:

١ ـ كتاب الخراج وصنعة الكتابة.
٢ ـ كتاب نقد الشعر.
٣ ـ كتاب صابون الفم.
٤ ـ كتاب صرف الهم.
٥ ـ كتاب الرد على ابن المعتز.
٦ ـ كتاب حشو حشاء الجليس.
٧ ـ كتاب رسالته في أبي علي بن مقلة ويعرف بالنجم الثاقب.
٨ ـ كتاب صناعة الجدل.
٩ ـ كتاب نزهة القلوب وزاد المسافر.

ويعتبر قدامة بن جعفر من علماء العرب والمسلمين النابغين في مجالي الجغرافية وعلم الفلسفة ،. ولكنه أيضا له باع طويل في الأدب، فهو ناقد متمرس، وله في هذا الميدان صولة وجولة، كما أنه لم يهمل أبدا العلوم التجريبية فقد فسر كتاب السماع الطبيعي لأرسطوطاليس، الذي يعتبر من أهم المصادر المعتمدة عند علماء العرب والمسلمين في حقل العلوم التجريبية.

وخلاصة القول أن المسعودي أبرز وبلور مكانة قدامة بن جعفر في كتابه مروج الذهب، حيث وضعه في صف جهابذة الفكر الجغرافي في الحضارة العربية والإسلامية، وأثنى عليه ثناء حسنا.

لقد قام جبراييل فران بعمل جيد، لأنه عرفنا بقدامة بن جعفر، وذلك عبر نشره بعض المقتبسات من كتابه (كتاب الخراج وصنعة الكتابة) التي صار يتناقلها علماء الجغرافية ليس فقط في العالم العربي والإسلامي ولكن في جميع أنحاء العالم،

لأنها تحتوي على معلومات متنوعة ومفيدة عن الجبال والأنهار المشهورة في الأقاليم السبعة.

والحق أن أبا الفرج بن قدامة يعتبر في مقدمة أهل جيله لقدرته على المثابرة والتصور وتحديات الأخطار التي كانت تخيف علماء زمانه، بل كانوا يعانون منها. إن نتاج قدامة بن جعفر في علم الجغرافية أدهش المتخصصين في هذا الحقل الحيوي، بل أوقد مصابيحهم وأضاء لهم الطريق.

امتاز قدامة بن جعفر بقدرة نادرة على العمل المثمر فقد ألف في الشئون السياسية والمالية بأسلوب سلس. كما تناول الموضوعات الجغرافية بأسلوب علمي يعتمد على الخبرة الميدانية والأصالة وحسن العرض والأداء.

قام أبوالفرج بن قدامة مع زملائه من علماء العرب والمسلمين بتقديم بحوث أصيلة وجادة لخدمة البشرية أجمع وإنقاذها من الجهل والفقر اللذين كانا يخيمان على العالم خارج الأمة الإسلامية.

أرى شخصيا أن نتاج أبى الفرج قدامة بن جعفر يجب أن يعيه الجيل العربي والإسلامي الحاضر، لكى يندفع ويتقمص شخصية أبي الفرج العلمية النموذجية، فيسير على طريقته ويقتدي به في رفع مستوى المدنية.

البلخي :

هو أحمد بن سهل البلخي ويعرف بأبي زيد عاش فيما بين (٢٣٥-٣٢٢هجرية) ولد في قرية شامستان بالقرب من بلخ وتوفي هناك درس في بدء حياته العلوم الشرعية واللغوية على كبار مفكري بلخ، فتمكن منها، وصار مدرسا ناجحا فيها ولكنه لم يكتف بذلك بل غادر مسقط رأسه إلى بغداد لكي يتتلمذ على يد جهابذة العلم هناك حيث كانت بغداد مركز الحضارة العربية والإسلامية آنذاك.

نما أبو زيد البلخي وترعرع في بيت علم، فكان والده مدرسا مشهورا للبنين في شامستان كما أن لوالده شهرة عظيمة لعلمه وحكمته هناك، لهذا ليس بغريب أن يبرز أبوزيد البلخي في عدة مجالات علمية وأن يكون مدرسا بارزا، فالبيئة العلمية التي عاش فيها لها أثر كبير عليه وقد أثبت علماء الاجتماع المعاصرون أن

الجو والمحيط العلمي يفيد الشباب ويعوده على الدراسة والمثابرة بإذن الله تعالى.

والكثير يخلط بينه وبين أبي معشر جعفر بن محمد البلخي المتوفى سنة ٨٨٦هجرية والذي نال شهرة عظيمة في علمي الفلك والتاريخ ومن مصنفات أبي معشر البلخي كتاب الطبائع وزيجه الكبير. وكتاب الزيج الصغير وغيرها.

تتلمذ أبو زيد البلخي على يد فيلسوف العرب يعقوب بن إسحاق الكندي (١٨٥-٢٥٢هجرية) وهو في ريعان شبابه فأجاد الفلسفة ويعتبر أبو زيد البلخي من علماء الفلسفة المرموقين ولكن علم الجغرافية أخذ نصيب الأسد من وقته، لذا نبغ فيه وأنشأ مع بعض زملائه مدرسة جغرافية عرفت عند الجغرافيين بالمدرسة البلخية وبقيت هذه المدرسة على مر العصور من أهم المنابر العلمية التي تلقى فيها قادة الفكر الإسلامي تعليمهم ليس فقط في علمي الفلك والجغرافية ولكن في العلوم التجريبية الأخرى.

تميز أبو زيد البلخي بذكائه المفرط وبيانه الفريد، ويظهر ذلك من القول المأثور الذي تتناقله الألسن والكتاب (قيل أقطاب الكلام في العربية ثلاثة: الجاحظ وعلى أبوعبيدة وأبو زيد البلخي)، كان أبو زيد البلخي حريصا كل الحرص على إبداء رأيه بحكمة وترو في كثير من الأمور وخاصة مايتعلق في تفسيره لكتاب الله القرآن الكريم والحديث عن الرسول ﷺ وأصحابه مهتديا بقول الرسول ﷺ «**أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم**» والجدير بالذكر أن كتابه في تفسير القرآن كان من أحسن التفاسير في عصره لذا كان من أهم المراجع،وهو الذي اعتمد عليه طلاب العلم في ذلك الزمن.

ذهب أبو زيد البلخي إلى مكة المكرمة لأداء مناسك الحج والعمرة فاجتمع ببعض علماء العرب والمسلين المشتغلين في الفلك والجغرافية والأدب والفقه فتبادل معهم الرأي في كثير من الأمور الخاصة بالعلوم الشرعية والجغرافية ونتج عن ذلك تأليفه (كتاب صور الأقاليم) والمعروف أحيانا باسم (أشكال البلاد) أو (تقويم البلدان) سنة٣٠٨ هجرية والذي نال فيه شهرة عظيمة ليس فقط بين معاصريه ولكن أيضا بين التابعين له.

وعندما عاد أبوزيد البلخي إلى مسقط رأسه بلخ، رغب أحمد بن سهل بن هاشم المروزي أمير بلخ أن يستوزره لنبوغة في معظم فروع المعرفة ولكنه اعتذر

له واكتفى بمهمة المجالسة للأمير.

ذاع صيت البلخي بين معاصريه في صنع الخرائط، لذا يعتبر رائد الجغرافيين الذين اعتنوا بالمصورات كعنصر أساسي للبحث في مجال علم الجغرافية ومن ذلك ظهر كتابه (صور الأقاليم) عبارة عن أطلس مرفق ببعض الشروح والإيضاحات الضرورية أي أن كتاب (صور الأقاليم) للبلخي عبارة عن شرح كارتوغرافي أكثر منه وصفا جغرافيا.

وينقل لنا ظهير الدين البيهقي في كتابه (تاريخ حكماء الإسلام) بعض الحكم التي تروى عن أبي زيد البلخي وهي:

* قال: للصدق أصل وفرع ونبات من أكل ثماره وجد حلاوة طعمه، والكذب عقيم لا أصل له ولاثمرة فاحذره.
* وقال: إذا كثر الخزان للأسرار زادت ضياعا.
* وقال: من طلب لسره حافظا أفشاه.
* وقال: لابد من الموت فلا تخف وإن كنت تخاف مما بعد الموت فأصلح شأنك قبل موتك وخف سيئاتك لاموتك.
* وقال: إذا مدحك بما ليس فيك فلا تأمن أن يذمك أيضا بما ليس فيك.
* وقال: الشريعة الفلسفية الكبرى، ولايكون الرجل متفلسفا حتى يكون متعبدا مواظبا على أداء أوامرالشرع.
* الدواء الأكبر هو العلم.

اعتكف أبو زيد البلخي على التأليف فأنشا نحو سبعين مصنفا لم يبق منها محفوظا إلا القليل، لقد كان البلخي واسع الأفق عريض الثقافة. لذا كتب في علوم القرآن الكريم والحديث واللغة والجغرافية والتاريخ والسياسة والطب وعلم النفس والرياضيات والحيوان والفلك.

نال البلخي شهرة عظيمة بين معاصريه والتابعين له في العلوم الجغرافية والفلكية والطبية والشرعية، لذا لقب بجاحظ خراسان فهو صاحب الرأي السديد في السياسة دون منازع لهذا السبب احتضنه ولاة الأمر آنذاك.

ومما لاشك أن أبازيد البلخي تفنن في علمي الجغرافية والفلك. حتى صار يشار إليه بالبنان ويكفي عالمنا البلخي فخراً أنه درس على يد الكندي الذي يعتبر

من كبار المفكرين في الحضارة العربية والإسلامية. فالبلخي يعتبر من الرعيل الأول في علمي الفلك والرياضيات الذين لهم الفضل الكبير في تقدم هذين العلمين إلى مانراه اليوم.

ولعل من أهم الأسباب التي جعلت أبا زيد البلخي مشهورا كونه شب معلما وعلاقته الوطيدة بأمر بلخ في ذلك الوقت حيث استفاد من هذه العلاقة ببناء مكتبة علمية نادرة هناك حتى صار العلماء وطلاب العلم يأتون إليها من كل فج لينهلوا من عذبها.

ومن المؤسف حقا أن أثر أبي زيد البلخي في مجال الجغرافية بقى مجهولا لأبناء جلدته مدة طويلة إلى أن بدأ المستشرقون بترجمة نتاجه العلمي وخاصة كتابه (صور الأقاليم) من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية ثم الفرنسية والإنجليزية والألمانية وغيرها لكي يبقى مرجعا لعلمائهم في ميدان علمي الجغرافية والفلك، لله در أبي زيد البلخي لما قدم في كل من علمي الجغرافية والفلك.

البيـــــاني

هو قاسم بن أصبغ بن محمد بن يوسف القرطبي، يكنى بأبي محمد، ويلقب بالبياني نسبة إلى مسقط رأسه بلدة بيانة. ولد سنة **٢٤٤** هجرية ببلدة بيانة بالقرب من قرطبة. وتوفي بقرطبة عن عمر يناهز ستا وتسعين سنة.

تلقى أبو محمد البياني معظم تعليمه بمدينة قرطبة التي كانت تعج بالمراكز العلمية وكبار المفكرين في جميع فروع المعرفة. وقد ذاع صيت صاحب الترجمة البياني بعلم النحو إلا أنه كان يلقب في بعض الأحيان بالنحوي. وقد نوه عن ذلك حاجي خليفة في كتابه (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون).

قام أبو محمد البياني بجولة في البلدان الإسلامية، فزار كلا من المغرب العربي ومصر والشام والعراق وأدى فريضة الحج وفي جميع المدن التي مر بها التقى مع علمائها لكي يتزود بمتاع العقل. وقد نبغ في علمي التاريخ والجغرافية وهو في ريعان شبابه.

اهتم أبو محمد البياني رحمه الله في التأليف في صغره، فحث الشباب على البحث والتنقيب والاستقصاء في العلوم الشرعية واللغوية والجغرافية والتاريخ.

لذا يعتبر من عمالقة علم الجغرافية دون منازع.

ولايخفى على القراء أن أبا محمد البياني عاش في فترة من الزمن كانت بلاد الأندلس تنعم فيها بالصحوة الحضارية على أيدي كل من عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر، وبالفعل بدأ علماء الأندلس بالإبداع في عهدهما.

ويصفه ياقوت الحموي في موسوعته (معجم الأدباء المجلد الثامن) بأنه من أئمة العلم، حافظ مكثر من تصانيف الكتب. وكان من الثقة والجلالة بحيث اشتهر أمره، وانتشر ذكره، وروى عنه جماعة من أهل بلدته بيانة وغيرهم.

اهتم أبو محمد البياني النحوي في موضوع علم الأنساب فوجه نداءاً للعلماء إلى العناية بهذا الحقل، لأنه يعتمد بضرورته، وذلك للحفاظ على أنساب الناس من الخلط ومايتوصل إليه الباحث من معرفة جغرافية وتاريخية. وبالفعل كتب كتابا عظيما في هذا الميدان صار مصدرا للباحثين ليس فقط في علم الأنساب ولكن أيضا في علمي الجغرافية والتاريخ.

كان أبو محمد البياني محدثا لبقا، نبيلا يحب العلم والعلماء. فقد اشتغل في علوم الشريعة وله نتاج هائل في هذا المجال ومنها: المجتنى في أحاديث المصطفى، وفي أحكام القرآن، وناسخ الحديث ومنسوخه، وغرائب حديث مالك بن أنس مما ليس في الموطأ وغيرها وقد نوه عن بصيرته بالحديث وتفسير القرآن الكريم ابن الفرضي في كتابه (تاريخ علماء الأندلس).

ومن أهم الأعمال العلمية التي قام بها صاحب الترجمة قاسم بن أصبغ البياني أنه ترجم كتاب أوروسيوس orosius والمعروف عند الغرب باسم هروشيش الذي كان حافلا بأعلام الجغرافية والتاريخ الذين كانوا أجداد عرب الأندلس، كما اشتهر كتاب هروشيش بالصعوبة المتناهية وعدم الترابط. لذا بذل قاسم بن أصبغ جهدا عظيما ليقدمه لعلماء الأندلس بالصيغة العلمية المطلوبة.

ويذكر حسين مؤنس في كتابه (تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس) أن ترجمة كتاب هروشيش من أهم ماأداه قاسم بن أصبغ البياني من خدمة إلى الحركة العلمية في الأندلس فإن هذه الترجمة وانتشارها بين أيدي الناس كانت نقطة البدء بالنسبة لعصر جديد من عصور التاريخ في الأندلس من ناحية، ونقطة بالنسبة للتأليف الجغرافي من ناحية أخرى.

وأضاف حسين مؤنس أن أبا محمد البياني استحدث المصطلح الجغرافي، وهو مصطلح جديد يختلف إلى حد كبير عن المصطلح المشرقي الذي كان جاريا إلى ذلك الحين، وقد صاغ بن أصبغ هذه المصطلحات بمهارة ودقة بالغتين ليعبر عن مفاهيم جديدة سواء فيما يتصل بالمعالم الجغرافية كمنابع الأنهار ومصابها أو السهول الخضراء المغطاة بالغابات أو الخلجان الصغيرة أو تحديد الاتجاهات.

استفاد علماء العرب والمسلمين من كتاب هروشيش المترجم إلى اللغة العربية بواسطة قاسم بن أصبغ البياني في مؤلفاتهم العلمية في حقلي الجغرافية والتاريخ، وعلى رأسهم أبي زيد عبدالرحمن بن خلدون (٧٣٢ـ٨٠٨هجرية) الذي نوه عن ذلك في تاريخه المشهور.

وخلاصة القول أن من المعروف أن كتاب هروشيش جمع من مصنفات جيدة لعلماء كبار في الحضارة اليونانية والرومانية. لذا حرص أبو محمد البياني وبذل كل غال ونفيس أن يترجمه ويخرج بالصورة التي ظهر بها، لأنه يعرف تمام المعرفة أن ترجمته لهذا الكتاب ستكون محركا له ولغيره من علماء العرب والمسلمين أن يؤلفوا مثله وأحسن منه، ولكي يكون مصدرا للباحثين في مجال علمي التاريخ والجغرافية. والجديرذكره أنه يوجد نسخة واحدة باللغة العربية لهذا الكتاب الرائع في مكتبة جامعة كولومبيا الأمريكية في مدينة نيويورك.

ونتيجة لما قام به علماء العرب والمسلمين الأوائل في الأندلس ومن بينهم البياني من ترجمة وتأليف في مجال علم الجغرافية صار التابعون علماء متميزين في هذا الميدان الحيوي. ولو جمعنا ماعمله علماء العرب والمسلمين الأوائل والتابعين لهم من الأبناء والأحفاد لوجدنا أنه دور عظيم في نمو وتطوير المعرفة الإنسانية.

ومن السهل جدا أن يوجه أحد القراء السؤال ويقول لماذا نضع قاسم بن أصبغ البياني ضمن علماء الجغرافية؟ الحقيقة أن الذي عمله البياني حيال علم الجغرافية من ترجمة وتعليق على كتاب هروشيش وحده يعطيه الحق بأن يكون في الصف الأول من بين علماء الجغرافية ليس فقط في العالم العربي والإسلامي ولكن في العالم كله. كما أن مؤلفه في علم الأنساب يحتوي على معلومات خطيرة في هذا الموضوع.

أحمد الرازي :

هو أحمد بن محمد بن موسى الرازي ويعرف بالكناني والقرطبي، عاش فيما بين ٢٧٤-٣٤٤هـ أصله من الري ولكنه ولد في قرطبة بالأندلس، لذا لقب بالقرطبي، نشأ وترعرع في الأندلس وتلقى تعليمه على يد كبار المفكرين هناك.

كان والده من كبار المفكرين، وكان له مكانة مرموقة في معرفة اللغات المختلفة، كما أنه كان خطيبا بليغا لبقا، يتألق ذكاء وحكمة.

كان أحمد الرازي محافظا على تقاليده ولهجته الشرقية مدة إقامته في الأندلس، فلم يتأثر من البيئة التي حوله، بل كان للبيت السبق في السيطرة على مشاعره.

ينتمي أحمد الرازي إلى أسرة عريقة، يذكر نفيس أحمد في كتابه (الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي) أن أحمد الرازي من أهل الري وينتمي لأسرة تشتهر برجال الأدب، فهو ابن العم القريب لميرزا غياث بك والد نور جيهان زوجة الملك جانجير ابن أكبر الذي صار فيما بعد رئيسا للوزارة في عهد جهابخير تحت لقب اعتماد الدولة.

كان أحمد الرازي جغرافيا وشاعرا وأديبا مرهفا، اشتهر بين زملائه بحسن رواية الأخبار لذا كان يحرص كل الحرص على حفظ وتدوين الأخبار الجغرافية والتاريخية، كي يسمع رفاقه بعض القصص التاريخية الشيقة والمفيدة.

اهتم أحمد الرازي برواية الأخبار اهتماما بالغا، لذا ألف كتابا في أخبار ملوك الأندلس ضمنه المعلومات الهامة التي تتعلق بالملوك ورجالهم وطريقة تعاملهم، مع شعوبهم وغزواتهم، أعطى أحمد الرازي عناية خاصة لتاريخ كبار أهل الأندلس، فكتب كتابا شاملا عن أنساب مشاهير أهل الأندلس في خمس مجلدات من أحسن ماصنف في هذا المجال، لأن أحمد الرازي استطاع أن يقدمه بطريقة مختصرة وبأسلوب ممتع. لذا صار متداولا بين الباحثين وطلاب علمي التاريخ والجغرافية على السواء.

انتقل أحمد الرازي إلى المشرق العربي الإسلامي حيث تمكن من زيارة الهند في أيام (أكبر) وكتب عن جغرافية وتاريخ الهند كتابة في غاية الروعة والجمال، لهذا صار نتاجه في هذا المضمار مهما جدا للباحثين في هذا المجال.

يعتبر أحمد الرازي أول من نقل نظريات جغرافية الأقاليم إلى الأندلس من علماء العرب والمسلمين المشارقة، لذا صار كتابه في هذا الحقل من المصادر الهامة للدارسين للأندلس وشمال أفريقية.

أما كتابه (هفت إقليم) فهو كتاب في غاية الأهمية، وقد احتل مكانة مرموقة في المكتبة الجغرافية الخاصة بالأقاليم، فقد تحدث عن الأقاليم السبعة بطريقة علمية تستحق كل تقدير.

يذكر نفيس أحمد في كتابه آنف الذكر أن (كتاب هفت إقليم) لأحمد الرازي يستحق مكانة رفيعة إذ نراه موسوعة في الطبوغرافيا والتاريخ والتراجم، حيث عرض المؤلف المعلومات على أساس الأقاليم المناخية، وعند ذكر أي قطر أو مدينة نجده يعقب ببيان عن المكان وتاريخه وغرائبه وعجائبه وحاصلاته الأساسية.

لقد قصد أحمد الرازي بهفت إقليم الأقاليم السبعة، لذا كان كتابه هذا من المؤلفات النادرة في موضوع الأقاليم السبعة، وقد نوه بعض الجغرافيين أن كتاب هفت إقليم لأحمد الرازي يعتبر بحق أحسن موسوعة جغرافية باللغة الفارسية آنذاك.

لأحمد الرازي كتاب في وصف قرطبة وخططها ومنازلها الفاخرة، ويتضح في هذا الكتاب القدرة التي يمتلكها حيث تمكن من تغطية مايريده من وصف الشوارع والحدائق والمظاهر الطبيعية لهذه المدينة بطريقة موجزة ومفيدة للغاية

وخلاصة القول أن أحمد الرازي اعتمد على نتاج علماء العرب والمسلمين في تأليف كتبه الكثيرة. فقد نوه عن كل من أبي زيد البلخي وياقوت الحموي وحمدالله المستوفي، لذا كانت مؤلفاته تمتاز بالدقة والإسناد.

لقد ترجمت معظم مؤلفات أحمد الرازي إلى لغات غربية حية، فعلى سبيل المثال قام جيل بيريز (Gal. peres) بترجمة كتابه وصف أفريقيا والمغرب إلى اللغة البرتغالية، وبقى هذا الكتاب مدة طويلة المصدر الوحيد المعتمد في هذه الموضوعات في جميع أنحاء العالم.

لا ريب أن أحمد الرازي الكناني علم من أعلام الفكر في الحضارة العربية والإسلامية ليس فقط في علمي الجغرافية والتاريخ ولكن أيضا في الأدب والشعر واللغة. لذا فإن طبيعة أحمد الرازي النفسية كانت عاملا قويا من عوامل التقدم

العلمي المدهش الذي وصل إليه. فهو شخص راكز مرهف الحس تربى في بيت علم انشغل بالعلم منذ نعومة أظفاره.

ابن الحائك الهمداني :

هو لسان اليمن الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف الهمداني، والمعروف بابن الحائك، وفي بعض الأحيان بابن ذي الدمنة. نشأ وترعرع في بيت متوسط الحال في صنعاء، لانعرف بالضبط متى ولد، ولكن التحريات توحي بأنه ولد سنة ٢٨٠هجرية.

سجن حاكم صنعاء أسعد بن يعفر المتوفى سنة٣٣٢ هجرية أبا محمد الهمداني. وقد نقل لنا بعض المؤرخين أن الهمداني توفي في السجن سنة ٣٣٤ هجرية، ولكن الثابت أنه توفى سنة ٣٤٥هـ.

اشتهر أبو محمد الهمداني بعلوم كثيرة منها النحو والأدب والتاريخ والجغرافية وعلوم الأرض. ولكنه وصل إلى مرتبة عظيمة في علم النحو حتى صار يلقب بالنحوى.

يمتدح جلال السيوطي الهمداني في كتابه (بغية الوعاة) بقوله: «ابن الحائك الأوحد في عصره، الفاضل من سبقه، المبرز على من لحقه، لم يولد في اليمن مثله علما وفهما، ولسانا وشعرا، ورواية وفكراً، وإحاطة بعلوم العرب».

وقضى أبو محمد الهمداني ردحا من الزمن بمكة المكرمة يتلقى العلم على يد جهابذة الفكر في العلوم الشرعية والعربية ثم عاد إلى مسقط رأسه، فنزل صعدة التي تعتبر من قرى صنعاء وصار يقرض الشعر، وتفنن في الأدب الشعبي القديم في جنوب جزيرة العرب.

درس الهمداني علم التاريخ فتفنن في هذا الميدان الحيوي، وصار حجة فيه. ويظهر ذلك واضحا من كتابه الإكليل في أنساب حمير وأيام ملوكها (في عشرة مجلدات) وهذه الموسوعة تحتوي على معلومات ثمينة ليس فقط في التاريخ ولكن أيضا في الجغرافية والعلوم الطبيعية والفلك وغيرها.

يذكر نفيس أحمد في كتابه (الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي) أن الهمداني كان متضلعا في التاريخ كما أنه ليس أقل من ذلك قدرا في حقل علم الجغرافية، إلى جانب كونه فلكيا وشاعرا أيضا.

كرس أبو محمد الهمداني جل وقته للعمل في إخراج كتاب عن جغرافية الجزيرة العربية وبالفعل انتهى من تأليف هذا الكتاب الذي سماه (صفة جزيرة العرب) والذي ضمنه معلومات عن الظواهر الطبيعية للجزيرة العربية ولسكانها ولمحصولاتها الحيوانية والنباتية والمعدنية ومعابرها البرية والبحرية، وبقى هذا الكتاب إلى يومنا هذا من أهم المصادر الجغرافية للجزيرة العربية.

وتتضح براعة ونبوغ صاحب الترجمة الهمداني في الجزء الخاص في اليمن، حيث قدم للقارىء معلومات أصيلة لم يسبقه إليها أحد، وكان مصدره في هذا الموضوع خبرته الشخصية وحجاج بيت الله الحرام، وبوجه عام لم يستند في تأليف كتابه صفة جزيرة العرب على النقل، بل كان يجوب جميع أجزاء الجزيرة العربية يبحث في آثارها ويدون مايراه.

ويذكر أغناطيوس كراتشكوفسكي في كتابه (تاريخ الأدب الجغرافي العربي) أن وصف الهمداني لليمن يعتمد على الملاحظة الشخصية، أما ماذكره في مقدمة كتابه (صفة جزيرة العرب) حول الرياضة الجغرافية، والمذاهب المختلفة لتحديد الأطوال والعرض، ووصفه لمناطق الأرض بحسب توزيعها على الأقاليم السبعة فهي من المادة الأدبية التي خلفها السابقون، ينوه كراتشكوفسكي بدهشة عن مقدرة الهمداني العظيمة في استخراج بعض الحقائق الجغرافية من دواوين الشعر عند الأقدمين.

أماالمستشرق الدوميلي فكان من المعجبين بكتاب (صفة جزيرة العرب للهمداني) وذكر في كتابه (العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي) أن (D.H.Muller) الألماني نشر نص كتاب (صفة جزيرة العرب) في ليدن سنة ١٣٠١ هجرية فصار في متناول الجميع.

كما حقق كتاب (صفة جزيرة العرب للهمداني) القاضي محمد بن علي الأكوع الحوالي سنة١٣٩٥هـ، فصار هذا الكتاب القيم يمكن الحصول عليه بيسر، ويعتبر كتاب صفة جزيرة العرب للهمداني من المصادر الهامة جدا لمعرفة مسميات طبوغرافية الجزيرة العربية وخاصة الجنوب منها.

أما مكانة الهمداني العلمية في مجال علم الفلك فمؤلفاته في هذا تعتبر من أهم المصادر العلمية التي اعتمد عليها علماء اليمن خاصة وعلماء العرب والمسلمين

عامة فزيج الهمداني بقي ردحا من الزمن يستند عليه أهل اليمن في معرفة حركات الكواكب.

ومن مصنفات الهمداني المعروفة أيضا (كتاب سرائر الحكمة، والقصيدة الدامغة التي وضعها مع شرحها في كتاب، وكتاب الحيوان المفترس وكتاب الجوهرتين العتيقتين المائعتين من الصفراء والبيضاء.

وخلاصة القول أن أبا محمد الهمداني يحتل بمكانة مرموقة بين جغرافيي العرب والمسلمين لأن له آراء سديدة، ولقد أفاد علم الجغرافية بنظرياته المبتكرة.

ولايخفى على القارىء أن الهمداني لمع في نواح عديدة من المعرفة، ولكن اللمعان يختلف فلا شك أن صاحب الترجمة ذاع صيته في كل من علم الجغرافية والتاريخ بين معاصريه والتابعين له.

لقد أورثنا العالم القدير الهمداني تراثا حافلا بالمنجزات العلمية، فالواجب علينا أن نتدبر هذه الثروة العظيمة التي لاتقدر بثمن ونحققها ونقدمها لفلذات أكبادنا شباب الأمة العربية والإسلامية.

ومما يؤسف له أن بعض الجغرافيين العرب المعاصرين يدعون أن نتاج علماء العرب والمسلمين الأوائل في الجغرافية ومن بينهم الهمداني يخلو من الخصائص العلمية التي تتميز بها الجغرافية الحديثة. لكن المحقق العادل سيجد هذا كلاما عاريا عن الصحة.

والآفة الخطيرة أن هؤلاء المنحرفين صرفوا أبناء الأمة العربية والإسلامية عن دراسة تراثهم بل شككوا في مجد أمتهم ومدنيتها وقابليتها للنتاج العلمي، والعجب أن المنصفين من علماء الإفرنجة يخالفون هؤلاء بالرأي وينوهون عن الخصائص العلمية التي تميزت بها الجغرافية العربية والإسلامية.

الإصطخري

هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارس الإصطخري، يعرف في بعض الأحيان باسم الكرخي، لانعرف الكثير عن نشأته الأولى، لكنه توفي سنة٣٤٦ هجرية ينتمي أبو إسحاق الإصطخري إلى إصطخر وهي مدينة برسيبوليس القديمة في بلاد الفرس.

زار الإصطخري معظم البلاد الإسلامية، لذا ألف عن بصيرة كتابه (المسالك والممالك) الذي يعتبر من أحسن ماكتب في العصور الوسطى، حيث تميز عن غيره في كثرة الخرائط التي استخدمها الإصطخري كوسائل إيضاح، وقد قدم أبو إسحاق الإصطخري في كتابه هذا دراسة مفصلة عن بلاد العرب والهند والمغرب والأندلس وصقلية ومصر وبلاد الشام وفارس والعراق وغيرها استفاد منها طلاب العلم في مجال علم الجغرافية.

ويستعرض الإصطخري منهجه العلمي الذي اتبعه في كتابه (المسالك والممالك) فيقول «فإني ذكرت في كتابي هذا.. أقاليم الأرض.. على الممالك وقصدت منها بلاد الإسلام، وتفصيل مدنها، وتقسيم مايعود بالأعمال المجموعة إليها، ولم أقصد الأقاليم السبعة التي عليها قسمة الأرض، بل جعلت كل قطعة أفردتها مفردة مصورة، ثم ذكرت مايحيط به من الأماكن، وما في أصقاعه من المدن والبقاع المشهورة والبحار والأنهار وما يحتاج إلى معرفة من جوامع مايشتمل عليه ذلك الإقليم.. لأن الغرض من كتابي هذا تصوير هذه الأقاليم التي لم يذكرها أحد علمته».

ويذكر شاكر خصباك في كتابه (في الجغرافية العربية) أن أبا إسحاق الإصطخري ساح العالم الإسلامي، لذا استفاد من رحلاته في تصنيف كتابه (المسالك والممالك) الذي يكتسب أهمية بالغة إذ يعتبر رائداً للكتب الإقليمية التي ألفت بعده في منهجه ومعلوماته وتبويبه. وقد اعتبر الإصطخري الخارطة أساساً للبحث، فقسم بلاد الإسلام إلى عشرين إقليماً، رسم خارطة جيدة لكل من هذه الأقاليم. كما يحتوي هذا الكتاب على معلومات تاريخية ضرورية للدارسين في ميدان علم الجغرافية.

يوجد كتاب (المسالك والممالك) للإصطخري في معظم مكتبات العالم كمخطوط، ولكن ذي خويه طبعه سنة١٢٨٧ هجرية في ليدن بهولندا، وأعيد طبعه بالصور سنة١٢٤٦ هجرية وقام بتحقيقه محمد جابر عبد العال الحسيني سنة١٣٨١هجرية ونشرته وزارة الثقافة والإرشاد المصرية بالقاهرة لذا انتشر الكتاب وتداولته القراء في جميع أنحاء المعمورة، ومنه عرفت مكانة الإصطخري في ميدان علم الجغرافية الإقليمية.

لقد نهج أبو إسحاق الإصطخري منهجا علميا يدل على قدرته الفائقة النظير في تصور شكل الأرض، فلم يتجاهل الناحية الفلكلورية أو الاقتصادية أو الاتنوغرافية، والحق أن هذه هي الطريقة التي يستعملها علماء القرن الخامس عشر الهجري. كما ركز أيضا على المدلول الجغرافي والسياسي والإداري، وتجنب النظريات التقليدية التي تنص على تقسيم الأرض إلى سبعة أقاليم، وأخذ كل إقليم بذاته كوحدة جغرافية مستقلة.

أولى أبو إسحاق الإصطخري عناية خاصة لموضوع المد والجزر، فله نظريات جريئة في هذا المضمار مما يدل على طول باعه في علم الأنواء، والمعروف بين العلماء في الماضي أن علم الأنواء جزء لايتجزأ من علم الجغرافية.

لقد اتخذ الإصطخري الخرائط الجغرافية التي تزخر بها مؤلفاته وسيلة للشرح وإبراز الأفكار الجغرافية لطلابه النابهين، كما ركز على طريقة المقارنة بين المدن، فهو بالحقيقة عالم القرن الخامس عشر الهجري الذي كان يعيش بين علماء القرن الرابع الهجري، فلله دره.

وخلاصة القول أن أبا إسحاق الإصطخري حاول بكل مايملك أن يصحح الأخطاء الجغرافية التي وقع فيها علماء الجغرافية السابقين له، علما أنه كان من المعجبين بكتاب البلخي في الجغرافية واعتبره من المصادر الأساسية عند تأليفه كتاب (المسالك والممالك).

تميزت مؤلفات الإصطخري في حقل الجغرافية بالوضوح وسلاسة الأسلوب، فكان مولعا بقراءة كتب الجغرافية، فهذه القراءة خلقت عنده الملكة العظيمة للكتابة في هذا المجال.

لقد فهم الإصطخري بكل دقة منهج علماء العرب والمسلمين في مجال علم الجغرافية، وطبقه تماما في مؤلفاته، لذا اتسمت مؤلفاته بالدقة والاستنباط الذكي. فاستخدم منهج علماء العرب والمسلمين في ميدان علم الجغرافية وبهذا عرف الإصطخري أصول المنهج العلمي التجريبي القائم على القياس والاستقراء والمستند على المشاهدة والتجربة والتمثيل.

اشتهر أبو إسحاق الإصطخري بالإنصاف لمن سبقه من علماء الجغرافية. كما اتصف بالصدق والأمانة العلمية وتقوى الله، في قول كلمة الحق ـ فهو العالم

الذي لايخاف في الحق لومة لائم. كم نحن في هذه الأيام بحاجة لعلماء في العلوم التجريبية يتصفون بالصفات الحميدة التي تحلى بها الإصطخري، وهي المثابرة وحب العمل الخلاق والمفيد ليس فقط للأمة الإسلامية ولكن للإنسانية.

نعم لقد وصلت البحوث الجغرافية في عهد الإصطخري النضج، لأنها كانت بحوث أصيلة مبنية على الاختيار الشخصي والمعرفة المكتسبة من السفر والتنقل بين أقطار المعمورة.

محمد الوراق

هو محمد بن يوسف الوراق يكنى بأبي عبدالله ويلقب بالقيرواني وفي بعض الأحيان بالتاريخي أصله من وادي الحجارة بالأندلس ولد سنة٢٩٢ هجرية وتوفي في قرطبة سنة ٣٦٣ هجرية. نشأ وترعرع أبو عبدالله الوراق في القيروان فتلقى تعليمه هناك حيث درس على يد كبار المفكرين في علمي التاريخ والجغرافية فنبغ فيهما لذا يعتبره المؤرخون للحضارة العربية والإسلامية من الصف الأول لمؤرخي وجغرافيي بلاد المغرب والأندلس ومن هنا جاء لقبه التاريخي لأنه انشغل في هذا الميدان كثيرا وحظي بمكانة مرموقة بين معاصريه.

لقد كان أبو عبدالله الوراق دبلوماسيا واسع الثقافة ليس فقط في علمي الجغرافية والتاريخ ولكن في العلوم الأخرى فقد نال تقدير ثاني خلفاء بني أمية في الأندلس الحكم المستنصر لذا ترك القيروان وقدم إلى مدينة قرطبة التي كانت مكتظة بجهابذة العلوم المختلفة وبقي هناك من أقرب الناس إلى حكام الأندلس.

ذاع صيت أبي عبدالله الوراق بين زملائه بأنه الخبير المتمكن بأحوال القارة الأفريقية وخاصة شمالها. فكتب كتابه (مسالك إفريقية) وممالكها وبقي هذا الكتاب المصدر المعتمد في كل من تاريخ وجغرافية القارة الأفريقية (ردحا من الزمن لما يحمل بين دفتيه من معلومات في غاية الأهمية).

وينوه حسين مؤنس في كتابه تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس أن كلا من أحمد العذري الدلائي ٣٩٣-٧٤٦هجرية وأبي عبيد الله البكري ٤٣٣-٤٨٧هجرية قد اقتبسا كثيرا من معلومات الجغرافية من نتاج العالم الجغرافي الأندلسي الكبير أبي عبدالله الوراق فلله دره. وأضاف حسين مؤنس أن أبا عبدالله

الوراق أول من كتب في الغرب الإسلامي كتابا بعنوان المسالك والممالك وهكذا نرى أن أول جغرافي أندلسي أحمد الرازي ٢٧٤-٣٤٤ هجرية كان بلدانيا في حين أن ثاني جغرافي كتب في الأندلس الوراق كان مسالكيا.

ولايفوتنا في هذا المكان أن نعرض تلميحا قدمه حسين مؤنس في كتابه آنف الذكر أن أبا عبدالله الوراق كان من المهتمين في أنساب البربر والاشتغال بالتأليف فيها فله كتاب (أنساب البربر) وكان مصنفا جيدا ينم عن خبرة ممتازة بالتأليف في هذا الميدان.

اعتكف أبو عبدالله على التأليف فقد كتب كتابات رائعة عن أخبار كل من تبهرت ووهران وتنس وسجلماسة ونكور وبصرة المغرب وغيرها واستطاع بطريقة فنية أن يبرز معالم هذه المدن التاريخية العريقة والكثير من جغرافيي ومؤرخي العرب والمسلمين استفادوا من المعلومات التي دونها أبو عبدالله الوراق في هذا الصدد.

ونال أبو عبدالله الوراق شهرة عظيمة في كتابه الضخم الذي صنفه عن أخبار ملوك وحروب أفريقية حيث صار هذا الكتاب كتابا منهجيا في مجال علم التاريخ لأن الوراق بحكمته وعمله حاول حصر المعلومات التاريخية بكل دقة وإتقان عن القائمين على أمور المقيمين في شمال إفريقية خاصة والقارة الإفريقية بوجه عام.

ومما يؤسف له أن معظم نتاج أبي عبدالله الوراق قد ضاع لكن أبا عبيدالله البكري حفظ لنا في كتابه (المسالك والممالك) مايتعلق بمسالك القارة الأفريقية ونسبه بكل أمانة وصدق لأبي عبدالله الوراق، أما المادة التاريخية التي تحدث عنها الوراق فقد اختصرها اختصارا جيدا أحمد العذري الدلائي وخزنها في كتابه (البيان المغرب) فلهما الشكر والتقدير.

وخلاصة القول أن أبا عبدالله الوراق عاش فترة كان الحكم المستنصر الأموي من أعظم المشجعين للعلماء والباحثين فقد جمع مدرسة جغرافية كبيرة احتوت على كبار المفكرين في الجغرافية والتاريخ وأخذ هذا الخليفة العاقل يجمع نتاج علماء اليونان والرومان فيأمر بترجمتها حيث صارت مكتبة الدولة مليئة بالكتب المترجمة والمؤلفة ومرجعا لطلاب العلم الباحثين الذين يأتون إليها من كل فج. ومما شجع أبا عبدالله على المثابرة على الدراسة التامة أن الدولة لايمكن أن تصل إلى مستوى

حضاري بدون العلم ونتيجة لاجتهادات أبي عبدالله الوراق النابغة في علمي الجغرافية والتاريخ استطاع أن يبتكر طريقة علمية لمزج الجغرافية والتاريخ ولهذا يعطي الكثير من المؤرخين للحضارة العربية والإسلامية هذا الحق لأبي عبدالله الوراق وبقى المنهج متبعا مدة طويلة من الزمن.

ولايخفى على القارىء أن الدراسات الحديثة ترى من الأفضل فصلهما لأسباب تربوية ليس هنا مكان عرضها والمعروف أن أول من أوصى أيضا بفصل الجغرافية عن علم التاريخ هم علماء العرب والمسلمين.

والحقيقة أنه من الصعب الكتابة عن نابغة كأبي عبدالله الوراق الذي لم يعطه المؤرخون والجغرافيون حقه من البحث والتنقيب والاستقصاء فلم أر من الكتب التي تهتم بموضوع التراث العلمي العربي والإسلامي من ذكره اللهم إلا حسين مؤنس على كل حال أرجو من الله أن أكون قد قدمت خدمة لهذا العالم الجليل الذي يعتبر بحق من العلماء الأوائل الذين أرسوا قواعد الجغرافية.

ابن حـــوقل :

هو محمد بن علي البغدادي الموصلي يكنى بأبي القاسم ويلقب بابن حوقل، لانعرف متى ولد ولكن الثابت أنه توفي بالأندلس بعد سنة ٣٦٧هجرية. الحقيقة أننا لانعرف إلا القليل عن حياته العلمية، نما ابن حوقل وترعرع في بغداد وتلقى تعليمه على يد جهابذة الفكر هناك إلا أنه غادرها سنة **٣٣١** هجرية متجها إلى المغرب ثم إلى صقلية لكي يتم له الاتصال بكبار علماء الجغرافية في الجزء الغربي من الأمة الإسلامية.

كان أبو القاسم ابن حوقل مولعا بقراءة كتب الجغرافية والتاريخ لذا رأى أن يتخذ من التجارة مهنة له لكي يسافر إلى معظم بلاد العالم فيدرس العادات والتقاليد والمسالك والممالك.

نبغ ابن حوقل في علم الجغرافية وصارت له آراء ونظريات تختلف تماما عن آراء ونظريات معاصريه والسابقين له وقد اشتهر في ميدان رسم الخرائط حيث كان مستقلا تماما عن السابقين له من العلماء في هذا المجال فمؤلفاته في حقل علم الجغرافية تحتوي على معلومات أصيلة اكتسبها من رحلاته المتكررة التي دامت أكثر من ثلاثين عاما حيث زار كلا من مصر وبلاد الشام والعراق والجزيرة العربية

وإيران وأرمينيا وصقلية وآسيا وبلاد البلغار والأندلس وغانة وغيرها.

وهناك نسخة لكتاب صورة الأرض لابن حوقل في مكتبة ليدن تحمل عنوان (كتاب المسالك والممالك والمفاوز والمهالك) وأخرى وهي المنقحة بعنوان (صورة الأرض) في نفس المكتبة ومما لاشك فيه أن الاسم الصحيح هو (صورة الأرض) لأنه الاسم الذي تناقلته كتب التراجم المشهورة في هذا الميدان.

قام المستشرق دي جويه بتحقيق كتاب (صورة الأرض) لابن حوقل في ليدن بهولندا سنة ١٣٩٠هـ ثم أعاد كريمر طباعته في مجلدين سنة ١٣٥٧ هجرية أما المستشرق الإنجليزي أوسلي فقد قام بترجمته إلى اللغة الإنجليزية في لندن سنة ١٢١٥ هجرية وطبع في بيروت مؤخرا بواسطة دار مكتبة الحياة فصار في متناول الباحثين في المشرق والمغرب.

لقد امتاز منهج ابن حوقل عن غيره من علماء الجغرافية بأنه اعتمد على معرفته الشخصية المكتسبة من أسفاره ولقاءاته بعمالقة الفكر الجغرافي لذا ظهر نتاجه في هذا المجال متكاملا وخاصة مايخص بلاد الإسلام من حيث طبيعة الأرض والمحصولات الزراعية والحياة الاجتماعية في الحواضر والأرياف.

ويذكر الدومييلي في كتابه (العلم عند العرب وأثره في تطوير العلم العالمي) أن ابن حوقل نبغ في علم الجغرافية، لذا طلب الإصطخري منه تنقيح كتابه (المسالك والممالك) وتميز مؤلف ابن حوقل (صورة الأرض) بأنه اشتمل على خريطة خاصة لكل إقليم تحدث عنه وهذه الخرائط يمكن أن تسمى بدون أدنى مبالغة أطلس العالم الإسلامي.

لقد سيطر على ابن حوقل حب الاستطلاع ومعرفة المجهول منذ نعومة أظفاره فهو العالم المحقق الذي استخدم الطرق التجارية للحصول على المعلومات العلمية فجاب معظم أجزاء العالم وقدم دراسة علمية أصيلة عن المسافات والبحار والأنهار والجبال وخواص البلدان التي زارها.

كان ابن حوقل من المعجبين جدا بمدينة قرطبة فيصفها في كتابه صورة الأرض وصفا أدبيا يدل على ذوقه الرفيع فيقول: «وقرطبة مدينة ذات سور من حجارة ومحال حسنة رحاب فسيحة وفيها لم يزل ملك سلطانهم قديما مساكنه وقصره من داخل سورها المحيط بها وأكثر أبواب قصره من داخل البلد من غير جهة بابان

يشرعان في نفس سور المدينة إلى الطريق الآخذ على الوادي من الرصافة ومساكن أعالي ربضها متصلة مبانيها بربضها الأسفل وأبنيتها مشتبكة مستديرة على البلد من شرقه وشماله وغربه فأما الجنوب منه فهو إلى واديه وعليه الطريق المعروف بالرصيف والأسواق والبيوع والخانات والحمامات ومساكن العامة بريفها ومسجد جامعها جليل عظيم في نفس المدينة والحبس منه قريب وقرطبة بائنة بذاتها عن مساكن أرباضها غير ملاصقة لها والمدينة قريبة المحال ودرت بسورها غير يوم في قدر ساعة وهي نفسها مستديرة حصينة السور من حجر».

وخلاصة القول أن ابن حوقل اشتهر فزار العالم الإسلامي رغبة منه في نيل المال عن طريق التجارة فحصل على ذلك وجمع من الكتب الجغرافية الثمينة الكثير فاستفاد من المال ببناء مكتبة يعتمد عليها في بحوثه الجغرافية لذا فكتابه (صورة الأرض) يمتاز عن غيره من كتب الجغرافية لما يحتويه من الأفكار الأصيلة التي لم يسبقه إليها أحد.

كانت صلة ابن حوقل بسيف الدولة الحمداني (المتوفى سنة ٣٥٦ هجرية) قوية جدا فساعده بأن حصل على معظم مراجعه العلمية في مجال علم الجغرافية، والجدير ذكره أن ابن حوقل كان من التجار الذين حازوا على ثقافة عالية ومتنوعة فكان يعتقد أن الرحلات هي الوسيلة الوحيدة لدراسة خصائص الأقاليم وطبائع الشعوب المختلفة على الطبيعة.

يتضح للقارىء أن ابن حوقل كان سياسيا امتهن التجارة ليس إلا لتوصله إلى قادة الفكر في ميدان علم الجغرافية في العالم الإسلامي وعندما نقرأ (صورة الأرض) نستشف أنه صهر نتاج أسلافه في علم الجغرافية في بوتقة واحدة بعد إضافاته الجوهرية لذا كان كتابه هذا عبارة عن موسوعة في الجغرافية التاريخية.

ومن أراد أن يعرف مكانة ابن حوقل الجغرافية فعليه أن يرجع إلى فصول كتابه (صورة الأرض) الخاصة بالجناح الغربي من العالم الإسلامي فقد أبدع في ذلك حيث قدم معلومات نادرة وأصيلة لبلاد المغرب العربي والأندلس بأسلوب سهل وسلس وممتع.

وقد اهتم ابن حوقل بشكل خاص في جغرافية بلاد الإسلام فركز على العادات والتقاليد فيها وابتعد عن القصص الخيالي والعجائب والغرائب فقد كان

متمسكا بالمنهج العلمي الدقيق الذي يستند على المشاهدة والاستنباطات العلمية والاستقراء المنطقي لذا حرص علماء الجغرافية في بلاد الغرب على ترجمة كتاب (صورة الأرض) لابن حوقل لما يحتويه من معلومات ثمينة عن العالم الإسلامي فلله در ابن حوقل وجعله قدوة حسنة لشباب الأمة العربية والإسلامية.

الجيهاني:

هو أحمد بن محمد بن نصر الجيهاني ويعرف بين زملائه بأبي عبدالله، لانعرف شيئا عن نشأته، ولكن الثابت أنه كان حيا سنة٣٦٧ لأنها السنة التي اعتزل فيها الوزارة.

قضى معظم حياته في فارس متنقلا بين مدنها. وسمى بالجيهاني نسبة لبلدة جيهان في مقاطعة خراسان التي تقع على شاطىء وادي خراسان هروز.

شغل الجيهاني الوزارة في بلاط الساسانيين في عهد الأمير إسماعيل وابنه أحمد اللذين حكما خراسان خلال الفترة مابين ٢٧٩-٣٩٥ هجرية لعلمه وحكمته كان الجيهاني رجلا فاضلا يحب الجدل والنقاش ويتقبل النقد بصدر رحب واشتهر بين زملائه بأدبه الرفيع وحفظه لروائع القول التي ورثها عن نوابغ علماء العرب والمسلمين.

اهتم أبو عبدالله الجيهاني بعلم التاريخ، فدرسه بطريق فلسفية توحي أنه يمتلك عقلية ثاقبة وثقافة واسعة، ويتضح ذلك من مؤلفه: (كتاب العهود للخلفاء وللأمراء) الذي ضمنه معلومات في غاية الأهمية عن الدولة العباسية من حيث مكانتها السياسية بين الأمم، وقد نوه محمد بن النديم في كتابه الفهرست عن هذا الكتاب.

اتصف أبوعبدالله الجيهاني بالذكاء والحذر، فكان لايكتب شيئا عن الممالك أو المسالك إلا ماسمعه من الثقات من الناس أو مارآه بالعين لذا كان يسأل دائما التجار والرحالة من المواطنين للحصول على معلوماته الجغرافية.

يذكر حاجي خليفة في كتابه (كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون) أن أبا عبدالله الجيهاني كان صاحب فلسفة ونجوم، فجمع الغرباء وسألهم عن الممالك ودخلها وكيف المسالك إليها ليتوصل بذلك إلى فتوح البلاد.

دون أبو عبدالله الجيهاني في كتابه (المسالك في معرفة الممالك) معلومات أصيلة عن الأقاليم السبعة المعروفة بين علماء عصره، كذلك تحدث بطريقة علمية بحتة عن الطرق شرقا وغربا وشمالا وجنوبا، ولذا أتى كتابه هذا يختلف تماما عن كتب علماء العرب والمسلمين السابقين له لأنهم كانوا يولون المدن الكبيرة جل اهتمامهم بينما أبوعبدالله الجيهاني يركز على الجوانب الجغرافية الهامة مثل المناخ والتضاريس والسكان والحالة الاجتماعية وقدم الجيهاني وصفا وافيا عن شبه القارة الهندية وأعطى شرحا مفصلا عن بلدان أواسط آسيا ولهذا ورد ذكر اسم كتاب (المسالك في معرفة الممالك) للجيهاني في مؤلفات علماء العرب والمسلمين في حقل علم الجغرافية كثيرا، لقد كان أبو عبدالله الجيهاني من المعجبين جدا بكتاب الخراج وصنعة الكتابة لأبي الفرج قدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣٠٢ هجرية، لهذا ألف كتابا في هذا المجال نهج فيه منهج قدامة بن جعفر فخرج كتابه عن الخراج يحمل بين طياته معلومات جديدة وموثقة بالمراجع التي لم يستطع قدامة بن جعفر الحصول عليها ولايخفى على القارىء أن مركز الوزير الجيهاني مكنه من اقتناء المعلومات الضرورية عن الخراج.

بقى كتاب الخراج لأبي عبدالله الجيهاني من المصادر الهامة لعلماء الجغرافية وقد استفاد به علماء العرب والمسلمين في مصنفاتهم في هذا المجال لما يحتوى من معلومات فريدة من نوعها.

ولأبي عبدالله الجيهاني كتاب هام جدا سماه (كتاب رسائل) وهذا الكتاب خصصه لخبرته في الوزارة، وعلاقة الدولة العباسية السياسية في باقي الدول لذا صار هذا الكتاب وثيقة للفترة التي قضاها الجيهاني كوزير في بلاط الساسانيين وهي قرابة ست عشرة سنة.

وخلاصة القول أن أبا عبدالله الجيهاني قد حرص أن يؤرخ لكل حادثة أو ظاهرة من الظواهر لكي يستفيد الباحثون في مجال علمي الجغرافية والتاريخ منها.

لقد تحمل الجيهاني عناء ومشقة السفر إلى معظم أقاليم الدولة العباسية ليكون عينا على أعمال الجباية للخليفة وعلى أمور الدولة المالية وغيرها فأكسبه ذلك خبرة عظيمة في الطرق ومقاساتها وأحوال الناس وطريقة التخاطب معهم لذا كان نتاجه في علم الجغرافية متكاملا.

والمعروف أن الدولة العباسية اهتمت بالخراج اهتماما بالغا، لذا فإن معظم الباحثين من علماء العرب والمسلمين كتبوا في ميدان الخراج لعلاقته بعلم الجغرافية ولكن أباعبدالله الجيهاني أبدع ولمع في هذا.

من ذلك يتضح أن الجيهاني لم يكتف بالسماع والنقل من بطون الكتب كمصادر لمعلوماته الجغرافية والتاريخية، بل إنه زار معظم البلدان التي كتب عنها لهذا صار لديه نظرة ثاقبة صحح الأخطاء التي وقع فيها غيره من العلماء.

إن مؤلفات أبي عبدالله الجيهاني تميزت بأنها أعطتنا فكرة جيدة وواضحة المعالم عن مكانة بعض العائلات وكبار رجال الدولة في العصر العباسي الأول كما أنها احتوت على الخرائط الكثيرة التي توضح الأقاليم الإسلامية بكل دقة وعناية.

انفرد أبو عبدالله الجيهاني بأسلوب بحثه الرقيق والدقيق، فقد حرص كل الحرص على فحص وتمحيص كل مايدونه من مؤلفاته لذلك قدم لنا وصفا موثقا بالمصادر الأولية والثانوية المعروفة بطرق ومسالك البلدان في الدولة العباسية وبقيت مصنفاته من المراجع التي لايستغني عنها باحث في كل من علم الجغرافية وعلم التاريخ.

سليمان البحـــار

لانعرف كثيرا عن حياته إلا أنه من كبار الملاحين العرب والمسلمين في القرن الثالث الهجري والمتواتر أنه دون رحلته الشهيرة سنة ٢٣٦هجرية وعلق عليها أبوزيد حسن السيرافي وسماها (سلسلة التواريخ) بعده بعدة سنوات.

يذكر مختار القاضي في كتابه (أثر المدنية الإسلامية في الحضارة الغربية) أن سليمان التاجر أبحر من مرفأ سيراف الواقع على الخليج العربي حيث كانت المراكب الصينية كثيرة وجاوز المحيط الهندي ووصل شواطىء بلاد الصين وكتب رحلته سنة ٢٣٦ هجرية ثم ذيلها وأضاف بعض الأفكار عليها أبو زيد حسن السيرافي سنة ٢٦٧هجرية.

وأضاف حسين فوزي في كتابه (حديث السندباد القديم) أن رحلة سليمان التاجر تحتوي على معارف في غاية الأهمية عن المحيط الهندي وبحر الصين. وتعتبر هذه الرحلة أهم الرحلات التي قام بها ملاحو الأمة العربية والإسلامية في

القرن الثالث الهجري عبر المحيط الهندي.

ومما لاشك فيه أن رحلة سليمان التاجر تمتاز عن غيرها من الرحلات أنها تحمل معلومات أصيلة وصادقة عن الطريق البحري الذي يربط البلدان العربية والإسلامية بالهند والصين لذا اعتنى التجار والجغرافيون بهذه الرحلة الميمونة.

عندما شرع سليمان البحار بتدوين رحلته نوه بالعلاقات الدبلوماسية والتجارية بين الأمة العربية الإسلامية والصين حيث كان التبادل التجاري والسياسي على أحسن مايرام بينهما في القرن الثالث الهجري.

يلمح زكي حسن في كتابه (الرحالة في العصور الوسطى) أن رحلة سليمان التاجر أمدت الباحثين في هذا الميدان بمعارف ضرورية حول الطرق التجارية والعادات والنظم الاجتماعية والاقتصادية والمنتجات الصناعية والمحصولات الزراعية والمناخ والتضاريس لبلدان الشرق.

أولى سليمان التاجر عناية خاصة لموضوعي الطقس والرياح اللذين يؤثران عادة على الملاحة البحرية فقد رصد آراءه وأفكاره عنهما في كتابه (رحلة سليمان التاجر) كما استخدم سليمان البحار البوصلة والأسطرلاب بطرق علمية في رحلته البحرية.

توجد رحلة سليمان التاجر في المكتبة الأهلية بباريس، لذا قام المستشرق لانجليس بطبعها سنة ١٢٢٦ هجرية ثم نشرها المستشرق الفرنسي رينو باللغة الفرنسية سنة ١٢٦١هجرية، أما المستشرق الفرنسي جبراييل فران فقد درس رحلة سليمان التاجر مع ملاحظة أبي زيد السيرافي ونشرها سنة ١٣٤١هجرية باللغة الفرنسية وهكذا عرفنا شيئا عن البحار العربي سليمان البحار ومكانته في مجال فن الملاحة.

يذكر الدوميلي في كتابه (العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي) أن أدب الأسفار والرحلات بدأ في أواسط القرن الثالث الهجري على يد سليمان التاجر والمعروف باسم سليمان البحار، فهو الذي راقه بعد أن ملك الخطوط البحرية من الهند إلى الصين أن يعرفنا بالبلدان التي زارها وأن يصف لنا العادات والتقاليد التي أدهشته بكل صدق وأمانة.

يحتوي كتاب (رحلة سليمان التاجر) على معلومات وبيانات عن حركة الرياح

والأنواء والأمواج وطريقة تفاديها كما تحدث عن الشاي وكيف كان الصينيون يستهلكونه.

ويصف أغناطيوس كراتشكوفسكي في كتابه (تاريخ الأدب الجغرافي العربي) رحلة سليمان التاجر وصفا دقيقا فيقول سافر التاجر سليمان مرارا بغرض المتاجرة إلى الهند والصين ويصف الطريق بدرجة من الدقة مكنت جبرييل فران من أن يتتبعه على الخارطات الحديثة وهو خير مثال للتجار العرب والفرس الذاهبين إلى الصين.. ولم يقتصر التاجر سليمان في وصفه على مراحل الرحلة بل ترك أيضا وصفا حيا للسواحل والجزر والموانىء المختلفة والمدن وسكانها والمحاصيل والمنتجات وسلع التجارة.

وخلاصة القول لقد تمكن سليمان البحار من وصف الطريق البحري من سيراف (البلدة التي تقع في منتصف الساحل الشرقي من خليج البصرة) إلى الصين بأسلوب جيد لا إطناب ولا استطراد فيه لذا لاغرابة أن تكون هذه الرحلة هي المصدر الأول لعلوم البحار في العالم العربي والإسلامي.

لقد استطاع سليمان البحار أن يتحدث بطريقة علمية مذهلة عن صفات البحر وأنوائه وأعاصيره مما يدل على غزارة علمه وسعة ثقافته ليس فقط في علوم البحار ولكن في علمي الجغرافية والتاريخ.

لقد وضع سليمان البحار جداول لوقت الإبحار في المحيط الهندي لأنه معروف أن هناك بعض الفصول في السنة يكون الماء في المحيط هائجا لذا لاعجب أن ينعت بحارة العرب والمسلمين بزعماء الملاحة في المحيط الهندي وبحر الصين.

تميز سليمان البحار ببيانه الرائع وأسلوبه المصقول لذا اشتهر عبر العصور بأسلوب وببراعة القصة مما جعل العلماء في المشرق والمغرب يندفعون لدراسة رحلته المشهورة فهو بلا ريب الذي أشعل قبس علم الملاحة العربية وهو الذي أزال الاعتقاد الخاطىء عند الغرب أن العرب لايعرفون إلا القليل عن البحار، فلله دره وأكثر من أمثاله.

المســعودي

هو علي بن الحسين بن علي المسعودي، ويكنى بأبي الحسن، ويلقب بكل من

المؤرخ وبلينوس الشرق، ولد في مدينة بغداد حوالي سنة ٢٨٧هجرية وتعلم وترعرع هناك، وتوفي في القاهرة سنة ٣٤٦ هجرية، من ذرية الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود فهو ينحدر من عائلة عربية أصيلة.

اشتهر برحلاته الكثيرة، فهو من كبار علماء الجغرافية. لقد عاصر المسعودي كلا من المكتفي بالله والمقتدر والمرتضى بالله، وكتب عن المعتضد بالله كتابة رائعة، بل جعله من أعظم خلفاء بني العباس.

يقول المسعودي عن المعتضد بالله في كتابه (مروج الذهب ومعادن الجوهر - المجلد الرابع) «ولما أفضت الخلافة إلى المعتضد بالله سكنت الفتن، وصلحت البلدان، وارتفعت الحروب، ورخصت الأسعار، وهدأ الهيج، وسالمه كل مخالف، وكان مظفرا قد دانت له الأمور، وانفتح له الشرق والغرب، وأديل له في أكثر المخالفين عليه والمنابذين له».

زار معظم أجزاء الدولة الإسلامية، فكان المسعودي عبر رحلاته الطويلة واعيا، حيث سجل ماشاهده وماسمعه وماقرأه، لذا خرجت مؤلفاته كاملة على شكل دائرة معارف ليس فقط في الجغرافية، ولكن في معظم فروع المعرفة.

لقد عالج المسعودي الموضوعات المختلفة في علمي الجغرافية والتاريخ معالجة العالم المتمكن صاحب البصيرة الثاقبة والملاحظة النيرة الناقدة، لذا نراه فتح آفاقا جديدة للباحثين في هذين المجالين.

فسر المسعودي بكل جدارة حركتي المد والجزر، وتكلم عن بعض الظواهر الطبيعية كالرياح الموسمية في المحيط الهادي ومواعيد هبوبها. وكان يعتقد بكروية الأرض وبالغلاف الغازي المحيط بها.

ولايخفى على القارىء أن معظم مؤلفات المسعودي لاتخلو من الحقائق الجيولوجية فهو من علماء العرب والمسلمين الذين اهتموا بهذا الجانب اهتماما بالغا. وللأسف الشديد أن مؤلفه الذي يعتبر خلاصة نتاجه في مجال علوم الأرض ضاع ولم يبق منه إلا نتفاً قليلة جدا.

استطاع المسعودي أن يبتكر منهجا جديدا في مؤلفاته الكثيرة التي بلغت خمسة وثلاثين مؤلفا مثل علم الاجتماع والاقتصاد والسياسة، واستمر هذا التقسيم مدة طويلة من الزمن، إلا أنه في الآونة الأخيرة فصل علم الجغرافية عن علم التاريخ

وذلك لكثرة الحوادث والمشاكل التي تراكمت عبر العصور.

وخلاصة القول فقد أخذت رحلات المسعودي العلمية قرابة ربع قرن جاب فيها المدن والأمصار فلم يتقلدْ المسعودي منصبا إداريا في حياته، بل تفرغ للبحث والتحقيق، فكان فاضل زمانه، وعالم وقته، وتخرج على يده وكتبه عدد كبير من طلاب العلم. ولكن مع شديد الأسف فإن معظم علماء الغرب شوهوا نتاجه، فكم من حقائق لم تذكر، وكم من حوادث نقلت على غير حقيقتها؟ وكم من كتبه ليس لها وجود في الوقت الحاضر؟

إن المتبصر عندما يقرأ في كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي لايسعه إلا أن يندهش من تنوع المواد التي كتب فيها، وتقصيه الكامل للمعلومات التي لها علاقة في علمي الجغرافية والتاريخ. فلم يهمل المصادر التي استفاد منها في تصنيف كتبه، بل نوه عن مؤلفيها وشكرهم ومنهم على سبيل المثال: ابن قتيبة الدينوري والطبري ونفطويه والصولي وقدامة بن جعفر وغيرهم.

كان المسعودي ناقدا متميزا، ويظهر ذلك عندما قدم ملاحظات قوية حول كتاب الجاحظ الذي يخص البلدان والأمصار، الذي ألفه دون عناء السفر، ولكنه في نفس الوقت شكر الجاحظ لتوجيهه إلى دراسة أحوال البشر والأقاليم، لذا يمتاز المسعودي بالأصالة لغزارة علمه وبسمو أخلاقه وتواضعه.

إن المسعودي صورة صادقة للمواطن المخلص لوطنه، فكان دائما يحن ويتذكر مسقط رأسه بغداد، على الرغم من أنه كان شخصية عالمية مرموقة. وهكذا يجب أن يكون الإنسان معتزا بنفسه ووطنه مع تواضع العلماء.

يختلف منهج المسعودي في التأليف عن أستاذيه الطبري الذي كان يعتمد على التاريخ بالسنين وعن اليعقوبي الذي كان يركز على الشخصية التاريخية. لذا نرى المسعودي جمع بين منهج كل من الطبري واليعقوبي مع التركيز على الموضوع وبلورة خبرته العلمية والتحليل التاريخي وتقصي دوافع الأحداث ونقدها النقد البناء. لقد كان ولايزال كتاب (مروج الذهب ومعادن الجوهر) معلمة جغرافية غزيرة ومفيدة وذلك لأن المسعودي دون ملاحظاته ومشاهداته الشخصية التي حصل عليها من زياراته لمعظم بلدان العالم من الهند إلى المحيط الأطلنطي ومن البحر الأحمر حتى بحر قزوين، ومن المحتمل جدا أنه وصل الصين وأرخبيل

الملايو.

لقد تميز نتاج المسعودي بالأصالة والدقة والأمانة العلمية، لذا نرى علماء العصر الحديث في كل من الجغرافية والتاريخ ينعتونه بألقاب عديدة تدل على مكانته العلمية العالية، كما نال إعجاب المؤرخ الفرنسي الكبير أرنست رينان وغيره من كبار المؤرخين والجغرافيين في العالم، فلله در المسعودي.

مسعر بن المهلهل

هو أبو دلف مسعر بن المهلهل الخزرجي الينبعي، لانعرف بالضبط متى ولد ولا متى توفي ولكن الثابت أنه ولد بمدينة ينبع القريبة من المدينة المنورة، وأنه كان في شبابه سنة ٣٣١هجرية لذا فهو من علماء القرن الرابع الهجري.

يخلط الكثير بين صاحب الترجمة وأبي دلف العجلي المتوفى سنة٢٢٦ هجرية ببغداد والذي اشتهر بشجاعته وكرمه وفضله على الأدباء المعاصرين له، كان أحد قواد الخليفة العباسي المأمون ثم المعتصم من بعده. ومن آثاره : كتاب سياسة الملوك وكتاب السلام.

كان أبو دلف الينبعي من كبار أدباء الحضارة العربية والإسلامية فقد امتدحه الثعالبي في كتابه (يتيمة الدهر) وذكر أن كبار الأدباء ينوهون عن مكانته الأدبية والتاريخية، فهو بحق من شعراء العرب والمسلمين الملهمين.

يذكر نفيس أحمد في كتابه (الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي) أن أبا دلف مسعر بن المهلهل الخزرجي الينبعي كان شاعرا للبلاط عند الأمير الساماني نصر بن أحمد بن إسماعيل طوال الفترة مابين سنة ٣٠١-٣٣١ هجرية. كما أنه من المقربين للأمير فقد أرسله في عدد كبير من البعثات حول العالم لعلمه وحكمته، فاستغل أبودلف الفرصة أحسن استغلال، وذلك بأن جمع مادة كتابه (عجائب البلدان) من المصادر الأولية.

أبدع أبودلف الينبعي في الكتابة عن القبائل التركية إبداعا عظيما فصار نتاجه في هذا الموضوع من أبرز المعلومات التي اعتمد عليها الباحثون الأولون.

أعطى المستشرق وستنفلد من علماء القرن الثالث عشر الهجري أهمية عظيمة لدراسة أبي دلف الينبعي الأصيلة عن القبائل التركية الذي دونها في كتاب

(عجائب البلدان)، ولهذا صار العلماء يتناقلون هذه المعلومات بينهم لصحتها.

زار أبو دلف الينبعي الهند والصين وأفغانستان وسجستان زيارة العالم الذي يبحث وينقب ويستقصي المعلومات الصادقة فكتب ماتوصل إليه في كتابه المعروف (عجائب البلدان) الذي بقى ردحا من الزمن المصدر الجغرافي الفريد من نوعه في هذا المجال.

يذكر الدوميلي في كتابه (العلم عند العرب وأثره في تطوير العلم العالمي) أن أبا دلف الينبعي امتاز عن غيره من علماء العرب والمسلمين أنه كان يرصد جميع مايرى وما يسمع من زملائه أصحاب الخبرة العلمية لذا كتب بلغة واضحة وسهلة أخبار رحلاته إلى الهند والصين ولاسيما أخبار رحلاته عبر التبت إلى الهند الجنوبية، قاطعا كشمير وأفغانستان وسجستان ولا ريب أن كل ذلك يستحق التقدير والإعجاب والإكبار.

كتاب (عجائب البلدان) لأبي دلف الينبعي ترجم إلى عدد كبير من اللغات، وصار علماء الغرب والشرق يتناقلونه بينهم لما يحتويه من معلومات جغرافية وتاريخية صحيحة. ودقيقة كما أن أبادلف الينبعي ذاع صيته بين رفاقه بأمانته العلمية واستناده على المصادر الدامغة والموثوق بها.

درس أبودلف الينبعي بكل دقة وإمعان المعلومات الجغرافية التي تتعلق بالحدود والمدن والمواصلات والمحاصيل الزراعية والتجارية والصناعية. واستطاع بكل جدارة أن يستخلص من ذلك آراء جديدة لم يسبقه إليها أحد فهو نابغة زمانه دون منازع لذا لاعجب أن نرى أمثال ياقوت الحموي والقزويني ينهلان من كتاب (عجائب البلدان) لأبي دلف الينبعي.

وخلاصة القول لقد قام عدد كبير من علماء العرب والمسلمين برحلات لمعظم أنحاء العالم ولكن القليل جدا الذي كتب شيئا يذكر عن هذه الرحلات، علما أن الكثير من المعلومات الجغرافية والتاريخية كان مصدرها الرحلات والشعر.

وهكذا فإن أبادلف الينبعي استفاد من رحلاته وتجواله حول العالم فجمع لنا ثروة جغرافية لاتقدر بثمن اكتسبها من مشاهداته وتجاربه الميدانية وسماعه للخبراء في حقل الجغرافية.

كان أبو دلف الينبعي محل احترام وتقدير كبار العلماء والمؤرخين بالعالم، فقد

اعترف بفضله كل من الدوميلي وجورج سارتون وستنفلد ونفيس أحمد وغيرهم ووضعوه في الصف الأول من رواد الفكر الجغرافي في الحضارة العربية والإسلامية.

فكتاب عجائب البلدان لأبي دلف الينبعي يعتبر أثرا خالدا في مجال علم الجغرافية لأنه يحمل بين طياته أفكارا جغرافية نادرة وخطيرة فقد علق وصحح معظم الأخطاء التي وقع فيها من سبقه من علماء العرب والمسلمين الأوائل فهو ناقد صريح لاغموض عنده ولاالتواء مستقل في آرائه فلله دره.

هل يعرف أساتذة المدارس والجامعات شيئا يذكر عن عالمنا أبي دلف الينبعي؟ هذا أمر خطير جدا أن أبناء جلدته لايعرفون مكانته العلمية في حقل علم الجغرافية لهذا أرجو من الله أن تكون هذه الترجمة المختصرة بادرة خير لدراسة أعمق لنتاج هذه النابغة.

إخوان الصفا وخلان الوفاء

هي مجموعة علمية ظهرت في أوائل القرن الرابع الهجري بمدينة البصرة على شكل أكاديمية علمية ولقد بذلت هذه المجموعة جهدا كبيرا بكتابة رسائلهم البالغة ٥١ رسالة في معظم المعارف التي كانت شائعة في عصرهم دون الإشارة إلى أسماء المؤلفين وقد انتشرت هذه الرسائل بين علماء العالم لما تحمل من معلومات جيدة في مختلف الفنون وخاصة علم الجغرافية.

يميل حاجي خليفة في كتابه (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون) إلى أن إخوان الصفا وخلان الوفاء هم أبو سليمان محمد بن نصر البستي المعروف بالمقدسي وأبو الحسن على بن هارون الزنجاني وأبو أحمد النهرجوري والعوفي وزيد بن رفاعة كلهم حكماء ولكن معظم المؤرخين للعلوم يصرون على عدم معرفة أسماء مؤلفي رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء.

اختارت مجموعة الأصدقاء هذه لنفسها اسم إخوان الصفا وخلان الوفاء من كتاب كليلة ودمنة الذي كان منتشرا في عصرهم والمأخوذ من باب الحمامة المطوقة منه. أن العاقل لايعدل بالإخوان شيئا، مما أعطاها نكهة خاصة لدى الجماهير لذا صار الناس في المشرق والمغرب يتسارعون على اقتنائها.

كتب إخوان الصفا وخلان الوفاء رسائلهم العلمية في سرية تامة فلم يعرف عنهم شيىء أبدا حتى عام ٣٣٤ هجرية وهي السنة التي أخرجوا فيها رسائلهم هذه للملأ كما أن هذا العام هو العام الذي انتصرت فيها الدولة البويهية واستولت على بغداد.

تبنت هذه المجموعة آراء علماء اليونان الفلسفية وحاولوا جاهدين أن يقربوا بين المنقول والمعقول في علم الفلسفة كما أنهم أبرزوا العلوم التجريبية في قالب فلسفي فأثبتوا كروية الأرض وتكوين السحب وظاهرة الزلازل والبراكين والغلاف الجوي وغيرها.

لإخوان الصفا وخلان الوفاء آراء حول الطبقات الجوية فقد نوهوا أن هناك ثلاث طبقات الأولى الأثير شديدة الحرارة والثانية الزمهرير شديدة البرودة والثالثة النسيم معتدلة الحرارة.

كما تحدث إخوان الصفا وخلان الوفاء عن المملكة النباتية وطوروا فكرة الجغرافية النباتية التي تلعب دورا مرموقا في الجغرافية الحديثة والآن البحوث في هذا الميدان على قدم وساق لاتساع رقعتها وأهميتها كما وصف إخوان الصفا وخلان الوفاء العلاقة القوية بين مواطن النبات والحيوان بطريقة سهلة مقبولة.

والمتواتر عن المؤرخين للعلوم أن إخوان الصفا وخلان الوفاء أول من تكلم عن النظرية الجيولوجية القائلة «إن البحر يتدفق على السهول والمراعي حتى تصير كالسيول بحارا ويصير البحر أرضا يابسة على مرور الأيام».

ويذكر شاكر خصباك في كتابه في الجغرافية العربية (دراسة في التراث الجغرافي العربي) أن رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء تضمنت إشارات متعددة إلى المفاهيم والآراء الجغرافية السائدة وتكشف آراؤهم الجغرافية عن تأثير شديد بالمفاهيم اليونانية والرومانية ولاسيما بآراء أرسطو وبطليموس وقد عنوا عناية خاصة بالجغرافية الطبيعية وقدموا شروحا على جانب كبير من الأهمية لبعض الظواهر الطبيعية والمترولوجية كالخسوف والكسوف والرياح والأمطار والبحار والزلازل والبراكين والحركات الجيولوجية.

أول من أدخل رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء إلى بلاد الأندلس أبو الحكم عمرو بن عبدالرحمن الكرماني المتوفى سنة ٤٥٨هجرية من أهالي قرطبة ومن كبار

المفكرين في العلوم الإسلامية فقد كان من المعجبين بما تحمل هذه الرسائل من علوم، لذا بذل كل غال ونفيس لكي تصل إلى مسقط رأسه بلاد الأندلس وبقيت هذه الرسائل من أهم المصادر العلمية للباحثين في مختلف فروع المعرفة وكانت الأندلس في ذلك الزمن أكثر البلدان حيوية وعلما وتقدما وازدهارا وكان العلماء الأوروبيون ينظرون إلى علماء العرب والمسلمين نظرة التلميذ إلى أستاذه حيث كانوا هم القدوة الحسنة لأوروبا كما كانت قرطبة مركز الإشعاع العلمي بجميع أنحاء أوروبا فطلاب العلم يأتون إليها من جميع أصقاع العالم للتتلمذ على يد جهابذة الفكر هناك، لهذا حرص الكرماني أن تكون رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء في بلاد الأندلس بأسرع وقت ممكن لما تحمل بين طياتها من معارف مفيدة وثمينة.

ظهرت رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء في برلين سنة ١٢٧٦هجرية باللغة الألمانية ثم قام مولوي على بتنقيحها ونشرها باللغة الهندوستانية في ليدن سنة ١٢٧٨ هجرية وفي سنة١٢٨١هـ كانت هذه الرسائل في مكتبات باريس باللغة الفرنسية وخرجت طبعة مصر سنة ١٣٤٧ هجرية ثم تولت طباعتها دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر وصارت متداولة باللغة العربية سنة ١٣٧٦ هجرية.

ويصف جمال الدين القفطي في كتابه (تاريخ الحكماء) رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء بإيجاز فيقول: «جامعة لأنواع المقالات على طريق الاختصار والإيجاز وهي مقالات مشوقات غير مستقصاة ولاظاهرة الأدلة والاحتياج وكأنها للتنبيه والإيماء إلى المقصود الذي يحصل عليه الطالب لنوع من أنواع الحكمة».

وخلاصة القول فإن رسائل إخوان الصفا وحلان الوفاء نالت ترحيبا من علماء الغرب والشرق على السواء لأنها تشتمل على معلومات علمية مبسطة لاتحتاج إلى متخصص ليفهمها ويحللها وهذا بالفعل ماقصده إخوان الصفا وخلان الوفاء من تصنيف هذه الرسائل.

والآن صارت رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء متداولة على نطاق واسع في العالم العربي والإسلامي فقد كتب عنها بطريقة حدبثة لبقة كل من جميل صليبا وعارف ثامر وعمر فروخ وغيرهم كما حصلت هذه الرسائل على اهتمام جيد في الأوساط الأكاديمية.

المهلبي

هو الحسن بن محمد المهلبي، ويعرف بأبي محمد، لانعرف شيئا عن نشأته، إلا أنه كان حيا سنة ٣٧٥هجرية، تلقى تعليمه على كبار المفكرين في مصر ونبغ في علم الجغرافية.

لقد وجدت أن بعض المؤرخين يخلطون بين صاحب الترجمة وعلي بن أحمد المهلبي اللغوي المتوفى في مصر سنة٣٨٥ هجرية والذي نال شهرة عظيمة في النحو واللغة والتاريخ وشرح الأشعار.

كان الخليفة الفاطمي العزيز بالله يحرص على مجالسة العلماء البارزين، وحيث إن أبا محمد المهلبي كان من هذا الصنف، لذا نال حظوة الخليفة، وصار من جلسائه الخاصين، مما دفع بالخليفة الفاطمي العزيز بالله أن يستوزره، ومن ذلك عرف المهلبي باسم الوزير.

استفاد أبو محمد المهلبي من علاقته بالخليفة الفاطمي العزيز بالله ببناء المدارس والمكتبات المتكاملة في مصر، حيث كانت مصر مركز الثقافة والمعرفة في العالم العربي والإسلامي.

كان الحسن المهلبي من أقرب الناس للخليفة الفاطمي العزيز بالله، مما دعاه إلى إرساله لبلاد السودان لدراسة أحوال الأهالي هناك وتقديم تقرير مفصل عن الحياة الاجتماعية والسياسية والطرق في السودان.

من ثم طلب الخليفة الفاطمي العزيز بالله من وزيره الحسن المهلبي أن يكتب كتابا مفصلا في علم الجغرافية عن العالم العربي والإسلامي، وبالفعل ألف كتابه المعروف باسم (كتاب العزيزي) لحسن المهلبي، وسماه بهذا الاسم تقديرا للخليفة الفاطمي العزيز بالله.

لقد تحدث الحسن المهلبي عن إقليم السودان بطريقة علمية مفصلة لم يسبقه إليها أحد فقد تناول النواحي الطوبوغرافية والاجتماعية والاقتصادية، مما جعل الكتاب العزيزي من المصنفات النادرة والمفيدة في هذا المجال. بقى هذا الكتاب المصدر الوحيد لمن أراد أن يكتب عن إفريقية وخاصة القطر السوداني.

يذكر آدم متز في كتابه (الحضارة الإسلامية) أنه في سنة٣٧٥ هجرية كتب الحسن المهلبي للخليفة الفاطمي العزيز بالله كتابا في الطرق والمسالك، وهو أول

كتاب يصف قطر السودان وصفا دقيقا جدا، وكان علماء الجغرافية في القرن الرابع الهجري لايعرفون من أخبار إقليم السودان إلا نتفا قليلة جدا لاتسمن ولاتغني من جوع.

أما نفيس أحمد فقد مدح الحسن المهلبي في كتابه (الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي) فقال: «المهلبي صاحب كتاب جغرافي هام عن السودان، ألفه للخليفه الفاطمي العزيز بالله سنة ٩٨٥م، ويعد هذا الكتاب رائد المؤلفات في بابه، وصار فيما بعد مصدرا أساسيا لياقوت الحموي فيما كتبه عن السودان في موسوعته معجم البلدان.

ويجب أن يعرف القارىء أن الحسن المهلبي ركز في كتابه (الكتاب العزيزي) على قطر السودان ولكنه لم يهمل البلدان العربية والإسلامية الأخرى، فقد تطرق لجزيرة العرب والعراق وقدم عرضا مفيدا لهما من حيث الحالة الطوبوغرافية وعدد السكان والمعابر البرية والبحرية. لذا نرى معظم المؤرخين والجغرافيين العرب والمسلمين اعتمدوا على نتاج المهلبي في ميدان علمي الجغرافية والتاريخ.

خلاصة القول أن من العوامل الهامة التي دفعت الوزير المهلبي إلى دراسة علم الجغرافية الفتوحات الإسلامية العظيمة التي جعلته بأشد الحاجة إلى معرفة البلدان المفتوحة من حيث الحالة الاقتصادية والسكانية والاجتماعية.

ظهر حب علم الجغرافية عند الحسن المهلبي في وقت، كان ذا مقام رفيع عند الخليفة الفاطمي العزيز بالله، فأحاطه بضروب من الرعاية والعناية، فأبدع المهلبي ولمع وصار يجمع معلوماته الجغرافية من المصادر الأولية بكل ثقة.

ميز أبو محمد المهلبي بين الصحيح والسقيم في مجال علم الجغرافية، لذا كان نتاجه في هذا الموضوع في غاية الدقة والإتقان. فكتابه (الكتاب العزيزي) كان عظيم الشأن عند جهابذة الفكر في علم الجغرافية أمثال ياقوت الحموي وأبو الفدا وغيرهما.

لقد اعتكف أبو محمد المهلبي على البحث والتنقيب والاستقصاء في ميدان علم الجغرافية خدمة للعلم والعلماء، ورغبة منه في كشف الحقيقة العلمية والوقوف عليها بنفسه. فلم يمنعه مركزه السياسي عن الدراسة والتحقيق، فقد كان أول من كتب عن قطر السودان كتابة تستحق التقدير ليس من أبناء جلدته

ولكن من علماء الإفرنجة.

أتعشم أن تكون هذه الترجمة الموجزة حافزا لأبناء الأمة العربية والإسلامية أن يدرسوا مكانة أبي محمد الغلمية ليس فقط في علم الجغرافية ولكن في علم التاريخ والسياسة وأن يكون حماسته واجتهاده في حقل علم الجغرافية محركا لهممهم لأن يقتدوا به ويسيروا على منهجه.

المقدسي

هو شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء، عرف باسم البناء، لأن جده اشتهر ببنائه ميناء عكا في عهد أحمد بن طولون، ولذا صار عنده ميول معمارية، ولد المقدسي في بيت المقدس سنة **٣٣٥**هجرية وترعرع هناك ودرس على يد جهابذة الفكر في بغداد، عرف بألقاب كثيرة منها البشاري والشامي والمقدسي والبناء وغيرها، وقد كان يقصد التغيير لاسمه باستمرار لكي يندمج في صفوف الجماهير حتى يتمكن من دراسة حياتهم الاجتماعية عن كثب.

نال المقدسي شهرة عظيمة من خلال كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) الذي بقى من أهم المصادر للباحثين في علم الجغرافية بوجه عام وخاصة فيما يتعلق في مفهوم الأقاليم لأن المقدسي قدم في مؤلفه معلومات فريدة لم يسبقه إليها باحث في هذا المجال الحيوي.

لقد تجشم المقدسي عناء السفر لكي يحصل على المعلومات الصحيحة عن البلاد الإسلامية فكان من علماء العرب والمسلمين البارعين الذين يمتازون بقوة الملاحظة وسعة الأفق. لذا استقى المقدسي معلوماته الجغرافية من ثلاثة منابع بملاحظاته وماشاهده بنفسه وما سمعه من العلماء ذوي الثقة والأمانة وماوجد مدونا في بطون الكتب.

يقول أغناطيوس كراتشكوفسكي في كتابه (تاريخ الأدب الجغرافي العربي ـ الجزء الأول) «إن شخصية المقدسي لتختتم بجدارة المدرسة الكلاسيكية للجغرافيا العربية وسلسلة الجغرافيين الكبار للقرن العاشر الميلادي. . ولكن من غير المستطاع أن يغمطه إنسان نصيبه من الفهم والذكاء وألا يعترف له بالأصالة والطرافة وقوة الملاحظة، لذا فيجب الاتفاق مع كل سبرنجر وكراموس في اعتباره

جغرافيا عظيما وواحداً من كبار الكتاب العرب قاطبة».

ويتضح منهج المقدسي فيما ذكره في مقدمة كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) اعلم أنني أسست هذا الكتاب على قواعد محكمة وأسندته بدعائم قوية وتحريت جهدي الصواب واستعنت بفهم أولي الألباب وسألت الله عز اسمه أن يجنبني الخطأ والزلل ويبلغني الرجاء والأمل فأعلى قواعده وأرصف بنيانه ماشاهدته وعقلته وعرفته وعلقته عليه رفعت البنيان وعملت الدعائم والأركان ومن قواعده أيضا وأركانه وماستعنت على تبيانه سؤال ذوي العقول من الناس ومن لم أعرفهم بالغفلة والالتباس عن الكور والأعمال في الأطراف التي بعدت عنها ولم يقدر لي الوصول فما وقع عليه اتفاقهم أثبته وما اختلفوا فيه نبذته وما لم يكن له بد من الوصول إليه والوقوف عليه قصدته، وما لم يقر في قلبي ولم يقبله عقلي أسندته إلى الذي ذكره أو قلت زعموا ووشحته بفصول وجدتها في خزائن الملوك.

استطاع المقدسي تقريب المعلومات الجغرافية إلى أذهان القراء وطلاب العلم وذلك باستخدامه الألوان في خرائطه الشهيرة، فرمز للطرق باللون الأحمر والرمال باللون الذهبي والبحار باللون الأخضر والأنهار باللون الأزرق والجبال باللون الأسمر الأغبر.

ترجم كتاب (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) للمقدسي إلى عدة لغات وطبع طبعات كثيرة كما يوجد لهذا الكتاب القيم مخطوطتان إحداهما في القسطنطينية والأخرى في برلين. ويتضح للقارىء أن كتاب (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) كان من المؤلفات الجغرافية الهامة والذي لايستغنى عنه باحث في مجال جغرافية البلاد الإسلامية، لذا نرى أن علماء الغرب تسارعوا إلى ترجمته إلى لغتهم الحديثة كي يتمكنوا من الاستفادة من آراء المقدسي الأصلية حول عادات وتقاليد الشعوب التي تحدث عنها والمبنية على الرؤية والملاحظة الثاقبة والدقيقة.

وخلاصة القول لقد أجاد شمس الدين أبو عبدالله المقدسي في دراسته المتكاملة للعالم الإسلامي فقد تناول بكل دقة وإمعان وتحر للحقيقة أربعة عشر إقليما منها ستة عربية مثل جزيرة العرب والشام ومصر والعراق وأقور والمغرب وثمانية أعجمية وهي المشرق والديلم والرحاب والجبال وخوزستان وفارس وكرمان والسند وقد أسس دراسته الميدانية على زياراته الشخصية، لقد أتت آراؤه مقنعة

للقارىء والباحثين في مجال الجغرافية العربية والإسلامية.

لاشك أن المقدسي تأثر بطريقة غير مباشرة بنتاج علماء اليونان في ميدان علم الجغرافية، وذلك لدراسته إسهام علماء العرب والمسلمين في هذا الحقل الحيوي، حيث استقوا بعض معلوماتهم عن المصادر اليونانية، والمعروف أن الفكر اليوناني يعتمد كثيرا على الجغرافية النظرية بينما المقدسي ركز على الجغرافية الوصفية والتي انفرد بها بين علماء العرب والمسلمين.

امتاز أسلوب المقدسي بالسجع الخفيف ولكنه كان محكما بليغا كما اتصف أيضا بالسهولة والسلاسة مع الحفاظ على بعض الألفاظ الجديدة في اللغة لذلك ظهر كتابه المذكور أعلاه جزل المعاني مستخدما النظريات التاريخية متى رأى ذلك مناسبا فهو يمثل العالم الصحيح الذي التزم بالنقد العلمي الصريح النزيه.

لقد كان كتاب (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) مصدرا ضروريا لكل باحث عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية بوجه عام وخاصة في علمي الجغرافية والتاريخ. إنني عند قراءة هذا الكتاب أحس أنه يحتوي على معلومات أصيلة بنيت على المشاهدة والملاحظة الشخصية التي لم يسبقه إليها أحد.

امتاز منهج المقدسي بالإسناد، فقد كان يسند المعلومات التي دونها في كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) إلى راويها لاسيما في حالة الشك حتى ولو قليلا، هذا مما جعله يتصف بالدقة في عمله كذلك تظهر عنايته باللغة العربية حيث كان كتابه آنف الذكر مملوءاً بالمصطلحات اللغوية التي تثري حصيلة القارىء، لذا فهو يميل إلى استخدام بعض الألفاظ الجديدة وغير المألوفة للعامة من الناس من ذلك يفترض بالقارىء لمؤلفه الثقافة العالية في اللغة العربية.

ابن الفرضى

هو عبدالله بن محمد بن يوسف الأزدي القرطبي، يكنى بأبي الوليد، ويلقب بابن الفرضى، ولد بمدينة قرطبة سنة **٣٥١**هجرية، وتوفي قتيلا بيد البربر سنة **٤٠٣**هجرية.

خرج أبو الوليد بن الفرضى من الأندلس إلى بلاد المشرق العربي والإسلامي وهو في الحادية والثلاثين من عمره (أي في قمة نشاطه) أدى فريضة الحج والتقى بكبار العلماء في مكة وتتلمذ على أيديهم في العلوم الشرعية واللغوية ونبغ فيهما.

كما دون بكل دقة مشاهداته الشخصية حول الموضوعات المتعلقة في علم الجغرافية، لذا نراه دائما يطرح أفكارا ونظريات جغرافية أصيلة لم يسبقه إليها أحد تدل على ثقافته الواسعة في هذا الميدان.

كان أبو الوليد ابن الفرضى عالما بمعظم فروع المعرفة، فهو بحق من كبار المؤرخين والجغرافيين والأدباء، وله باع طويل في العلوم الشرعية واللغوية. احتل مكانة مرموقة بين شعراء عصره فله ديوان جيد، تولى منصب القضاء بمدينة بلنسية، فكان رحمه الله قاضيا محنكا بارعا، عرف بقدرته العظيمة في هذا المجال الحيوي.

ويذكر أبو العباس بن خلكان في كتابه (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ـ المجلد الثالث) أن أبا الوليد ابن الفرضي كان فقيها عالما في فنون العلم، وله شعر كثير ومنه:

أسير الخطايا عند بابك واقف	على وجل مما به أنت عارف
يخاف ذنوبا لم يغب عنك غيبها	ويرجوك فيها فهو راج وخائف
ومن ذا الذي يرجو سواك ويتقي	ومالك في فصل القضاء مخالف
فيا سيدي لاتخزني في صحيفتي	إذا نشرت يوم الحساب الصحائف
وكن مؤنسي في ظلمة القبر عندما	يصد ذوو القربى وحفو الموالف
لئن ضاق عني عفوك الواسع الذي	أرجى لإسرافي فإني لتالف

ومما يؤسف له أن معظم نتاج أبي الوليد ابن الفرضي قد ضاع ولم يبق منه متداولا بين أيدي الباحثين سوى كتاب (تاريخ علماء الأندلس) الذي ذيل عليه أبو القاسم خلف بن بشكوال (المتوفى سنة ٥٧٨هجرية بكتابه الضخم المشهور المعنوى (كتاب الصلة).

ويذكر الدومييلي في كتابه (العلم عند العرب وأثره في تطوير العلم العالمي) أن كتاب (تاريخ علماء الأندلس) لابن الفرضي عبارة عن مجموعة من التراجم أكملها ابن بشكوال وحصل كوديرا (F. Codera) على نسخة منه من المكتبة الأسبانية بمدريد فنشرها سنة ١٣١٠هـ هناك.

ونوه حسين مؤنس في كتابه (تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس) أن أبا

الوليد ابن الفرضي كان مخططا أن يكتب كتابا شاملا عن بلاد الأندلس، ولكن يظهر أن هناك بعض المشاغل التي عاقته. ونص ابن الفرضي في مقدمة كتابه (تاريخ علماء الأندلس) أنه يريد أن يفعل ذلك ويتضح من قوله. موعبا على المدن يشتمل على الأخبار والحكايات، ثم عاقت عوائق عن بلوغ أعداد فيه، فجمعنا هذا الكتاب مختصرا.

وأضاف حسين مؤنس في كتابه المذكور آنفا أن وصف أبي الوليد ابن الفرضي لمدينة الزهراء يوحي بأنه رجل مقتدر على الكتابة في البلدان وأوصافها والمباني وهيأتها ومقاييسها ولا يحتمل أن يكون ابن الفرضي قد أخذ ذلك الكلام عن غيره، فإنه هو نفسه معاصر لبناء مدينة الزهراء وجامعها، ومعلوماته تدل على أنه سأل واستقصى وقاس وحقق بنفسه.

يستطيع القارىء أن يستخلص بسهولة من عرض حسين مؤنس السابق أن الطريقة التي اتبعها أبو الوليد ابن الفرضي في وصفه لمدينة الزهراء تدل على أنه من علماء العرب والمسلمين المرموقين في مجال علم الجغرافية.

عكف أبو الوليد ابن الفرضى على التأليف فصدر له كل من كتاب شعراء الأندلس، والإعلام بالأعلام، ورياض النفوس النقية في علماء ومشايخ أفريقية، وكتاب في المؤتلف والمختلف، وكتاب في مشتبه النسبة، وغيرها. وقد نوه عن ذلك إسماعيل باشا البغدادي في كتابه (هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين).

وخلاصة القول أنه ليس هناك مجال للدهشة أن يرى القارىء أن أبا الوليد ابن الفرضي في قائمة جغرافيي الأندلس، فقد تخللت المعارف الثمينة في مجال علم الجغرافية كتاباته النثرية والشعرية، ويتضح ذلك جليا في وصفه لمدينة الزهراء والقارة الأفريقية والمسالك والممالك التي مر بها في طريقه إلى المشرق العربي الإسلامي سنة ٣٨٢هجرية. هذا بالإضافة إلى المعلومات الجغرافية التي يذكرها عن البلدان ذاتها عندما يدون تراجم علمائها.

كان الفاصل بين علم الجغرافية وعلم التاريخ غير واضح في بلاد الأندلس، بل نراهما كانا متلازمين، لذا وجدنا أنه من الضروري أن نضع ابن الفرضي في قائمة الجغرافيين العرب والمسلمين.

لقد قدم أبو الوليد ابن الفرضى الأندلسي خدمة جليلة للباحثين والدارسين في

مجال علمي الجغرافية والتاريخ في تصنيف (كتاب علماء الأندلس) منذ القرن الرابع حتى يومنا هذا. . والحقيقة أن أي باحث يريد أن يكتب عن تاريخ أو جغرافية شبه جزيرة الأندلسى لابد وأن يرجع إلى هذا الكتاب القيم.

البيروني :

هو أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني. عاش بين سنتي ٣٦٢-٤٤٠هجرية ينتمي إلى الجنس الفارسي، وهناك من يقول إنه تركي الأصل ولد بخيوه ضاحية من ضواحي خوارزم وتوفي بغزنة، والجدير بالذكر أن خيوه الحالية كان اسمها في الماضي بيرون ولذا جاءت تسميته البيروني.

عاش أبو الريحان البيروني حياة صعبة، لذا نراه تنقل من مكان إلى آخر باحثا عن المأوى الذي فيه استطاع أن يكتب مافي نفسه. هناك بعض المؤرخين للعلوم يقولون إن أسفاره المتكررة أتاحت له فرصة جيدة بأن يلتقي بجهابذة الفكر ليس فقط في علمي الجغرافية والتاريخ ولكن أيضا في العلوم الأخرى التي تفنن بها البيروني.

صحب البيروني محمود الغزنوي في فتوحاته لبلاد الهند مما أتاح له الفرصة لتعلم اللغة السنسكريتية، كما استطاع أن يكتب عن دين وعادات الهنود كتابة في غاية الروعة والإتقان في كتابه (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مزدولة) الذي خصصه للهند، ولم يهمل البيروني العلوم الأخرى مثل الجغرافية والرياضيات والفلك بل دونها في هذا الكتاب الذي بقى من أهم المصادر العلمية للباحثين في الحضارة الهندية.

والحق أن البيروني زاد من معارف علماء العرب والمسلمين العلمية في بحوثه وكشوفه عن بلاد الهند، لذا فله الفضل الكبير على الحضارة العربية والإسلامية بذلك.

اهتم البيروني اهتماما بالغا بتوزيع الأمطار التي تنزل على بلاد الهند، وعمل منه نموذجا علميا استفاد منه علماء العرب والمسلمين في أماكن أخرى، مما لاشك أن أبا الريحان البيروني قدم دراسة أصيلة في ميدان علم المناخ، كما أن هذه الاستنتاجات قادته إلى تقسيم جميع الأماكن في العالم إلى مناطق حرارية مما يدل على طول باعه في علم الجغرافية، فالبيروني يتمتع بحاسة جغرافية عظيمة. إن

لم تكن نادرة الوجود.

يقول المستشرق سخاو إن البيروني أعظم عقلية عرفها التاريخ فله إلمام شامل بالمعارف وتضلع في الرياضيات والتاريخ والجغرافية كما عرف بأنه على جانب من الدهاء والذكاء وسعة الحيلة وأن له قدرة عجيبة على البحث والاطلاع.

أما جورج سارتون فقط أطلق على الفترة التي عاش فيها البيروني (عصر البيروني) لإضافاته الهامة في معظم فروع المعرفة.

علل البيروني الشفق والغسق تعليلا واضحا وحسب محيط الأرض بطريقة علمية دقيقة وحدد القبلة التي يتجه إليها المسلمون عند أداء صلاتهم بتطبيق نظريات رياضية متقدمة. وهناك مسائل كثيرة معروفة باسم البيروني منها:

مالا يحل بالمسطرة والفرجار مثل محاولة قسمة الزاوية إلى ثلاثة أقسام متساوية. وحساب قطر الأرض. وإثبات سرعة الضوء تفوق سرعة الصوت، ودراسة حركة الأجرام السماوية. وتحديد مساحة الأرض وحجم الشمس وأن الشمس مركز الكون، فالبيروني واسع الثقافة ملم بجميع العلوم التي لها صلة قوية بعلم الجغرافية.

يروي ياقوت الحموي في موسوعته (معجم الأدباء) قصة طريفة جدا عن البيروني وتعطشه للعلم، دار الحديث بين أبي الريحان البيروني وأبي الحسن على بن عيسى الولوالجي حول مسألة في توريث ذوي الأرحام قال الولوالجي دخلت على أبي الريحان وهو يجود بنفسه قد حشرج نفسه وضاق به صدره فقال لي في تلك الحال: كيف قلت لي يوما حساب الجدات الفاسدة (الجدات التي من قبل الأم) فقلت له إشفاقا عليه: أفي هذه الحالة؟ قال لي ياهذا أودع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة، ألا يكون خيرا من أن أخليها وأنا جاهل بها، فأعدت ذلك عليه وحفظ وعلمني ماوعى. وخرجت من عنده وأنا في الطريق فسمعت الصراخ (مات البيروني).

يتصف البيروني بسعة الاطلاع وتوقد القريحة وحبه للقراءة والتأليف فكان عاكفا على البحث والاستقصاء، فلا يفارق يده ولاعينه النظر كما كان البيروني يقضي جل وقته في التخيل والتصور في مخلوقات الباري عز وجل.

للبيروني مؤلفات كثيرة جدا أهمها كتاب القانون المسعودي وهو على شكل

موسوعة في العلوم الرياضية والفلكية والجعرافية أهداه للسلطان مسعود بن محمود الغزنوي الذي شحذ همته على تصنيفه، وتوجد نسخ قديمة جدا لهذا الكتاب النفيس محفوظة في كل من مكتبة بودلين بأكسفورد رقم ٥١٦ والمكتبة الأهلية بباريس رقم ٦٨٤٠ ومكتبة جامعة توبنجن رقم ١٦١٣ ودار الكتب المصرية بالقاهرة٨٦٦.

يحتوي القانون المسعودي للبيروني على معلومات في غاية الأهمية للباحثين في علم الجغرافية مثل تعيين خطوط الطول والعرض للبلاد بطريقة رياضية متقدمة ووصف جغرافية الأرض وغيرها.

مثال: يصف البيروني خط الاستواء في كتابه القانوني المسعودي فيقول: «**خط الاستواء الذي لا عرض له فالعرض منه ومنسوب إليه ولما اجتاز أفقه على قطبي الكل قسم المدارات المخطوطة عليها الموازية لمعدل النهار كلها بنصفين فلم يدم فيه ظهور مدار أو خفاؤه أصلا ولم يختلف فيه ليل مع نهاره، بل استويا لكل طالع وغارب**» يتضح للقارىء من هذا النص أن البيروني كوزموغرافي من الصنف الأول وأن عنده المقدرة العلمية العظيمة على التقنين وذلك يعود لسعة اطلاعه في العلوم التجريبية.

وخلاصة القول لقد اعترف المتخصصون في تاريخ العلوم بأن مؤلفات البيروني المتعددة تمتاز عن غيرها بالصفات المنطقية وسلامة الأسلوب والتنسيق الرائع كما كان البيروني يفوق من سبقه ومن تبعه في حقلي الجغرافية والتاريخ حيث إن لديه اطلاعا واسعا في أخبار الشعوب الشرقية والغربية التي لم تكن متوفرة لدى معاصريه. وذلك بسبب علاقته القوية بولاة الأمر آنذاك وخاصة السلطان محمود الغزنوي وابنه مسعود وأمير جرجن وطبرستان شمس المعالي قابوس بن وشمكير الزياري.

لقد ابتدع ونحت البيروني المصطلحات العلمية الجديدة واستعملها في مؤلفاته الأصلية فله الفضل العظيم على اللغة العربية كما تجنب البيروني التنميق في العبارات بل تبنى المنهج العلمي السليم والموضوعية والتجرد فلله دره.

نعم أولى البيروني اهتماما خاصا للجغرافية الاقتصادية وذلك من حيث الثروة المعدنية والإنتاج الزراعي والطرق والمسالك فعرض المنهج العلمي القويم الذي

يعطي السكان المقدرة الجيدة على الاستفادة من هذه المصادر الحيوية.

لم يهمل البيروني الحياة الاجتماعية وأنماطها بل على العكس قدم في هذا المجال بحوثا أصيلة تحوي بمحاولته الجادة لحل المشاكل التي يواجهها شعوب العالم أجمع في ذلك الوقت فهو بحق من علماء علم الاجتماع (الأنثروبولوجيا) المرموقين الذين لهم فلسفة خاصة بهم.

لقد نبغ البيروني في تفسير الظواهر الطبيعية تفسيرا علميا مثل حركة المد والجزر وربطهما بأوجه القمر وكذلك شرحه صعود ماء الفوارات والعيون إلى أعلى وتجمع ماء الآبار بالرشح من الجوانب.

لقد كتب وشرح البيروني طريقة استخراج الملح من ماء البحر ويعتبر أول من حضر كربونات الرصاص القاعدية وكذلك استطاع صنع الزجاج الملون بطريقة علمية نادرة لاتختلف عن الطريقة الحديثة.

وفوق هذا كله كان متضلعاً في النتاج العلمي لعلماء اليونان والهنود والفرس، مما أعطاه القدرة على عمل المقارنة العلمية بينها لذا نرى البيروني أثنى ثناء حسنا على إسهام علماء اليونان في ميدان علم الجغرافية.

ولايخفى على القارىء أن البيروني يعتبر بحق إمام علماء العرب والمسلمين الذين أسسوا الجغرافية الرياضية والفلكية فالبيروني أرسى قواعد البحث العلمي في هذا المجال وربط علم الجغرافية بعلم الفلك، لذا يتضح تفوق البيروني في حقل الجغرافية الفلكية على الجغرافية الوصفية بأنواعها المتعددة.

السؤال الذي يطرح نفسه: ماذا عمل أبناء جلدة البيروني حياله؟ بينما أكاديمية العلوم السوفيتية قدمت عام ١٣٧٠ هجرية كتابا بعنوان (البيروني) يضم بين دفتيه كثيرا من المقالات التي تبين فضل البيروني على البشرية أجمع ونشر في الهند عام ١٣٧١ هجرية، وكتاب آخر يحتوي على عشرات البحوث والمقالات التي تخص البيروني إحياء لمجده واعترافا بجميله على البشرية !.

حيان القرطبي

هو حيان بن خلف بن حسين بن حيان، ويكنى بأبي مروان، ويلقب بالقرطبي، ولد سنة ٣٧٧هجرية بمدينة قرطبة، وتوفي فيها سنة ٤٦٩هجرية،

ولهذا السبب عرف باسم القرطبي.

لقد تلقى أبو مروان بن حيان تعليمه بمدينة قرطبة على يد جهابذة الفكر في العلوم الجغرافية والتاريخية هناك، لذا لا عجب أن يكون من نوابغ العلماء العرب والمسلمين في كل من التاريخ والجغرافية والأدب. كما اتفق المؤرخون على تسميته عمدة مؤرخي الأندلس دون منازع.

ينقل لنا أبو العباس بن خلكان في كتابه (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ـ الجزء الثاني) أن أبا علي الفساني نعت ابن حيان صاحب المقتبس فقال (كان عالي الهمة قوي المعرفة متبحرا في الآداب بارعا فيها، صاحب لواء التاريخ بالأندلس، أفصح الناس فيه وأحسنهم نظماً له.

نال أبو مروان بن حيان شهرة عظيمة بين المؤرخين والجغرافيين بالعالم، حيث كان من أقدر المؤلفين على التنسيق للمعلومات الجغرافية والتاريخية. اعتكف رحمه الله اعتكافا منقطع النظير في بيته للدراسة والبحث والتنقيب والاستقصاء في هذين العلمين، لذا خلف لنا تراثا غزيرا تزخر به مكتبات العالم.

والجدير ذكره هنا أن علماء الأندلس المهتمين بدراسة التاريخ، يلزمهم أن يعطوا وقتا كافيا لدراسة الجغرافية، ولذا من الصعب جدا الفصل بين التاريخ والجغرافية في الأندلس من هنا يتضح السبب لكون معظم مؤلفات المؤرخين الأندلسيين تحمل بين ثناياها معلومات ذات أهمية عظيمة في ميدان علم الجغرافية.

اهتم أبو مروان بن حيان في علم الجغرافية اهتماما بالغا، ويظهر ذلك الاهتمام في كتابه (المقتبس في تاريخ الأندلس) المكون من عشرة مجلدات الذي فيه تكلم عن موضوعات كثيرة تتعلق بعلم الجغرافية. فعند قراءة وصفه لمدينة الزهراء ومكانتها الجغرافية لايسعنا إلا أن نضعه في قائمة علماء الجغرافية، لأنه قدم وصفا متكاملا لايستطيع عمله إلا المتخصص في حقل علم الجغرافية.

ويذكر حسين مؤنس في كتابه (تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس) أن في ثنايا كتاب المقتبس في تاريخ الأندلس لابن حيان من المادة الجغرافية التي لايستغنى عنها من يريد أن يتعرف على جغرافية الأندلس، فإنه يعني بذكر المدن والحصون والقرى والأقاليم الإدارية وحدودها ومافيها، ويؤرخ لاختطاط المدن

وإنشاء الحصون والموانى والجسور والقناطر والأسوار.

كما أنه يصف الطرق والجبال والهضاب والأنهار التي في بلاد الأندلس بكل تفصيل.

وأضاف الدوميلي في كتابه (العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي) أن كتاب المقتبس في تاريخ الأندلس في عشرة أجزاء، لايوجد كاملا، ولحسن الحظ عثر أخيرا على بعض الأجزاء منه فمثلا في سنة ١٣٥٦ هجرية نشر ملشور أنطوانية (R.P.M.M.Antuno) الجزء الثالث الخاص بتاريخ إمارة الأمير عبدالله بن محمد الأموي لقرطبة ـ ضمن مجموعة النصوص العربية المتعلقة بالمغرب العربي والإسلامي. وفعلا ظهر الجزء الثالث مزودا بالرسوم ووصف الأماكن بطريقة جغرافية بحتة بين أيدي الباحثين والدارسين في المعمورة.

ونوه فرانز روزنثال في كتابه (علم التاريخ عند المسلمين) عن كتاب (المتين في تاريخ الأندلس) فقد تكلم فيه عن بلاد الأندلس من حيث تاريخه وأحداث عصره وجغرافيته وآدابه وغيرها. والحق أن هذا الكتاب يعتبر موسوعة علمية لبلاد الأندلس، لايستطيع باحث في تاريخ أو جغرافية الأندلس أن يستغنى عنه.

وخلاصة القول لقد أبرز المستشرقون مكانة أبي مروان بن حيان التاريخية، ولكنهم تجاهلوا دوره المرموق في ميدان علم الجغرافية. ومما يؤسف له أن المستشرقين عادة يكتبون عن النواحي شديدة اللمعان لعلماء العرب والمسلمين ويهملون تماما النواحي الأخرى إهمالا تاما.

إن في كتابات بعض المستشرقين إجحافا لايستساغ ولايقبله المنطق ولا العقل. لذا يجب أن نعطي البحث والتنقيب والاستقصاء لتاريخ علماء العرب والمسلمين في العلوم جل اهتمامنا لكي نخرجه لفلذات أكبادنا في الصيغة العلمية المقبولة، ولاسيما نتاج أبي مروان بن حيان العلمي.

لاريب أن أبا مروان بن حيان أسدى خدمة عظيمة للحضارة العربية والإسلامية في تصنيفه كتاب (المتين في تاريخ الأندلس)، حيث عرضه بطريقة علمية وبأسلوب سهل متماسك، فياحبذا أن ننهج منهجه في البحث والمثابرة والاجتهاد ونترك عنا تقليد علماء الغرب.

عندما نطالع إسهامات أبي مروان بن حيان في حقلي التاريخ والجغرافية

ومايحتوي عليه من آراء ونظريات علمية سديدة نعلم تمام العلم أن هذا العالم الجليل يدرس العلم للعلم لكي يكشف الحقيقة ويقف عليها.

أرجو أن أكون قد قدمت خدمة متواضعة للقارىء في كتابة هذه الترجمة المختصرة لعلم من أعلام الحضارة العربية والإسلامية إلا وهو أبو مروان بن حيان الذي شهد له بالعبقرية والذكاء المفرط ورجاحة العقل، فلله دره.

العذري

هو أحمد بن عمر بن أنس العذري بن الدلائي، يكنى بأبي العباس، ويلقب بالدلائي، نسبة لقرية دلاية إحدى قرى مدينة طرية، ولد سنة **٣٩٣**هجرية بألمرية وتوفي سنة ٤٧٨هجرية بمدينة بلنسية وهي السنة التي استولى ألفونس السادس على طليطلة.

ويذكر حسين مؤنس في كتابه (تاريخ الجغرافية والجغرافيين الأندلسي) أن عبدالعزيز الأهواني الذي درس وحقق نتاج أبي العباس في علم الجغرافية يصر على أن العذرى ألمرى من قبيلة عذرة العربية الأصل. ويؤكد ابن حزم في الجمهرة أن بلده دلاية كانت دار عذرة بالأندلس.

تجول أحمد العذري في بلاد المشرق العربي والإسلامي، وأدى فريضة الحج ومكث في مكة المكرمة نحوا من تسعة أعوام، استطاع في هذه الفترة أن يلتقي بكبار المفكرين ليس فقط في العلوم الشرعية والعربية ولكن في علمي الجغرافية والتاريخ، وقد انعكس ذلك على نتاجه الذي يتصف بالعمق والتجربة والمشاهدة التشخصية.

ويكفي أحمد العذري فخرا أن يعترف كل من عبيدالله البكري (٤٣٢-٤٨٧هجرية) وأبي عبدالله محمد الإدريسي (٤٩٣-٥٦٠هجرية) بمكانته العلمية. فقد اعتمد كل منهما في مؤلفاتهما الجغرافية على نتاج العذرى في هذا الميدان الحيوي. كما استخدم زكريا القزويني (٦٠٠-٦٨٢هجرية) معلوماته الكوزموغرافية عن الأندلس وأوروبا الغربية من كتاب (نظام المرجان للمسالك والممالك) للعذرى.

وينقل حسين مؤنس في كتابه آنف الذكر ملخصا للمنهج الذي اتبعه العذرى في كتابه (نظام المرجان في المسالك والممالك) الذي حققه عبدالعزيز الأهواني وهو:

١ ـ يقسم العذرى كتابه إلى مايشبه الفصول، كل فصل يدور حول قسم إداري من الأقسام الإدارية في الأندلس.

٢ ـ يبدأ الكلام بمكان وأهمية القسم الإداري.

٣ ـ يعقب ذلك بذكر الطريق من قاعدة القسم الإداري السابق إلى قاعدة القسم الإداري الذي يتحدث عنه.

٤ ـ ثم يلي ذلك الكلام على المدن التابعة للقسم الإداري واحدة واحدة.

٥ ـ الطرق ومسافتها والمحلات التي تمر بها.

ومما لاشك فيه أن المعلومات هذه التي طرحها أحمد العذري في كتابه (نظام المرجان في المسالك والممالك) تدل على أنه عمل في الدولة أو كان له صلة قوية بأشخاص في الدولة، لأنها تنم عن اطلاع ومعرفة ومشاهدة مدهشة، ولايمكن أن يقوم بها الباحث العادي.

ولايخفى على القارىء أن صاحب الترجمة أحمد العذري شيخ جليل له اهتمامات نادرة في علمي الحديث والفقه، لذا كان منصرفا تماما إلى السماع والإسماع في هذين الحقلين مدة طويلة من الزمن. ويظهر ذلك واضحا وجليا في كتابه (كتاب أعلام النبوة) ولكنه مع ذلك كان له اهتمامات جيدة في علمي التاريخ والجغرافية.

أحمد العذري من علماء العرب والمسلمين الأندلسين الذين اعتبروا علم التاريخ جزءاً لايتجزأ من علم الجغرافية، لذا كان نتاجه مركزا على الجغرافية الطبيعية البشرية، ولكنه لم يهمل أبدا الفروع الأخرى بل قدم قدرا جيدا من المعلومات عن الجغرافية السياسية والاقتصادية.

كان أحمد العذري رجلا ذكيا ألمعا فلم يبدأ من الصفر في جغرافية الأندلس بل بدأ من حيث انتهى أحمد الرازي القرطبي (٢٧٤-٣٤٤هجرية). فحاول بكل جهد أن يضيف معلومات جديدة للجغرافية الطبيعية البشرية. كما تكلم عن الأقسام الإدارية والطرق والمدن ومعالمها. لذا نستطيع أن نقول إن جغرافية الرازي كانت مركزة على البلدان بينما جغرافية العذري شملت كلا من البلدان والممالك والمسالك.

وخلاصة القول أن العمل الذي قام به عبدالعزيز الأهواني حيال كتاب (نظام

المرجان في المسالك والممالك) للعذري يعتبر عملا قيما، لأنه عرفنا بأبي العباس العذري، مما دعا حسين مؤنس وغيره أن يكتبوا عنه وإلا كان العذري من علماء العرب والمسلمين المدفونين في مكتبات العالم.

إن المنهج الذي اتبعه أبو العباس العذري هو منهج الباحث الجدي المتمكن، فأولا قرأ ماكتبه علماء العرب والمسلمين الأوائل عن شبه جزيرة الأندلس فاستوعبها أحسن استيعاب ثم بدأ بالكتابة. ويظهر ذلك من تلميحاته المتعددة عن المعارف التي اقتبسها، ولذا خرج كتابه متكاملا حافلا بمعلومات جيدة لم يسبقه إليها أحد.

كان أبو العباس العذري معلما ناجحا، فكان دائما يسدي النصائح المفيدة لطلابه بأن يطلبوا العلم للعلم، لكي يكونوا قدوة للناشئة. فيحصل من البحث والمثابرة والاستقصاء لذة العقل، وبالكشف عن الحقيقة العلمية يعرف الإنسان الأنظمة الكونية التي يسير العالم أجمع بموجبها.

أتمنى أن أكون قد قدمت بهذه الترجمة الموجزة خدمة نحو العذرى الدلائي، فهو من العباقرة الذين وضعوا نظريات وأفكاراً جغرافية في غاية الأهمية خلال بحوثه المبتكرة في ميدان علمي الجغرافية والتاريخ.

البكــــري

هو عبدالله بن أبي مصعب عبدالعزيز بن أبي يزيد محمد بن أبي أيوب بن عمرو البكري الأندلسي، ويكنى بأبي عبيد، ويرجع نسبه إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، لانعرف بالضبط متى ولد، ولكن المتفق عليه بين المؤرخين للعلوم أنه ولد بمدينة شلطيش وترعرع وتلقى تعليمه بمدينة قرطبة، وانتقل من قرطبة إلى ألمرية حيث حظى فيها بحب أميرها محمد بن معن، وقضى آخر أيام حياته بمدينة إشبيلية حيث توفي هناك سنة ٤٨٧هجرية عن عمر يناهز الثمانين عاما تقريبا.

مكث أبو عبيد البكري حوالي خمساً وعشرين سنة في مدينة إشبيلية التي كانت تزدحم بجهابذة الفكر ليس فقط في علم الجغرافية ولكن أيضا في جميع فروع المعرفة وبقى هناك يبحث ويدقق بعض النظريات العلمية المستعصية عليه مع

زملائه علماء العرب والمسلمين المرموقين تحت رعاية أمير إشبيلية المعتمد بن عباد الذي كان يكتظ مجلسه بالعلماء في كل مناسبة.

ويجب أن يعرف القارىء أن أبا عبيد البكري مر بمحن كثيرة جدا ومنها خروجه من مدينة شلطيش مع أبيه هاربين إلى قرطبة تاركين الحكم والجاه خلفهما. كما حاق ببلاد الأندلس في ذلك الوقت مصائب ونكبات متعددة أثرت في نفسية صاحب الترجمة.

لقد ذاع صيته بين معاصريه كعالم ذكي ألمعي، فقد استفاد من صلاته القوية بالأمير محمد بن معن أمير ألمرية وكذلك بالأمير الشاعر المعتمد بن عباد بأن طور ونشط الحياة العلمية والثقافية في الأندلس، وذلك ببناء المكتبات العلمية التي يرجع إليها الباحثون في مختلف المعارف.

ومن مميزات أبي عبيد البكري أنه كان عالما واسع الاطلاع وله خبرة في كل من اللغة العربية والجغرافية والتاريخ والنبات والشعر. وهو يمتاز إلى جانب مكانته العلمية المعروفة بين معاصريه بالدقة والأمانة، لذا كان يلقب بالمحقق، لأنه لايدون شيئا إلا بعد الاستقصاء والتوثق من صحته. من هنا بقيت مؤلفاته جميعها من أهم المصادر للباحثين وطلاب العلم الجادين عبر العصور.

ويمكن تقسيم مؤلفاته إلى قسمين رئيسيين:

١ ـ مؤلفات لغوية وأدبية ومنها كتاب الإحصاء لطبقات الشعراء، وكتاب اشتقاق الأسماء، وكتاب شفاء عليل العربية، وكتاب اللآلي في شرح أمالي القالي، وغيرها.

٢ ـ ومؤلفات جغرافية ونباتية ومنها كتاب المسالك والممالك، وكتاب معجم مااستعجم من أسماء البلاد والمواضع، وكتاب أعيان النبات والشجريات الأندلسية وغيرها.

يجمع المؤرخون للعلوم أن كتاب معجم مااستعجم من أسماء البلاد والمواضع هو أول كتاب ألفه أبوعبيد البكري فقد وضع منهجه العلمي واضحا في أول مقدمة هذا الكتاب حيث قال: «الحمدلله حمدا يقتضي رضاه، وصلى الله على محمد نبيه الذي اصطفاه، واختاره لرسالته واجتباه. هذا الكتاب ذكرت فيه، إن شاء الله، جملة ماورد في الحديث والأخبار، والتواريخ والأشعار، من المنازل

والديار، والقرى والأمصار، والجبال والآثار، والمياه، والآبار، والدارات والحرار، منسوبة محددة، ومبوبة على حروف المعجم مقيدة. فإني لما رأيت ذلك قد استعجم على الناس، أردت أن أفصح عنه، بأن أذكر كل موضع مبين البناء، معجم الحروف، حتى لايدركك فيه لبس ولاتحريف».

أما المحقق لكتاب معجم ما استعجم مصطفى السقا فيصف هذا الكتاب بقوله: «هذا معجم مااستعجم من أسماء البلاد والمواضع، لأبي عبيد البكري. وهو معجم لغوي جغرافي، يصف جزيرة العرب، ويتحرى مابها من المعالم والمشاهد، والبلدان والمعاهد، والآثار والمحافد، والمناهل والموارد، ويتتبع هجرة القبائل العربية من أوطانها، واضطرابها في أعطانها، وترددها بين مصايفها ومرابعها، ومباديها ومحاضرها، ويذكر أيامها ووقائعها، وأنسابها وعشائرها:

وقد رتب البكري معجمه على حروف الهجاء المستعملة عند المغاربة وهي: أ ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز ط ظ ك ل م ن ص ض ع غ ف ق س ش ه و ى، ووضعه في أربعة أجزاء، وقام مصطفى السقا بتحقيق هذا المعجم سنة (١٣٧١ هجرية، وقدم المحقق لهذا الكتاب خدمة عظيمة، بأن بذل جهدا كبيرا حتى حصل على نسختين محفوظتين بدار الكتب المصرية (رقم٤٠٤، ٥٥٤ جغرافيا) والثالثة محفوظة بخزانة الأزهر (رقم ٢٢٣ تاريخ) وتحرى الحقيقة وذلك بدراسة النسخة التي استنسخها المستشرق فرديناند فتسفلد من أربع مخطوطات موجودة في مكتبات كل من ليدن، وكمبرج، ولندن، وميلان وإخراجها للنور سنة ١٢٩٣ هجرية في جوتنجن في ألمانيا.

وأضاف المستشرق الهولندي دوزي في كتابه (مباحث في التاريخ السياسي والأدبي لأسبانيا في العصور الوسطى ـ الجزء الأول) قائلا: إن معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع لأبي عبيد البكري فريد في بابه، فليس لدينا كتاب يمكن أن يوازن به من ناحية السعة، أو من ناحية دقة التفاصيل، فهو يحتوي على عدد ضخم من أسماء الأماكن والبلاد والجبال والأنهار والمياه، مرتبة بترتيب الحروف الهجائية عند أهل المغرب، مما يرد ذكره في الروايات العربية القديمة، وفي أحاديث الرسول ﷺ، وفي الشعر على الخصوص والمؤلف ينبه على ضبطها وتحديد أماكنها، ويقتبس كثيرا من الأشعار التي ورد ذكرها بها، ولاشيء أجلب

للعناء ولا أحوج إلى الضبط من أسماء المواضع والأماكن التي ترد في الشعر القديم، والكتاب يقدم معونة لاتقدر في هذا السبيل، ولاغنى عنه لكل من يدرس التاريخ والشعر القديمين، والجغرافيا والوثائق التاريخية أو الشبيهة بالتاريخية».

وخلاصة القول فلقد نبغ أبو عبيد البكري في كل من علمي الجغرافية والأدب وعلم النبات ولكنه تميز عن غيره بطريقته الخاصة، وذلك باستخلاص أسماء بعض الأماكن المجهولة من الشعر العربي القديم، وهذا يدل على مقدرته الفائقة وسعة اطلاعه وتوقد قريحته.

ضمّن أبوعبيد البكري مؤلفاته معلومات ناصعة وواضحة لالبس فيها ولاتحريف، وذلك عائد لتمكنه من اللغة العربية، فقد كان البكري لغويا مرهف الحس كامل الإرادة والإدراك، صاحب خبرة متينة ليس فقط في اللغة العربية وأدبها، ولكن أيضا في علمي الجغرافية والتاريخ مما جعل مصنفاته تخدم أغراضا عديدة.

حصل أبو عبيد البكري على إجازة التدريس، وهذه الشهادة تعتبر في عصره أرقى شهادة يمكن للباحث أن يحصل عليها. ولكن أبا عبيد البكري لم يعمل في سلك التدريس كثيرا بل تفرغ للدراسة والبحث عن الحقيقة العلمية.

ومما تجدر الإشارة إليه أن أباعبيد البكري كان حلقة وصل بين الثقافتين المشرقية والمغربية في الدولة الإسلامية. فكان البكري يهتم اهتماما بالغا بما تفرزه قريحة جهابذة الفكر في المشرق العربي، لهذا يظهر واضحا تأثير علماء العرب في المشرق على نتاجه العلمي.

الحق أن أبا عبيد البكري قدم معلومات جغرافية جزلة عن جزيرة العرب، مما جعل الكثير من التابعين له يقتبسون منه معلوماتهم في هذا الميدان. كما كان أبوعبدالله البكري يركز على الحوادث التاريخية والظواهر الطبيعية فيشرحها بطريقة علمية، لذا صار طلاب العلم في المعمورة يتهافتون على دراسة مؤلفاته بوجه عام.

الزهـــري

هو محمد بن أبي بكر الزهري، لانعرف بالضبط متى ولد، ولكن من الثابت

أنه من علماء القرن السادس الهجري، كان حيا يرزق سنة ٥٣٢هجرية. ولعله ولد في مدينة ألمرية الأندلسية، ونشأ وترعرع في مدية غرناطة الأندلسية. كان يكنى بالغرناطي.

عاصر أبو بكر الزهري كلا من الإدريسي وأبي حامد الغرناطي، مما يدل على أن الفترة التي عاش فيها الزهري تعج بكبار العلماء في ميدان علم الجغرافية، فهؤلاء الذين وضعوا القواعد للبحث العلمي في علم الجغرافية.

يذكر عبد الرحمن حميدة في كتابه (أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم) أن أبا بكر الزهري يعود نسبه إلى قبيلة بني زهرة بن كلاب التي كانت تخيم حوالي مكة المكرمة والتي أنجبت أعلاما من الصحابة والتابعين والمحدثين والفقهاء والقضاة في المشرق والمغرب، والغالب أن أبا بكر الزهري من فرعها العريق الأندلسي، فيالها من عائلة كريمة.

تنقل أبو بكر الزهري في معظم أجزاء الأندلس فتلقى تعليمه على يد جهابذة الفكر هناك لذا نبغ في علم الجغرافية وخاصة رسم الخرائط. من ذلك استطاع الزهري بكل جدارة أن يشرح الخرائط الجغرافية التي ورثها عن علماء العرب والمسلمين الأوائل شرحا مفصلا يدل على طول باعه في هذا الميدان الحيوي.

لقد قام أبو بكر الزهري بمحاولة ناجحة لدراسة الخارطة المأمونية. فاشتهر بين رفاقه بهذا العمل الرائع. مما دفعه إلى تصنيف كتابه المعروف (كتاب الجغرافية).

اعتمد أبوبكر الزهري في تأليف كتابه (كتاب الجغرافية) على نتاج علماء العرب والمسلمين الأوائل مثل الخوارزمي والمسعودي والرازي وغيرهم. فكان من المعجبين بالمنهج الذي سلكه كل من الخوارزمي والمسعودي في ميدان علم الجغرافية، وهو الاستناد على الخرائط الجغرافية. ولايفوتنا في هذا المقام أن ننوه أن الزهري جنح قليلا إلى المنهج الكوزموغرافي أو الكوزموجيني، فهو من المدرسة العجائبية.

ولاشك أن كتاب الجغرافية لأبي بكر الزهري هو أصل العلاقة القوية التي بين الجغرافية الفلكية والجغرافية الوصفية، وحاول أن يقدمها لطلاب العلم كمادة واحدة متكاملة. لذا نشاهد أن التجار والمسافرين والملاحين اهتموا بدراسة نتاج

أبي بكر الزهري لأنه يخدم أغراضهم.

يعتبر الكثير من المؤرخين للعلوم أن الزهري من المؤلفين في مجال علم الجغرافية ليس فقط لطلاب العلم والباحثين ولكن أيضا لعامة الناس، ولذا صار لمؤلفه (كتاب الجغرافية) شعبية مذهلة لسهولة وسلاسة أسلوبه.

ويذكر حسين مؤنس في كتابه (تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس) أن أبا بكر الزهري قدم تعريفا لعلم الجغرافية، وهو مفهوم واسع يتناول كل المعلومات الخاصة بالأرض وماعليها وعلاقة الأرض بالكون وموقعها من الفلك وما إلى ذلك، أي كل مايدخل في نطاق الجغرافية الفلكية والوصفية والبشرية.

ويقول أبو بكر الزهري في مقدمة كتابه (كتاب الجغرافية) «اشتملت هذه الجغرافية على جميع أقطار الأرض ومافيها من الخلائق على صفاتهم وصورهم وألوانهم وأخلاقهم وما يأكلون ومايشربون.. وليعلم الناظر في جميع أجزاء الأرض من حدودها وأقاليمها وبحارها وأنهارها وجبالها ومعمورها وقفرها، وحيث تقع كل مدينة من مدائنها في شرقها وغربها».

إذن لاغرابة أن يتفق المؤرخون على أن أبا بكر الزهري من علماء العرب والمسلمين الذين رسموا الخطوط العريضة لعلم الجغرافية التي تعتمد على المنهج العلمي السديد، فالزهري من صانعي المنهج العلمي للبحث في علم الجغرافية المتبع في العصر الحديث.

ظل (كتاب الجغرافية) لمحمد الزهري من المراجع الهامة بل الضرورية للباحثين في حقل علم الجغرافية، فقد كان منهلا عذبا لمعظم علماء العرب والمسلمين المعاصرين له والتابعين وفي هذا الكتاب اعتمد الزهري على طريقة الاقتباس غير المباشر من مؤلفات فطاحل الفكر في علم الجغرافية، وهذا بالضبط المنهج العلمي الصحيح.

وخلاصة القول أنه من المعروف أن أبا بكر الزهري كان ميالا منذ نعومة أظفاره لدراسة علم الجغرافية، لذا تحلى الزهري في ثقافة جغرافية واسعة متعددة النواحي.

يعتبر معظم علماء الجغرافية أن الزهري من أعلام التجديد في علم الجغرافية والنهضة الفكرية بوجه عام فهو بحق باحث قدير، حسن المعالجة للأمور التي

تتعلق في ميدان علم الجغرافية.

لاريب أنه لمع اسم أبي بكر الزهري بين معاصريه، وذلك لابتعاده كل البعد عن التقليد، بل ركز على كل جديد وربطه بالماضي لكي يكون لآرائه الجغرافية جذور طانبة في الأرض، ويظهر ذلك كله في كتابه (كتاب الجغرافية).

كان لكتاب الجغرافية للزهري شأن عظيم في علم الفكر الجغرافي، فهو الأساس الذي شيد عليه تقدم علم الجغرافية، ولايخفى على القارىء ما لهذا الفرع من أثر في الحضارة الإنسانية.

ومن المؤسف حقا أنه لم يكتب عن حياة ومكانة أبي بكر الزهري إلا نتفا لاتسمن ولا تغني من جوع. لهذا لم يأخذ هذا النابغة حقه من البحث والتنقيب والاستقصاء. أتمنى أن تكون هذه الترجمة المختصرة دافعا للمتخصصين من أبناء جلدته أن يبادروا بدراسة نتاجه في ميدان علم الجغرافية.

ناصـــر خســـرو

ناصر خسرو من كبار علماء العرب والمسلمين في علمي الجغرافية والسياسة، ويروى بعض المؤرخين أن نسبه يربطه بالإمام على رضوان الله عليه، ولد في قياديان بالقرب من بلخ سنة **٣٩٤** هجرية، فترعرع وتعلم في بلاد فارس، كما توفي سنة **٥٤٢** هجرية بالمنفى في جبال خراسان.

كان ناصر خسرو دبلوماسيا محنكا، لذا صار قريب الصلة من ولاة الأمر آنذاك، فعمل في بلاط محمود الغزنوي وابنه مسعود، ونال إعجاب، واحترام وتقدير السلطانين الغزنويين اللذين عاصرهما، لذا بقى تأثيره على العلماء المعاصرين له كبيرا جدا، فجمع كثيرا من المعارف الخاصة بعلمي الجغرافية والتاريخ.

تقلد ناصر خسرو مناصب قيادية مرموقة في ديوان جفري بيك السلجوقي حاكم خراسان، ولكنه لم يستمر بهذه الوظائف الحكومية، بل تركها وتفرغ للبحث العلمي والرحلات العلمية.

لايخفى على القارىء أن الفترة التي عاش فيها ناصر خسرو كانت مضطربة وقلقة سياسيا واقتصاديا ودينيا، ولكنه كان مطلعا بل ملما بنتاج علماء العرب

والمسلمين في العلوم وخاصة في ميدان علمي الفلسفة والجغرافية، لذا ذاع صيته بين معاصريه.

قرر ناصر خسرو أن يخلص عمله لوجه الله، فرحل فجأة سنة٤٣٨هجرية إلى مكة المكرمة وأدى مناسك الحج والعمرة، فأقلع عما كان عليه وسار في الطريق السوي، بل بقي باقي حياته حجة يدافع عن الإسلام بكل إخلاص وتفان.

زار ناصر خسرو بلاداً كثيرة، فكان عنده حصيلة جيدة عن علمي التاريخ والجغرافية، فاعتكف سنة ٤٤٣ هجرية على تأليف كتابه سفرنامه الذي بقى من أهم المصادر التي يعتمد عليها الباحثون لوصفه الدقيق وعنايته الشديدة في تقصي أخبارالأقطار التي زارها.

تحدث ناصر خسرو في كتابه سفرنامه عن المد والجزر في الخليج العربي بطريقة علمية وعلل أن المد والجزر متعلقان بالقمر فيبلغ المد أقصى مداه حين يكون القمر على الأفقين (يعني أفقي المشرق والمغرب) ومن ناحية أخرى حين يكون القمر في اجتماع الشمس واستقبالها يزداد الماء (أي أن المد يزيد في هذه الأوقات ويعظم ارتفاعه)، وحين يكون القمر في التربيعان تأخذ المياه في النقصان.

لعب كتاب سفرنامه لناصر خسرو دورا عظيما في بلاد الغرب فقد ترجم إلى إلى عدد كبير من اللغات الحديثة. وترجمه إلى اللغة العربية يحيى الخشاب في القاهرة سنة١٣٦٤ هجرية، فصار في متناول علماء العرب والمسلمين في المعمورة، واستفادوا منه فائدة جمة.

وله مؤلفات أخرى ذكرها الدوميلي في كتابه (العلم عند العرب ـ وأثره في تطوير العلم العالمي) وهي:

١) كتاب زاد المسافرين وهذا الكتاب يبحث في المسائل الميتافيزيقية.

٢) كتاب وجه الدين.

٣) ديوان شعر، وهو ديوان كبير ذو طابع فلسفي.

وخلاصة القول أن ناصر خسرو اشتهر في دقته وحسن اختياره للروايات التي عرضها، كما أنه كان يتحلى بالأمانة العلمية الفريدة، لذا ظهر كتابه المعروف باسم (سفرنامه) في غاية الروعة والإتقان غني بالصور الرائعة غزير بالمعلومات الجغرافية والتاريخية عن الأقطار التي زارها وكتب عنها.

لم يقتصر اهتمام ناصر خسرو على وصف المدينة من حيث العمران وعدد السكان والتجارة والطرق ولكنه أيضا اهتم اهتماما بالغا في الشئون الاجتماعية والاقتصادية والسياسة والدينية، لذا جاءت كتبه على شكل موسوعات علمية لمختلف المعارف العلمية.

لم يتأثر ناصر خسرو لصلته القوية بالخلفاء والسلاطين آنذاك، بل الحقيقة أن هذه الصلات زادته تواضعا ورشدا. فهو من العلماء الذين درسوا العلم للعلم. أثرى المكتبة العربية والإسلامية بمصنفاته الرائعة، لذا بقيت مؤلفاته من المصادر الهامة لمن يريد أن يكتب عن الرحلة العلمية في العالم العربي والإسلامي. فهو فعلا نموذج حي للرحالين العرب والمسلمين الذين تفخر بهم الحضارة العربية والإسلامية.

والحق أن ناصر خسرو لقى بعض الصعوبات من السلاجقة عندما عاد إلى مسقط رأسه وذلك في آخر أيام حياته، ولكنه حاز حظا وافرا من الاحترام من زملائه علماء العرب والمسلمين المعاصرين له. فهو بلاشك من العلماء الذين لهم رأي ثاقب وأصيل في علم الجغرافية.

ولايخفى على القارىء أن ناصر خسرو كان على صلة قوية بتراث الأوائل في مجال الشعر، فاستوعب ذلك الرصيد من شعر الأولين أحسن استيعاب، مما أعطاه القدرة العظيمة على عمل قصائد رائعة، واعتبره شعراء عصره القنطرة القوية بين نزعتي الشعرالقديم والشعر الحديث في عصره. إنه أديب مرهف يقرض الشعر ويحب الشعر الرفيع.

وللأسف الشديد أن الحسدة والعجزة والحاقدين من معاصريه صاروا يطاردونه، وذلك لمكانته العلمية التي احتلها. ولكنه كان شخصية قوية ثاقب الفكر، فلم يؤثروا عليه كثيرا بل استمر في طريقه في التأليف، فأنتج نتاجا هائلا في معظم فروع المعرفة وخاصة في ميدان علم الجغرافية.

لقد حاول ناصر خسرو أن يصل إلى الحقيقة عن طريق العقل والمنطق فأخفق، كما أنه أيضا بذل جهدا كبيرا في البحث عن الحقيقة عن طريق الفلسفة فعجز، ثم وجدها في الدين الإسلامي مما دفعه إلى القيام بزيارة كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف عدة مرات، وبقى حصنا منيعا للدين

الإسلامي.

أرى شخصيا أن يدرس نتاج ناصر خسرو ويبرز معالم نتاجه العلمي لأبناء الأمة العربية والإسلامية، ويظهر ذلك واضحا وجليا في كتابه (سفرنامة) الذي بقى نموذجا علميا للباحثين في حقل الرحلات العلمية.

ابن العـــربي المعـــافـــري:

هو محمد بن عبدالله بن العربي المعافري، يكنى بأبي بكر، ويلقب بالقاضي الأندلسي، ولد في إشبيلية سنة ٤٦٨هجرية، وتوفي في طريقه إلى فاس بالعدوة سنة ٥٤٣هجرية ودفن بمدينة فاس المغربية.

نشأ وترعرع أبوبكر بن العربي في بيت علم وجاه، فكان والده من العلماء الأفاضل في الأندلس، لذا تعرف الابن على بعض العلماء والأدباء عن طريق علاقة والده القوية بهؤلاء، فنبغ في علمي الفقه والحديث في سن مبكر، ومن هنا عرف بين معاصريه بالفقيه.

كان أبو بكر بن العربي مغرما بالأسفار منذ نعومة أظفاره، فزار عدة أقطار عربية وإسلامية، قضى قرابة ثمانية أعوام متنقلا بين ربوع مكة المكرمة والقدس وبغداد ودمشق والقاهرة، حيث تتلمذ على يد كبار المفكرين في هذه المدن العريقة.

يمتدح ابن بشكوال في كتابه (كتاب الصلة) ابن العربي فيذكر أنه الحافظ المستبحر، وآخر أئمة علماء الأندلس. زار المشرق وعاد إلى إشبيلية بعلم كثير لم يحصل عليه أحد قبله ممن كانت له رحلة إلى المشرق. وكان رحمه الله من أهل التفنن في العلوم جميعها حريصا على أدائها ونشرها، ثاقب الذهن في تمييز الصواب منها، طغت سمعة ابن العربي في كل من الحديث الفقه والأصول وعلوم القرآن والأدب والنحو والتاريخ على منزلته العلمية في علم الجغرافية علما أنه نال شهرة عظيمة بين معاصريه فيما كتبه عن رحلته للمشرق والتي أرسى فيها قواعد علم الرحلات الجغرافية، لهذا يعتبر من كبار علماء الجغرافية في بلاد الأندلس.

أدى أبوبكر بن العربي فريضة الحج سنة ٤٨٩ هجرية، والتقى بعلماء اللغة العربية والعلوم الشرعية في كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة، واستوضح بعض

الأمور الشرعية واللغوية التي استصعبت عليه منهم. وتمكن ابن العربي بحكمته ولباقته أن يحصل على مايريده من المعارف المختلفة في غربته الطويلة.

تواتر لدى مؤرخي الجغرافية أن ابن العربي أول من كتب عن الرحلات من علماء العرب والمسلمين في الأندلس بطريقة علمية. وتظهر للقارىء مقدرته الفذة في هذا الميدان من الفقرات التي تناقلها علماء الجغرافية من كتابه (ترتيب الرحلة).

يعتبر كتاب (ترتيب الرحلة) لابن العربي بمثابة سجل متكامل عن رحلته المشرقية، فقد رصد فيه معلومات في غاية الأهمية عن الطرق والتضاريس والمناخ والسكان والمنتوجات الزراعية وغيرها، كما نوه فيه عن العلماء الذين التقى بهم ودرس عليهم في مراكز العلوم الإسلامية. كما أبان ابن العربي فضلهم عليه وشكرهم شكرا جزيلاً مما يدل على ورعه وأمانته وتواضعه.

مما لاشك فيه أن ابن العربي أجاد في وصف الظواهر الطبيعية في كتابه (ترتيب الرحلة). كما أجمع المؤرخون أن ابن العربي أول رحالة أندلسي يدون بطريقة علمية رحلته المشرقية، لذا لاعجب أن يتوج ابن العربي بأنه مبتكر أدب الرحلات الجغرافية في الأندلس.

لقد وقف ابن العربي موقف الأسد حيال ذوي البدع والإلحاد، فهو بحق كان سدا منيعا للحفاظ على العقيدة الإسلامية الصحيحة. فقد دون بوضوح مناقشته التي دارت بينه وبين مخالفي منهج سيدنا ونبينا محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم في كتابه (التوسط في معرفة صحة الاعتقاد والرد على مخالف السنة من ذوى البدع والإلحاد).

ذاع صيت ابن العربي في جميع أصقاع العالم في دفاعه الصادق عن صحابة رسول الله ﷺ، ويتضح ذلك في كتابه (العواصم من القواصم) الذي أبان فيه فضل الصحابة، وقد حقق ونشر هذا الكتاب الرائع محب الدين الخطيب سنة ١٣٧١هجرية.

استطاع ابن العربي برجاحة عقله أن يعمل أعمالا جليلة وذلك بإسدائه النصائح المثمرة لولاة الأمر في الأندلس، حيث كانت البلاد مليئة بالفتن والمشاكل، لذا عرف بين معاصريه بالداعية للخير والناهي عن الشر والعبث.

تفرغ أبوبكر بن العربي في آخر أيام حياته لتدريس طلاب العلم في قرطبة التي كانت مركز الإشعاع العلمي في الأندلس، فصار طلاب العلم المخلصين يأتون من كل فج للتتلمذ على يده. والجدير ذكره في هذه الفترة من عمره أنه استطاع أن ينجز معظم مؤلفاته المتنوعة والتي تدل على سعة ثقافته وأصالته في البحث العلمي.

عكف ابن العربي على التصنيف، فكتب في كل من العلوم الشرعية والتاريخية والجغرافية، ومن نتاجه الغزير الكتب الآتية: الدواهي والنواهي، والقبس في شرح موطأ مالك بن أنس، ومفتاح المقاصد ومصباح المراصد، والمقتبس من القراءات، وأعيان الأعيان، والإنصاف في مسائل الخلاف، وأنوار الفجر المنير في التفسير (ثلاثين مجلدا) وغيرها.

وخلاصة القول أن ابن العربي من علماء العرب والمسلمين الذين خلفوا لنا تراثا في معظم فروع المعرفة والتي تحمل في ثناياها شيئا كثيرا من المعلومات الجغرافية، ولذا لانرى أن هناك حرجا أن نضع ابن العربي ضمن قائمة جغرافيي العرب والمسلمين الأوائل.

المشهور عن ابن العربي أنه كان صارما في قضائه لايجامل أحدا مهما كان مركزه الاجتماعي، يقول الحق ولو على نفسه. قضى معظم حياته في القضاء، فكان ناجحا باهرا لعدالته.

وظيفتا ابن العربي السياسية والقضائية لم تحد من نتاجه العلمي، فكان منتجا نتاجا رائعا خاصة في العلوم الشرعية واللغوية فقد استفاد من وظيفته في القضاء فدون مامر عليه من القضايا واستخدمها في تأليفه بعض الكتب.

كان ابن العربي رحمه الله مبتلى بالأعداء والخصوم، حاله حال كل إنسان منتج في هذه الدنيا، ولكن هؤلاء العجزة والمقصورون لم يكونوا حاجزا عن تنفيذ ماكان يدور في باله فكان رجلا صلبا يتحدى المصائب لتحليه بالصبر والعزيمة، لذا بقى من عمالقة الحضارة العربية والإسلامية بنتاجه العلمي الغزير.

على الرغم من المكانة التي احتلها ابن العربي في العلوم الشرعية واللغوية والتاريخية بين علماء العرب والمسلمين، إلا أنه لم يعط حقه في علم الجغرافية. وهذا الأمر وحده دفعني أن أكتب هذه السيرة المختصرة عنه.

السؤال الذي يتبادر إلى الذهن أليس من العيب والإجحاف أن يعرف شبابنا الجانب المشرق لابن العربي ويجهلون الجانب الآخر الذي لايقل إشراقا، علما أن له آراء وأفكاراً أصيلة في حقل الرحلات الجغرافية والتي تعتبر في ذلك الوقت جزءاً لايتجزأ من علم الجغرافية.

عبدالله الحجاري

هو عبدالله بن إبراهيم الكندي الحجاري الأندلسي، يكنى بأبي محمد، ويلقب بجاحظ المغرب، لانعرف بالضبط متى ولد، ولكن التحريات توحي بأنه ولد سنة ٤٦٧هجرية في وادي الحجارة وتوفي سنة ٥٥٠هجرية في غرناطة.

كان والده إبراهيم الحجاري من كبار علماء الحضارة العربية والإسلامية، ونال تقدير زملائه في البلاد العربية والإسلامية لمكانته العلمية التي احتلها.

يمكن الاستنتاج مما تقدم أن أبا محمد الحجاري، نشأ وترعرع في بيت علم، مما كان له الأثر العظيم على اتجاهاته العلمية، فهو بحق الأديب الرحالة الجوال.

كان عبدالله الحجاري أديبا مرهف الإحساس، يحب السماع والشعر، ويستعمل الألفاظ الرنانة فالمعروف عنه أنه من المغرمين بالزينة اللفظية، كما اشتهر ببلاغته وبيانه ولباقته، لذا كتب نتاجه الجغرافي بأسلوب أدبي رفيع.

سقط وادي الحجارة سنة ٤٧٩هجرية بيد النصارى، فصار الحجاري وهو في ريعان شبابة مشردا، فلجأ إلى مدينة شلب ومكث فيها ردحا من الزمن. استطاع أن يدرس فيها على كبار علماء الأندلس. وفيها نبغ في كل من الجغرافية والتاريخ والأدب.

المتواتر أن الحجارى عانى الأمرين في أول أيام حياته، لهذا جاب جميع بقاع الأندلس باحثا عن ملجأ يستقر فيه قبل أن يختار مدينة شلب التي اتخذ منها مقرا له.

لقد استفاد الحجاري من تجواله، فالتقى بكبار العلماء في الأندلس الذين أعانوه على جمع مادته الجغرافية التي ساعدته في تأليف كتابه (المسهب في غرائب المغرب) والذي يعتبر من المراجع الهامة في جغرافية الأندلس.

انتقل عبدالله الحجاري من مدينة شلب سنة ٥٣٠ هجرية إلى غرناطة بدعوة

من عبدالملك بن سعيد، فاستقبله استقبالا رائعا يليق بمقام جاحظ المغرب، مما شجعه على البقاء هناك، فكرس نفسه للبحث العلمي وتدريس طلاب العلم لمادتي الجغرافية والتاريخ.

تفنن عبدالله الحجاري في تأليفه كتاب (المسهب في غرائب المغرب) حيث ضمنه تاريخا حافلا بالمعلومات الهامة عن مؤرخي وأدباء وجغرافيي الأندلس وبلاد أوروبا.

قسم عبدالله الحجاري كتابه (المسهب في غرائب المغرب) إلى جزأين هامين الأول عن جغرافية الأندلس وبعض البلدان الأوربية مع التركيز على الجغرافية الطبيعية. أما الثاني فخصصه لتاريخ علماء العرب والمسلمين البارزين في الأندلس. لذا ظهر كتاب (المسهب في غرائب المغرب) متكاملا.

مما لاشك فيه أن عبدالله الحجاري اعتمد في تأليفه لكتاب (المسهب في غرائب المغرب) على مؤلفات عمالقة علماء العرب والمسلمين في علمي الجغرافية والتاريخ مثل أحمد الرازي وأبو مروان بن حيان والبكري وابن الفرضي والعذري وغيرهم.

ويمتاز كتاب (المسهب في غرائب المغرب) لعبد الله الحجاري بأنه يحتوي على معارف أصيلة في علمي الجغرافية والتاريخ حصل عليها من مشاهداته وخبرته واستخلاصاته الشخصية التي تنم عن طول باع وأناة ودقة في علم الجغرافية.

ولاريب فإن كتاب (المسهب في غرائب المغرب) للحجارى من الكتب الخالدة التي استند عليها علماء الجغرافية التابعين له في جميع أصقاع العالم، من الصعب جدا أن يكتب متخصص في علم الجغرافية عن الأندلس دون الرجوع إلى كتاب (المسهب في غرائب المغرب).

لم يهمل عبدالله الحجاري رسم الخرائط لبلاد الأندلس بل على العكس عرض للأندلس خرائط تدل على علو كعبه في هذا الميدان الحيوي. وبقيت هذه الخرائط في متناول الباحثين عبر العصور، كما تمتاز خرائط الحجاري لبلاد الأندلس عن غيرها في التقسيم الجغرافي من حيث الأوضاع السياسية والاجتماعية.

نوه إسماعيل باشا البغدادي في كتابه (هدية العارفين : أسماء المؤلفين وآثار المصنفين) أن لعبد الله الحجاري مؤلف آخر عنوانه (الحديقة في علم البديع) ومما

يؤسف في هذه المناسبة أننا لانعرف عن هذا الكتاب إلا اسمه، لذا لعل الباحثين من أبنائنا يحصلون على هذا الكتاب ويقدموه للملأ محققا.

وخلاصة القول فقد عكف عبدالله الحجاري طول أيام حياته المديدة للبحث والتنقيب والاستقصاء لإسهامات علماء العرب والمسلمين الأوائل في علمي الجغرافية والتاريخ، حبا في الاستزادة والكشف عن الحقائق المغمورة في بطون الكتب القديمة، فوقف بالكد والكدح على كنوز الحضارة العربية والإسلامية، فأخرجها لأبناء جلدته وغيرهم سائغة جاهزة للهضم.

يتفق المؤرخون في العالم أن الحجارى هو مؤسس الجغرافية الأدبية التي لعبت ولاتزال تلعب دورا هاما بين فروع علم الجغرافية الأدبية. ففيه أسس الحجارى قواعد هذا العلم.

عرف أبو محمد الحجارى بين معاصريه بالصبر والكفاح منذ نعومة أظفاره، فقد تعرض لمصائب وتحديات كثيرة، ولكنه وقف شامخا محاولا التغلب عليها، فأنتج للأمة العربية والإسلامية كتاب (المسهب في غرائب المغرب) الذي بقى متداولا في مكتبات العالم، بل هو الذي.حفظ التراث الجغرافي لبلاد الأندلس.

ومما لايقبل الجدل أن علاقة عبدالله الحجارى بعبد الملك بن سعيد في مدينة غرناطة مكنته من ربط علاقات وطيدة وقوية مع كبار المفكرين في الأندلس، مما ساعده على التفوق المرموق الذي وصل إليه.

قدم عبدالله الحجارى خدمة جليلة للحضارة العربية والإسلامية بأعماله العلمية الأصيلة في كل من الجغرافية والتاريخ والأدب، ولكن تحتاج هذه المعارف إلى من يحققها ويحللها ويخرجها إلى الملأ لكي يعرفوا مكانة الحجارى العلمية.

أرجو أن تكون هذه السيرة المختصرة لأبي محمد الحجارى حافزا لهمة شباب الأمة العربية والإسلامية أن يقوموا بدراسة علمية حول نتاج هذا العالم الكبير، لكي يتمكن الباحثون من معرفة محله من الحضارة الإنسانية، وليعرف الغرب والشرق المكانة العلمية التي احتلها العقل العربي الإسلامي في هذا المضمار.

الشريف الإدريسي

هو محمد بن محمد بن عبدالله بن إدريس، عاش بين سنتي ٤٩٣ و

٥٦٠هجرية، يكنى بأبي عبدالله ويلقب بالشريف الإدريسي، كان حفيدا لإدريس الثاني الحمودي أمير مالقة، وينتهي نسبه إلى الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولذا عرف بين المؤرخين باسم الشريف الإدريسي.

ولد الشريف الادريسي بثغر سبتة المغربي، وهي مدينة في غاية من الجمال، تقع شمال المغرب الأقصى (وهي تحت الاستعمار الأسباني في تلك الأيام) وعندما اشتد عوده انتقل إلى بلاد الأندلس واستقر ردحا من الزمن بمدينة قرطبة، وكانت آنذاك منضمة إلى المغرب الأقصى تحت حكم المرابطين، فتلقى تعليمه فيها، واهتم بصفة خاصة بعلم الجغرافية الذي أبدع فيه، أما وفاته ففيها خلاف وإن كان من المتواتر أنه توفي في صقلية.

ويذكر أغناطيوس كراتشكوفسكي في كتابه (تاريخ الأدب الجغرافي العربي الجزء الأول) أن أصل الشريف الإدريسي يعود إلى إدريس الأول مؤسس دولة الأدارسة الذي هرب من المشرق العربي إلى مراكش وأسس إمارة مستقلة بنواحي سبتة سنة ١٧٢هجرية، وكاد أن يحكم كل المغرب كما أنشأ ابنه إدريس الثاني مدينة فاس المغربية وحكم من سنة ١٧٧ هجرية إلى سنة ٢١٣هجرية. ثم تقلصت دولة الأدارسة في سنة ٣٧٥هجرية.

لقد احتضن حاكم جزيرة صقلية النورماندي روجار الثاني عددا من علماء العرب والمسلمين كان من بينهم بني حمود الأدارسة. ولما كان الملك مغرما بعلم الجغرافية، فقد دعا الشريف الإدريسي إلى جزيرة صقلية لشهرته في هذا العلم، ولما سمعه عنه من أبناء عمه (آل حمود). وعندما وصل الشريف الإدريسي إلى بالرمو عاصمة جزيرة صقلية أغدق روجار الثاني عليه الكثير من المال وأمره أن يؤلف له كتابا في الجغرافية يشمل المعارف الضرورية في هذا الميدان اختار الإدريسي مجموعة من العلماء البارزين والرسامين المتمكنين وبعثهم يجوبون العالم لجمع المعلومات الجغرافية لكتابه. فشرع الإدريسي في وضع كتابه المعروف باسم (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) الذي قضى في تأليفه خمسة عشر عاما، حيث بدأه في سنة ٥٣٣ هجرية وانتهى منه سنة ٥٤٨ هجرية. ويعتبر هذا الكتاب أحسن كتاب صنف في زمانه عن بلدان أوروبا والأندلس.

لقد ضمن الإدريسي كتابه هذا خرائط جغرافية لبعض المدن والجبال والأنهار

والبحيرات والبحار، وقدم وصفا كاملا للمسافات بين المدن بالميل والفرسخ لكل من بلاد أوروبا وآسيا وإفريقيا. لذا اهتم المستشرق الألماني كونراد ميلر (Konard Miller) بخرائط الإدريسي فاستخلص منها خريطة ملونة مكتوبة بالحروف اللاتينية للقارات الثلاث وذلك سنة ١٣٥٠ هجرية. ثم نقل هذه الخريطة إلى اللغة العربية كل من محمد بهجة الأثري وجواد على مستدركين بعض الهفوات التي وقع فيها ميلر. وقام المجمع العلمي العراقي سنة ١٣٧٠ هجرية بطبعها فخرجت هذه الخريطة بشكل جميل ورائع. والآن توجد بجميع مكتبات العالم تقريبا.

لقد أعد الإدريسي لروجار الثاني خريطتين نموذجيتين متكاملتين للعالم إحداهما على كرة من الفضة والأخرى على لوح مسطح من الفضة كذلك، فدرس على كل منهما حدود الأقاليم والأقطار والبلدان، وتعتبر هذه الكرة الفضية قد فقدت، ولم يبق إلا الخريطة المسطحة التي سماها الإدريسي لوح الرسم والتي رسمها واعتمد عليها أسماء البحار والبلدان والجبال والأنهار والخلجان والطرق وغيرها من مكونات علم الجغرافية مما جعل أبا عبدالله الإدريسي هو بحق مؤسس علم الجغرافية الحديثة.

وكالعادة ينسب علماء الغرب اكتشاف منابع نهر النيل إلى صمويل بيكر المولود في لندن سنة١٢٣٦ هجرية، علما بأن المراجع والوثائق الأولية الموجودة تعطي الأحقية بذلك الاكتشاف لأبي عبدالله الإدريسي الذي أتى قبل بيكر بمئات السنين، وكتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) للإدريسي يقدم لنا معلومات في غاية الأهمية عن المناطق النائية في قلب القارة الأفريقية، مما يؤكد لنا أنه هو صاحب الاكتشاف.

يقول حسين مؤنس في كتابه (تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس): إن الإدريسي يمثل القمة التي وصل إليها الجغرافي في الشرق والغرب على السواء، فقد أخذ من علوم اليونان خلاصة مافيه، وأخذ عن مدرسة الجغرافيين والفلكيين زبدة آرائهم، ثم أخذ عن مدرسة المسالكيين فكرة عمل الخرائط والأطالس واعتبارها أساس الجغرافية، وطور هذه الناحية من (أطلس الإسلام) إلى أطلس العالم)، وذلك هو تجديده الأكبر، فهو أول جغرافي في التاريخ نظر هذه النظرة العامة وسما إلى مفهوم عالمي للعلم الجغرافي، وحق له بذلك أن يوصف بأنه

أعظم جغرافي ظهر في الدنيا إلى مطلع العصر الحديث».

وبالإضافة إلى ذلك، فقد كتب الإدريسي في كل من علم النبات والصيدلة والطب والأدب، ولكن نبوغه في علمي الجغرافية والخرائط طغى على نتاجه في المجالات الأخرى. فله كتاب (الجامع لصفات أشتات النبات) وكتاب (الأدوية المفردة) اللذان يعتبران من أعظم المؤلفات في هذين الحقلين. وبذكائه الخارق وتواضعه النادر استطاع الإدريسي أن يحصل على بعض الحقائق العلمية للطرق التجارية بين دول العالم من خلال الروايات التي حصل عليها من أفواه التجار والملاحين وأهل الأسفار والرحالين.

وقد تفنن الإدريسي بدراسة الأقاليم السبعة المعروفة آنذاك، ولكنه أيضا قسم كل إقليم إلى عشرة أقسام وعمل لكل قسم خريطة خاصة به، فتكون لديه سبعون خريطة، وجمعها ورتبها ترتيبا علميا، فصار عنده خريطة للعالم على شكل مستطيل، بقيت من أهم المراجع التي يرجع إليها الباحثون في علم الجغرافية، ولعل من أهم الأعمال العلمية التي قام بها الإدريسي تحديده منابع نهر النيل والبحيرات الاستوائية التي فشل الغربيون بكل إمكانياتهم أن يعرفوها إلا في العصر الحديث.

وبحكم سمعة الإدريسي العلمية التي اشتهر بها وعلاقته القوية مع روجار الثاني ملك جزيرة صقلية تمكن من الحصول على المعلومات الجغرافية النادرة عن جميع أصقاع العالم التي كانت مقفلة في وجه العلماء والتجار العرب والمسلمين، ولذا قام الإدريسي بزيارات كثيرة لمعظم بلدان العالم باحثا عن الحقيقة. وحرصا منه على التجربة والمعاينة الشخصية لكثير من المعارف الجغرافية. ومن هنا استطاع الإدريسي بكل جدارة جمع مواد كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) الذي يحتوي على وصف جيد للمعمور من الأرض. لذا فإن إعادة تحقيق هذا الكتاب سيسد ثغرة كبيرة في البحوث الجغرافية في الجامعات العربية والإسلامية.

ونتاج الإدريسي في مجال علم الجغرافية يتصف بالأصالة وبدرجة عالية من الدقة، وذلك نتيجة لدراسته الطويلة ورحلاته الكثيرة شرقا وغربا والمعلومات الصادقة التي وصل إليها عن طريق الرواد والرسل الذين أوفدهم لجميع أنحاء العالم لحصر المعلومات الجغرافية الثمينة الخاصة بالمسالك والحدود والبحار والأنهار

والخلجان والجبال والسهول والنتاج الصناعي والزراعي والملاحات والحياة الاجتماعية والسياسية وغيرها من المعلومات التي تعتبر من مقومات علم الجغرافية. لذا ظهر نتاج الإدريسي الجغرافي متكاملا ومزودا بالخرائط الجغرافية الضرورية.

يعد الشريف الإدريسي جغرافيا متخصصا، فقد نذر نفسه لهذا العلم الحيوي وأنتج فيه نتاجا رائعا لم ينتجه عالم من قبل، وطوره حتى وصل به مصارف العلوم الكبرى وليس هناك عالم جغرافي في الحضارة العربية والإسلامية ذاعت سمعته بين المتخصصين في هذا الميدان في بلاد الغرب مثل الإدريسي، ومن الأمور التي ساعدت الإدريسي اعتماده التام على الخرائط الجغرافية التي ضمنها كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق).

الحقيقة أن الشريف الإدريسي لم يعطه المؤرخون والجغرافيون في العالم العربي والإسلامي حقه ولم يأخذ مكانه اللائق به في معاجم التراجم العربية والإسلامية، اللهم إلا نتفا لاتسمن ولاتغني من جوع ذكرها بعضهم مثل حاجي خليفة وصلاح الدين خليل الصفدي والعماد الأصفهاني، بينما نرى علماء الغرب المتخصصين في علم الجغرافية اهتموا به اهتماما بالغا، فنشروا نتاجه العلمي وترجموه إلى لغاتهم الحية. كما درسوا عن كثب جوانب الإدريسي المتعددة ووضعوه في صف بطليموس صاحب كتاب المجسطي.

ومما لاشك فيه أن الإدريسي خلف ثروة جغرافية لاتقدر بثمن أقبلت عليها علماء الغرب وصاروا يدرسونها في جامعاتهم العريقة أمدا طويلا، لذا بقي كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) مرجعا معتمدا لطلاب العلم، لأن صاحب الترجمة فتح آفاقاً جديدة في هذا المجال، لذا من الواجب على شباب أمتنا العربية والإسلامية أن يتجهوا لدراسة نتاج هذا العملاق وإظهاره للجيل العربي والإسلامي الجديد المتعطش إلى معرفة الوجه الأصيل من تراث أمته الذي استفاد منه العالم أجمع، وأثنى عليه علماء الغرب قبل علماء العرب والمسلمين أنفسهم.

السمعاني

هو عبد الكريم بن محمد بن المنصور التميمي السمعاني، يلقب بالمروزي،

ويكنى بأبي سعيد وفي بعض الأحيان بتاج الدين. ولد بمدينة مرو عاصمة خراسان سنة ٥٠٦ هجرية وتوفي هناك سنة ٥٦٢هجرية، وينتمي إلى قبيلة بني تميم من أكبر القبائل العربية، ولذا عرف باسم التميمي.

نشأ وترعرع أبو سعيد السمعاني يتيما في بيت علم ووقار، فمعظم أفراد عائلته من العلماء، بقى أبو سعيد يدرس الفقه والحديث وعلم الإنسان بمرو على يد كبار المفكرين بها فنبغ في هذه العلوم وذاع صيته ليس فقط بين معاصريه ولكن في جميع ربوع الدولة العربية والإسلامية.

كان والده محمد رجلا فاضلا فقيها ألمعا شاعرا ملهما عاش فيما بين (٤٦٦-٥١٠هجرية). أما جده المنصور (المتوفى سنة٤٨٩ هجرية) فكان قائد عصره، ومن كبار المفكرين، وله مؤلفات كثيرة كلها في العلوم الشرعية واللغوية ومنها: منهاج أهل السنة، والرد على القدرية، وتفسير القرآن الكريم وغيرها.

تنقل أبو سعيد السمعاني في معظم البلدان الإسلامية مثل بغداد ودمشق ومكة المكرمة وبلخ وهراة وغيرها والتقى بجهابذة الفكر في الدولة العربية والإسلامية وتبادل معهم الرأي في العلوم الشرعية والتاريخية والجغرافية. وعاد إلى مسقط رأسه مدينة مرو، وامتهن التدريس هناك، فصار طلاب العلم يأتون إليه من كل فج.

ألف أبو سعيد السمعاني كتاب الأنساب في ثمانية مجلدات دون فيه معلومات ذات أهمية عظيمة عن رحلاته المتعددة وأنساب العرب والقبائل الشهيرة، وفيه اعتمد على المصادر الأولية القديمة وعلى ماسمعه من شيوخ قبائل العرب.

ويذكر حاجي خليفة في كتابه (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون) أن كتاب الأنساب لأبي سعيد السمعاني المتوفى سنة ٥٦٢ هجرية كتاب عظيم في هذا الفن يتكون من ثمانية مجلدات، ولكنه قليل الوجود، مما دفع أبا الحسن علي بن محمد بن الأثير الجوزي المتوفى سنة٦٣٠ هجرية أن يختصره في ثلاثة مجلدات وسماه (اللباب في معرفة الأنساب). ثم لخصه ونقحه جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفى سنة٩١١ هجرية وسماه (لب اللباب في تحرير الأنساب).

اتبع أبو سعيد السمعاني في تصنيف كتابه الأنساب طريقة المعاجم، فنسب كل شخص ذكره في هذا الكتاب إلى قبيلة أو صناعة أو تجارة، ولذا صار كتاب

الأنساب من المراجع الضرورية للباحثين في مجالي علم الجغرافية والتاريخ.

اهتم أبو سعيد السمعاني في مؤلفاته المتعددة بالجانب الجغرافي، فعندما بدأ في كتابة مذكرات رحلاته في العالم العربي والإسلامي ركز على السكان والحياة الثقافية، وكذلك معرفة أسماء الأماكن والبقاع التي على الربع المسكون من الأرض، لذا ظهرت معظم مؤلفاته جامعة لمختلف المعارف.

ولصاحب الترجمة كتاب رائع عن مرو المدينة التاريخية العظيمة، والمعنون «تاريخ مرو» يقع في أكثر من عشرين مجلدا، عرض فيها خبرته المنهجية في كتاب التاريخ وأثبت فيه التطور الفكري الذي مر به سكان مرو عبر العصور فاعتمدت طريقته في وصف مدينة مرو عند المؤرخين والجغرافيين منهجا للتأليف.

عكف أبو سعيد السمعاني على البحث والتنقيب لما كتبه علماء العرب والمسلمين في معظم فروع المعرفة، فاستفاد من ذلك فتنوعت مصنفاته. وقد رصد إسماعيل باشا البغدادي في كتابه (هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين) عددا كبيرا منها: تحفة المسافر، والإملاء والاستملاء، وذيل تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، والدعوات النبوية، والرسائل والوسائل، وسلوة الأحباب وترجمة الأصحاب، وطراز الذهب في أدب الطلب، وغبرة العزلة، وصوم الأيام البيض، والمصافحة والمجير الكبير، وبغية المشتاق إلى ساكني بغداد والنزوع إلى الأوطان، ومعجم الشيوخ، والأخطار في ركوب البحار، والجبير في المعجم الكبير، والتذكرة والتبصرة، الربح والخسارة في الكسب والتجارة، معجم البلدان، وفرط العزام إلى ساكني الشام أرسله إلى ابن عساكر في ثمانية أجزاء وغيرها.

وبخلاصة القول أنه عند النظر لمؤلفات أبي سعيد السمعاني يتضح أنه كان رحمه الله فقيها محدثا حافظا نسابة جغرافيا مؤرخا مفسرا، إنه موسوعة تمشي على قدمين، فلله دره.

نما أبو سعيد السمعاني في بيت علم، لذا لمع في سماء العلم ولاسيما في مجالي التاريخ والجغرافية وقد أنتج نتاجا مفيدا لطلاب العلم والباحثين ليس فقط في ميداني التاريخ والجغرافية ولكن أيضا في العلوم الشرعية واللغوية.

إن مؤلفات عالمنا الجليل تاج الدين السمعاني حافلة بالآراء والنظريات

الأصيلة التي لم يسبقه إليها أحد من العلماء. فقد ثابر على الدراسة والتحليل والتدقيق رغبة منه في كشف الحقيقة والوقوف عليها لأنه يرى شخصيا في الاستقصاء والمتابعة لذة هي أسمى أنواع اللذات. فله اليد الطولى في ارتقاء المدينة وازدهارها.

والكثير من القراء يعرفون تمام المعرفة مكانة تاج الدين السمعاني في كل من العلوم الشرعية واللغوية والتاريخية. ولكن القليل جدا يعرف فضله في حقل علم الجغرافية. لذا رأينا أن نكتب هذه الترجمة المختصرة له وننوه عن نبوغه في علم الجغرافية.

نعم لقد كتب عن أبي سعيد السمعاني كثير وأنصف بعض الشيء واعترف بأنه من أصحاب الثقافة العالية والاطلاع الواسع، والمواهب الفريدة والذكاء النادر في كل من العلوم الشرعية واللغوية والتاريخية. ولكن لم يأخذ حقه في إبراز مكانته العلمية في موضوع علم الجغرافية.

أبو حامد الغرناطي :

هو محمد بن عبدالرحيم بن سليمان بن ربيع القيسي الغرناطي، ويكنى بأبي حامد الغرناطي، ولد في غرناطة سنة ٤٧٣هجرية وتوفي في دمشق سنة ٥٦٥هجرية عن عمر يناهز ٩٢سنة. نشأ وترعرع في غرناطة، ولكنه غادرها وهو في ريعان شبابه في السابعة والعشرين من العمر.

يذكر حسين مؤنس في كتابه (تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس) أن أبا حامد الغرناطي لم يستقر في مكان معين، بل زار المغرب الأقصى ووصل إلى سجلماس التي كانت مركزا تجاريا مرموقا على الحدود الشمالية للصحراء الكبرى، ثم منها إلى تونس الخضراء، وانتقل إلى الإسكندرية سنة ٥١١ هجرية ثم إلى القاهرة وبقى فيها مدة يتلقى العالم على يد كبار المفكرين هناك، ومنها اتجه إلى بغداد سنة ٥١٦ هجرية ومكث فيها أربعة أعوام متواصلة ثم ساح إيران وعبر بحر قزوين حيث وصل مصب نهر الفولجا.

واستمر أبو حامد الغرناطي متنقلا في بلدان العالم، فزار خوارزم ثم هنغاريا (المجر) وذلك سنة ٥٤٥ هجرية وبقى هناك ردحا من الزمن. ثم عاد إلى بغداد

ومنها أدى مناسك الحج وقضى بقية حياته بين بغداد والموصل ودمشق يدون مشاهداته وتجربته العلمية الثمينة تلك هي حياة هذا الرحالة العملاق الذي أفنى عمره يجوب الآفاق ويرمي بنفسه في المخاطر يدفعه إلى ذلك شوق عظيم إلى المجهول ورغبة لاتخبو في الوقوف على غرائب هذا الكون الواسع وبدائع صنع الله فيه.

وكان نتائج هذه الرحلات التي قام بها أبو حامد الغرناطي جمع معلومات جغرافية كثيرة ومتنوعة وضعها في كتابه (تحفة الألباب ونخبة الإعجاب) الذي يحتوى على مادة جزلة كثيرة الفائدة وغنية المتعة.

وكتاب (تحف الألباب ونخبة الإعجاب) يوجد في معظم مكتبات العالم كمخطوط (باريس ولينينجراد والمتحف البريطاني وجوتا والجزائر) وأضاف حسين مؤنس في كتابه المذكور سابقا أن مكتبة باريس الأهلية وحدها فيها خمس مخطوطات منه.

والحق أن (كتاب تحفة الألباب ونخبة الإعجاب) لأبي حامد الغرناطي لقى عناية من العلماء المعاصرين في العالم ماحظى به من تقدير من القدماء، فعكف على دراسته نفر كبير من الجغرافيين في المعمورة، ونشروا منه قطعا، وترجموا قطعا أخرى إلى لغات أوربية شتى، ونشره كاملا المستشرق الفرنسي جابرييل فيران سنة ١٣٤٤هجرية، وخدمه بتعليقات وشروح إضافية ذات قيمة علمية كبرى.

أما كتاب أبي حامد الغرناطي الثاني (كتاب المعرب في بعض عجائب المغرب) فهو أول محاولة له في مجال علم الجغرافية، وقد كتبه سنة ٥٥٦ هجرية ببغداد بتكليف من الوزير عون الدين بن هبيرة. ويذكر حسين مؤنس في نفس الكتاب آنف الذكر أيضا أن هناك لهذا الكتاب مخطوط في أكاديمية التاريخ في مدريد (مجموعة جايانجوس رقم٣٢). وأخرى في مكتبة كيمردج تحت رقم٨٥٣.

أجمع المؤرخون للعلوم أن أبا حامد الغرناطي رائد الأدب الكوزموغرافي في الجغرافية العربية والإسلامية، حيث إنه دمج الحياة الاجتماعية والحالة الاقتصادية في علم الجغرافية، واعتبرهما من أسس علم الجغرافية الوصفية. لذا لاعجب أن يكون أبو حامد الغرناطي مؤسس المدرسة العجائبية أو الكوزموغرافية في الحضارة العربية الإسلامية.

وخلاصة القول أنه مما لاشك فيه أن أبا حامد الغرناطي حصل على تكريم وتقدير قادة البلدان التي زارها، لأنه كان عالما باحثا فذا يريد أن يصل إلى الحقيقة مهما كلفه ذلك، لهذا السبب وضعه بعض كبار الجغرافيين في قائمة علماء تخطيط البلدان.

ومن المحزن أنه لم يكتب عن هذا العالم الجليل مايشفى غليل المحقق التواق إلى معرفة الحقيقة الناصعة عن أبي حامد الغرناطي، اللهم إلا حسين مؤنس فقد عرض قصة حياته في كتابه (تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس).

اندهش علماء المشرق والمغرب على السواء من أبي حامد الغرناطي الذي غادر مسقط رأسه بلاد الأندلس بلا عودة لطلب العلم للعلم. ولاريب فإن طبيعة أبي حامد الغرناطي النفسية كانت عاملا مهما وقويا في نجاح رحلاته الاستكشافية، لأنه انشغل في البحث والاستقصاء والمتابعة، حيث يشعر أن ذلك متاعا للعقل وراحة له.

ظل فضل أبي حامد الغرناطي في ميدان علم الجغرافية محجوبا عن القراء مدة طويلة إلى أن سخر رب العزة والجلال حسين مؤنس لدراسة تاريخ الجغرافيين العرب والمسلمين في الأندلس، فسلط حسين مؤنس الأضواء على مكانة أبي حامد الغرناطي الجغرافية، وعلاقته القوية في الحكام الذين كانوا يحترمونه لأنه يمتلك لسانا لبقا وبليغا.

نعم يجب أن نفخر بأبي حامد الغرناطي الذي فتح الطريق للانتصارات الجغرافية العظيمة والرائعة، لذا من الضروري أن يعرف فلذات أكبادنا نتاجه في هذا المجال، فقد ساح في كل من أفريقيا وآسيا وأوروبا باحثاً وراء الحقيقة العلمية التي كانت هدفه الأساسي. فلله دره.

اليسع بن على الغافقي

هو اليسع بن عيسى بن حزم بن عبدالله الغافقي الجياني الأندلسي، ويكنى بأبي يحيى ويلقب بالغافقى، لانعرف متى ولد، أصله من جيان، لذا سمى الجياني. كما أنه قطن ألمرية مع والده، وتوفي في القاهرة سنة٥٧٥ هجرية هرما.

نشأ اليسع الغافقي وترعرع في بيئة علمية، فكان والده من كبار علماء الحديث

في الأندلس تتلمذ اليسع في باكورة حياته على يد والده في العلوم الشرعية. كما أن الابن استفاد استفادة عظيمة من معارف والده ليس فقط في مدينته ولكن في معظم المدن الأندلسية.

عاش اليسع الغافقي في فترة من الزمن كانت الاضطرابات والفوضى منتشرة وعلى أشدها في الأندلس، ولكنه وقف ثابت القدمين متحديا النصارى وأعوانهم، ويظهر ذلك واضحا في خطبة في المسجد كل يوم جمعة، حيث كان يندد بأعداء الإسلام بكل صراحة ويفخر بسلامة سماحة العقيدة الإسلامية.

حصل لليسع الغافقي مضايقات شديدة من النصارى في الأندلس، مما جعله يتجه إلى التجوال في بلدان المشرق العربي والإسلامي؛ لذا تمكن من أن يتتلمذ على يد كبار المفكرين هناك مما ساعده على النبوغ في كل من الجغرافية والتاريخ والحديث والفقه. كما استطاع بجدارة فائقة النظير أن يكتب تصورا رائعا لرحلته المشرقية يوحي بطول باع وعلو كعب ليس فقط في علم الجغرافية ولكن في كل من التاريخ والأدب.

سكن اليسع الغافقي مصر مدة طويلة من الزمن، فذاع صيته بين علمائها، فعلم عنه صلاح الدين الأيوبي وحظى به لمكانته العلمية العالية، وصار من العلماء المقربين للقائد العربي والمسلم المخلص المظفر.

لقى أبو يحيى الغافقي كل تقدير وتكريم من صلاح الدين الأيوبي، وأعانه على البحث والدراسة حيث منحه مرتبا شهريا يكفيه مؤنة الحياة، لذا تفرغ اليسع الغافقي للبحث والتأليف مدة إقامته في مصر، حيث نال شهرة عالية بين معاصرية في مؤلفاته المتنوعة التي أتمها هناك.

تميز اليسع الغافقي عن بعض علماء العرب والمسلمين في طريقة عرضه الأحاديث النبوية فكان يلقب بالفقيه المحدث، وذلك لاجتهاده وتحريه الحقيقة. كما أنه كان بليغا رطب اللسان متكلما ملهما الحكمة.

يتضح أن اليسع الغافقي تطور تكوينه العلمي في مصر، فقد كان ينتقل من الإسكندرية إلى القاهرة باحثاً عن جهابذة الفكر، ممايدل على وعيه المتكامل. فقد استخدم وقته الثمين في البحث عن الحقيقة العلمية، حتى صار عالما في معظم فروع المعرفة وخاصة علم الجغرافية. لقد طغت سمعة اليسع الغافقي في العلوم

الشرعية على نتاجه العلمي في علمي الجغرافية والتاريخ، علما أنه كان عارفا في علم الجغرافية وله مكانة مرموقة بين علمائها لثقافته وسعة اطلاعه في هذا المجال الحيوي.

يعتبر كتاب (المعرب في محاسن المغرب) لليسع الغافقي من أهم المصادر في علمي الجغرافية والتاريخ لبلدان المغرب والأندلس، حيث ضمنه خبرته ومشاهداته الشخصية التي حصل عليها من تجواله في العالم العربي والإسلامي. كما اعتمد على بعض المراجع المشهود لمؤلفيها بالدقة والأمانة.

لقد نوه عن كتاب (المعرب في محاسن المغرب) لأبي يحيى الغافقي كل من حاجي خليفة في كتابه (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون)، وإسماعيل باشا البغدادي صاحب كتاب (هدية العارفين : عن أسماء المؤلفين وآثار المصنفين)، مما يدل على أن هذا الكتاب ذا قيمة علمية جيدة.

كتب اليسع الغافقي في الجغرافية الطبيعية كتابة في غاية الأهمية ضمنها كتابه (المعرب في محاسن المغرب)، حيث ركز على تطوير المحصولات الزراعية، فكان يعتقد أن الزراعة ضرورية لأي بلد يريد أن يعيش، لذا قدم وصفا علميا للإنتاج الزراعي في الأندلس والمغرب يوحي براسة عميقة في هذا الميدان.

يمكن أن يقال إن اليسع الغافقي قد بالغ بعض الشيء في وصفه لبلاد الأندلس، ولكن يجب أن يعرف القارىء الأسباب التي دفعته لذلك؟ فقد ترك اليسع الغافقي بلاده الأندلس تغلي بالمشاكل السياسية والاقتصادية، وذلك في فترة كان النصارى يحتلون مدن الأندلس واحدة بعد أخرى. فلهذا السبب يريد اليسع بن عيسى الغافقي أن يشحذ الهمم لإنقاذ بلاده واسترجاعها من أعداء الإسلام.

كان اليسع الغافقي يرى أن تغنيه في مدن الأندلس الجميلة سوف تكون حافزا لأصحابه في مصر الذين كانوا يجالسون صلاح الدين الأيوبي. وبالفعل صار لهذا بعض الصدى وذلك بأن بدأ صلاح الدين الأيوبي علاقة صداقة وتعاون مع الموحدين في بلاد المغرب العربي.

وخلاصة القول فقد كان اليسع الغافقي مجهولا، ولكن الفضل يعود لكل من ابن الأبار الذي تحدث عن كتابه (المعرب في محاسن المغرب) في كتابه المشهور

(صلة التكملة)، وأما المقرى فقد أورد بعض الفقرات الثمينة من كتابه المذكور آنفا في كتابه (نفح الطيب)، وذكره ابن حجر في كتابه (لسان الميزان)، لذا عرف اليسع الغافقي بين العلماء والباحثين ليس فقط كفقيه ولكن كجغرافي ومؤرخ.

ومن الفقرات التي استشهد بها المقرى في كتابه (نفح الطيب) المكانة العلمية التي احتلها اليسع بن عيسى الغافقي بين علماء عصره والتي تدل على اطلاع واسع وتكوين علمي متين في علمي الجغرافية والتاريخ.

لقد حان الوقت أن يبدأ شباب الأمة العربية والإسلامية في التنبيش عن جميع نتاج هذا العالم صاحب العقل المتيقظ وإخراجه لعلماء العصر الحديث ليروا بأعينهم المعين الذي لا ينضب.

الحقيقة أن اليسع الغافقي في حاجة ماسة إلى إبراز مناقبه العلمية وجليها من الغبار وغيوم النسيان. ولاشك أن في إظهارها خدمة له وللحقيقة العلمية. كما أن عرض إسهامات هذا العالم الجليل على الناشئة من العوامل التي تحثهم على الاعتزاز بحضارتهم الإنسانية.

أرجو من الله تبارك وتعالى أن أكون قد وفقت في تقديم هذه السيرة المختصرة لعالمنا العظيم اليسع بن عيسى الغافقي. وأن يكون منهج أبي يحيى اليسع الغافقي محركا للباحثين في العالم العربي والإسلامي لرفع مستوى المدينة وإعلاء شأنها.

ابن بشكوال

هو خلف بن عبدالملك بن مسعود بن بشكوال، يكنى بأبي القاسم، ويلقب بالخزرجي الأنصاري القرطبي.

ولد ابن بشكوال بمدينة قرطبة سنة ٤٩٤هجرية وتوفي هناك عن عمر يناهز ٨٤سنة تقريبا. وقد نشأ وترعرع في بيت علم، فوالده من رواة الحديث، لذا نرى أثر البيئة العلمية عليه، حيث نبغ في كل من التاريخ والجغرافية والأدب بجانب تفوقه في العلوم الشرعية التي تلقاها على يد والده.

والحق أن أبا القاسم بن بشكوال كان مؤرخا بارزا وجغرافيا واسع الاطلاع، فقد درس عن كثب جميع ما أفرزته قريحة علماء العرب والمسلمين في مجال علم

الجغرافية. ولكن تميزه في العلوم الشرعية طغت على مكانه في العلوم الأخرى. فقد كان مرجعا عظيما في كل من الفقه والحديث والشعر.

وتتلمذ ابن بشكوال على يد جهابذة الفكر في كل من إشبيلة وبغداد، فبرز بين علماء عصره وصار طلاب العلم يأتون إليه من كل فج للنهل من هذا الينبوع العذب. ويعتبر من فطاحة الحضارة العربية والإسلامية.

قضى ابن بشكوال معظم حياته في البحث والتحقيق والاستقصاء، فقد بلغت مؤلفاته خمسين مؤلفا منها: كتاب الصلة، وكتاب التاريخ الصغير في أحوال الأندلس، وكتاب الغوامض والمبهمات، كتاب معرفة العلماء الأفاضل، وكتاب الحكايات المستغربة، وديوان شعر وغيرها ومما لاشك فيه أنه صاحب همة وإبداع.

يقول بن الأبار في كتابه التكملة «كان ابن بشكوال رحمه الله متسع الرواية شديد العناية بها، عارفا بوجوهها، حجة فيما يرويه ويسنده مقلدا فيما يلقيه ويسمعه، مقدما على أهل وقته في هذا الشأن معروفا بذلك حافظا حافلا، إخباريا ممتعا، تاريخيا مفيدا، ذاكرا لأخبار الأندلس القديمة والحديثة.. وحدثنا عنه جماعة من شيوخنا الجلة ووصفوه بصلاح الدخلة، وسلامة الباطن وصحة التواضع، وصدق الصبر للراحلين إليه، ولين الجانب، وطول الاحتمال رجاء المثوبة».

اعتمد ابن بشكوال في نظرياته الجغرافية على الرواية المأثورة ومراسلاته التي كانت منتشرة بينه وبين علماء عصره في المغرب والمشرق، فقد استخدم في مؤلفاته جميعها المصادر المتداولة والمعروفة، كما أبرز خبرته الشخصية التي حصل عليها من رحلاته المتكررة لبلاد الشرق والغرب. فقد كان ابن بشكوال يدون كل مايعن له في زياراته، لذا كانت آراؤه وأفكاره الجغرافية ناضجة ومفيدة للباحثين في هذا الميدان.

رأى ابن بشكوال أن كتاب (تاريخ علماء الأندلس) للقاضي أبي الوليد عبدالله بن الفرضي يحتاج إلى تكملة، فعكف عليه وألف له ذيلا سماه (كتاب الصلة) في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، وخرج هذا الكتاب بمجلدين يحتويان على معلومات فريدة من نوعها ليس فقط في علم التاريخ ولكن أيضا في علم الجغرافية وغيرها من العلوم النافعة.

يقول أبو القاسم بن بشكوال في مقدمة كتاب (الصلة) «الحمدلله الذي فطر بقدرته الأنام، وفضل بعضهم على بعض في الأفهام، وصلى الله على محمد، وآله وصحبه البررة الكرام. أما بعد: فإن أصحابنا ـ وصل الله توفيقهم، ونهج إلى صالحة من الأعمال طريقهم ـ سألوني: أن أصل لهم كتاب القاضي الناقد: أبي الوليد عبدالله بن محمد بن يوسف الأزدي الحافظ، والمعروف بابن الفرضي (رحمه الله)، في رجال علماء الأندلس، وأن أبتدىء من حيث انتهى كتابه، وأن أصل تأليفه، متصلا إلى وقتنا. وكنت قد قيدت كثيرا: من أخبارهم وآثارهم، وسيرهم وبلدانهم وأنسابهم ومواليدهم ووفياتهم، وعمن أخذوا، ومن روى عنهم من أعلام الرواة، وكبار الفقهاء فسارعت إلى ماسألوا، وشرعت في ابتدائه على ماأحبوا ورتبته على حروف المعجم: ككتاب ابن الفرضي، وعلى رسمه وطريقته».

قام فرانسسكو كوديرا (F.Codera) على طبع كتاب الصلة لأبي القاسم بن بشكوال في مدريد سنة ١٣٠٠ هجرية وظهر لهذا الكتاب طبعة أخرى سنة ١٣٧٥ هجرية في القاهرة منقحة بقلم السيد عزت العطار. ثم أصدرت الدار المصرية للتأليف والترجمة ضمن المكتبة الأندلسية سنة ١٣٨٦هجرية) نسخة متكاملة من مجلدين، وهكذا صار كتاب الصلة في متناول الباحثين في جميع أصقاع العالم.

وخلاصة القول أن ابن بشكوال عرف بين زملائه بأمانته ونزاهته وعفته. كان رحمه الله واسع الثقافة حريصا ودقيقا لما يكتبه، وذلك بالتأكد من مراجعه العلمية التي يستعملها كما كان موفقا في استخدامه للعبارات العربية المؤثرة على القارىء، لذا صار لمؤلفاته وقعا خاصا.

ولايخفى على القارىء أن ابن بشكوال خلف لنا معينا من العلم لاينضب أبدا، فقد كانت مصنفاته الخصبة الينبوع الذي نهل منه معظم علماء العرب والمسلمين، فهو في الحقيقة موسوعة علمية تمشي على قدمين.

كان ابن بشكوال ذا مقام عظيم عند معاصريه في علم الجغرافية، وذلك لما سجله من معلومات جغرافية عن العالم العربي والإسلامي في مؤلفاته، لذا رأينا أن نضعه في قائمة علماء العرب والمسلمين في هذا الحقل الحيوي. فهو من علماء

العرب والمسلمين الذين لهم أكبر الأثر في تقدم علم الجغرافية. فمؤلفاته كانت من أهم المراجع التي ساعدت على الارتقاء بعلم الجغرافية في الحضارة العربية والإسلامية.

والعجيب أن المصادر العربية والإسلامية لم تعطه حقه من البحث والتنقيب والاستقصاء في ميدان علم الجغرافية، فبقى الغموض يحيط بابن بشكوال في هذا الحقل الحيوي.

ومع شديد الأسف أن الباحثين عادة يركزون على النواحي الشديدة اللمعان عند العالم ويهملون الجوانب الأخرى إهمالا معيبا. وهذا ماحدث لعالمنا الجليل ابن بشكوال في مجال علم الجغرافية. والمعروف أن له شهرة مرموقة في العلوم الشرعية عبر التاريخ. ولكن القليل جدا يعرف دوره في تطوير علم الجغرافية.

والحقيقة التي لاتقبل الجدل أن ابن بشكوال كان جغرافيا كبيرا وأن له جولة وأفكار سديدة في علم الجغرافية. أرجو أن تكون هذه الترجمة المختصرة لابن بشكوال حول مكانته الجغرافية حافزا لشباب الأمة العربية والاسلام ليقدموا لنا دراسة متكاملة عن نتاج ابن بشكوال في علم الجغرافية.

أسامة بن منقذ

هو أسامة بن مرشد بن علي بن منقذ، المشهور باسم مؤيد الدولة، وفي بعض الأحيان يطلق عليه اسم الكناني الشيرزي، نسبة إلى مسقط رأسه، فقد ولد سنة٤٨٨ هجرية في شيرز البلدة الصغيرة التي تقع على نهر العاصي بالقرب من حماة. وتوفى سنة٥٨٤ هجرية في دمشق عن عمر يناهز ٩٦ سنة.

نشأ وترعرع أسامة بن منقذ في بيت علم ومعرفة، فوالده الأمير مرشد بن علي بن منقذ بذل كل غال ونفيس لتعليمه وتربيته التربية الإسلامية. فكان والده رجلا فاضلا ورعا يحفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب، ويحب مجالسة العلماء مما أثرى حياة ابنه أسامة.

ينتمي أسامة بن منقد لسديد الملك على منقذ الكناني المتوفى سنة٤٨٩هجرية، الأمير الشجاع الكريم المقدام والذي كان شاعرا، وله ديوان جيد. كما أنه أول من حكم قلعة شيرز من بني منقذ التي كانت بيد الروم فاستولى

عليها سنة ٤٧٤هجرية.

ينقل لنا ياقوت الحموي في موسوعته (معجم الأدباء الجزء الخامس) عن عماد الدين الأصفهاني أنه قال: «أسامة كاسمه، في قوة نثره ونظمه، يلوح من كلامه أمارة الإمارة، حلو المجالسة، حالي المساجلة، ندى الندى بماء الفكاهة، عالي النجم في سماء النباهة، معتدل التصاريف، مطبوع التصانيف».

ذاع صيت أسامة بن منقذ بين معاصريه لعلمه وحكمته، فنال حظوة من صلاح الدين الأيوبي، وقربه منه وانتقل أسامة بن منقذ من دمشق إلى مصر مع صلاح الدين الأيوبي وذلك سنة ٥٤٠هجرية وبقى هناك ردحا من الزمن يعلم ويطلب العلم في مراكز المعرفة هناك.

أدى أسامة بن منقذ فريضة الحج سنة ٥٥٧ هجرية وعمل اتصالاته العلمية هناك، وقرر أن يتفرغ للعلم، فبدأ في دراسة الأدب والتاريخ والجغرافية، وعكف على ذلك فكتب كتابه (المنازل والديار) الذي انتهى من تأليفه سنة٥٦٨ هجرية. وقد نشره مصطفى حجازي سنة١٣٨٨ هجرية في القاهرة. لذا صار في متناول الباحثين.

نال أسامة بن منقذ شهرة عظيمة من كتابه (كتاب الاعتبار) الذي يعتبر مرآة الحضارة العربية والإسلامية ليس فقط في علم الجغرافية ولكن أيضا في علمي التاريخ والأدب. فقد تحدث فيه عن مظاهر وخصائص الحضارة العربية والإسلامية، وقدم وصفا مفصلا عن رحلاته التي توحي بثقافة واسعة.

اهتم علماء الغرب في (كتاب الاعتبار) لابن منقذ لأنه اعتمد في تأليفه على المصادر الأولية التي حصل عليها عن طريق صلاح الدين الأيوبي، حيث كان أسامة بن منقذ مستشارا له، إضافة إلى ماعرف عنه من أمانة وصدق وحسن تصرف، فهو عالم حكيم قضى معظم حياته في البحث والتنقيب والاستقصاء في مصنفات علماء العرب والمسلمين الأوائل في كل من علم الجغرافية وعلم التاريخ لذا خرجت مؤلفاته العديدة غزيرة بالمادة العلمية.

فأول من أشاد بكتاب الاعتبار لابن منقذ المستشرق ديرنبورج (H. Derenbourg)، حيث نشره سنة ١٣٠٤ في باريس. ثم ترجمه المستشرق الألماني شومان (Schuhmann) سنة١٣٢٣هـ إلى اللغة الألمانية. وفي سنة ١٣٤١هجرية ترجمه

المستشرق الروسي سيلر (Sallier) إلى اللغة الروسية. لهذا صار هذا الكتاب معروفا ومتداولا في المحيط العلمي.

وفي سنة ١٣٤٨ هجرية ترجم المستشرق الإنجليزي بوتر (Poter) (كتاب الاعتبار) لأسامة بن منقذ إلى اللغة الإنجليزية وصدر في لندن. كما أن (فليب حتى) رأى أنه من الضروري ترجمة هذا الكتاب من مخطوطته الأصلية التي توجد في مكتبة الأسكوريال القريبة من طليطلة، وبالفعل أنجز هذا العمل الحميد سنة١٣٤٩ هجرية وظهر في مكتبات نيويورك، وبقي هذا الكتاب من أهم المصادر للدارسين والباحثين في ميدان علمى الجغرافية والتاريخ.

يتضح للقارىء المكانة العلمية التي وصل إليها العالم أسامة بن منقذ، فقد احتل مركزا مرموقا بين علماء عصره، لذا نرى أن المستشرقين اندفعوا اندفاعا ملحوظا على دراسة وتحقيق نتاج ابن منقذ العلمي.

ولأسامة بن منقذ مؤلفات أخرى لاتقل أهمية عن كل من كتاب الاعتبار وكتاب المنازل والديار وهي: كتاب البديع في البديع، وكتاب لامية الأدب، وكتاب تلخيص مناقب العمرين لابن الجوزي، وكتاب العصا وغيرها.

وخلاصة القول أن حياة أسامة بن منقذ كانت حافلة بالمغامرات والبطولات، فقد عاش في فترة من الزمن كانت الأمة العربية والإسلامية في حالة يرثى لها حيث كانت الحملات الصليبية العدوانية على أشدها في بلاد الشام.

لقد امتازت مؤلفات أسامة بن منقذ بأمانة النقل وصدق الرواية وسهولة وسلاسة الأسلوب، حيث كان يروي رحلاته ومشاهداته الجغرافية والأثرية بطريقة قصصية رائعة وممتعة.

نعم كان أسامة بن منقذ فارسا مجاهدا وأديبا وجغرافيا ومؤرخا وسياسيا من الصنف الأول، عرف عنه حسن التخطيط والدهاء، لذا استفاد من مشورته صلاح الدين الأيوبي.

أرجو أن أكون قد قدمت خدمة للعلامة أسامة بن منقذ في تدوين هذه الترجمة الموجزة والتي أتمنى منها أن تكون محركا قويا لدراسة أفكار عالمنا الجليل في حقل علم الجغرافية، لكي يتعرف شباب أمتنا العربية والإسلامية على مكانته في هذا المجال الحيوي.

الهروي:

هو علي بن أبي بكر بن علي الهروي، يكنى بأبي الحسن ويلقب بالموصلي، أصله من هراة ولكنه استوطن الموصل، ومن هنا جاء لقبه الموصلي. اشتهر بكثرة رحلاته، ولذا عرف باسم السائح. لا نعرف شيئا عن طفولته، توفي بمدينة حلب سنة ٦١١ هجرية.

كان لنتاج الرحالة محمد بن جبير (٥٤٠-٦١٤ هجرية) المعاصر للهروي أثرا عظيما على مجرى حياته العلمية. فقد تقمص الهروي شخصية ابن جبير، لذا بدأ حياته العلمية في جمع المعارف الجغرافية والتاريخية والأدبية عبر مشاهداته ولقاءاته بكبار المفكرين وقراءاته للمراجع المعروفة الموثوق بها. فاستطاع بجدارة أن يحصل على معلومات جغرافية وتاريخية وأدبية عن جميع العالم الإسلامي، ولكن للأسف فإن المذكرات التي جمعها في زياراته العلمية المتعددة سرقها لصوص ريكاردوس الصليبي المتمركز في جنوب فلسطين سنة ٥٨٨ هجرية، واعتمد في تأليفه كتابه (الإشارات إلى معرفة الزيارات) على ذاكرته المتوقدة، فخرج هذا الكتاب من أروع المصنفات في هذا الميدان.

يقول ابن خلكان في كتابه (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ـ المجلد الثالث) طاف الهروي البلاد وأكثر الزيارات، وكان يطبق الأرض بالدوران، فإنه لم يترك برا ولا بحرا ولا سهلا ولا جبلا من الأماكن التي يمكن قصدها ورؤيتها إلا رآه، ولم يصل إلى موضع إلا كتب خطه في حائطه، ولقد شاهدت ذلك في البلاد التي رأيتها مع كثرتها، ولما سار ذكره بذلك واشتهر به ضرب به المثل فيه.

زار الهروي بلاد الشام ومصر والمغرب وبلاد الروم والعراق ومكة المكرمة والمدينة المنورة واليمن وبلاد فارس وغيرها للتتلمذ على يد جهابذة الفكر وللنهل من مكتباتها الغنية في الكتب العلمية آنذاك، ويظهر ذلك في كتابه (الإشارات إلى معرفة الزيارات) الذي كان حافلا بالمعلومات الجغرافية والتاريخية ليس فقط عن البلاد الإسلامية ولكن عن العالم أجمع، لذا صار هذا الكتاب من أهم المصادر للباحثين في مجال الرحلات الجغرافية عبر العصور.

يقول الهروي في مقدمة كتابه (الإشارات إلى معرفة الزيارات) الحمد لله حق حمده وصلاته على خير خلقه محمد الأمي وآله وصحبه. أما بعد فإنه سألني بعض

الإخوان الصالحين والخلان الناصحين أن أذكر له ما زرته من الزيارات، وما شاهدته من العجائب والأبنية والعمارات، وما رأيته من الأصنام والآثار والطلسمات في الربع المسكون والقطر المعمور، ووقع الامتناع إلى أن حصل الاجتماع برسول وفد من الديوان العزيز شرفه الله وعظمه وتبركنا بزيارته واستسعدنا برؤيته، إذ كان قدومه من دار السلام وقبة الإسلام وذكر الفقير للرسول زيارات. فوقع الابتداء بذكر الزيارات من مدينة حلب. ثم أذكر الشام بأسرها والساحل بأسره وبلاد الفرنج وفلسطين. وديار مصر بأسرها والصعيدين والبلاد البحرية والمغرب وجزائر البحر وبلاد الروم وجزيرة ابن عمر وديار بكر والعراق بأسرها وأطراف الهند والحرمين الشريفين مكة والمدينة واليمن وبلاد العجم.

بذل الهروي جهدا عظيما في التأليف فأنتج نتاجا حسنا، فمن مصنفاته:

١) الإشارات إلى معرفة الزيارات.
٢) التذكرة الهروية في الحيل الحربية.
٣) الخطب الهروية.
٤) كتاب الأصـــول.
٥) منازل الأرض ذات الطول والعرض.
٦) كتاب الآثار والعجائب والأصنام.

وخلاصة القول فعندما نقرأ كتاب (الإشارات إلى معرفة الزيارات) لأبي الحسن الهروي لا يسعنا إلا أن نلاحظ حقيقة ناصعة توحي بدقة الملاحظة وأصالة التفكير عنده. ولذا لا عجب أن ينهل ياقوت الحموي من هذا المعين الصافي الذي لا ينضب، كما استفاد منه في تأليف كتابه (معجم البلدان) ومن الثابت أن كثيرا من الباحثين في العالم في ميدان الرحلات الجغرافية اقتبسوا من كتاب (الإشارات إلى معرفة الزيارات) للهروي، مما يكون لدى القاريء فكرة صحيحة عن المكانة التي احتلها هذا الكتاب في المكتبة العربية.

اتصف أبوالحسن الهروي بالتواضع المنقطع النظير، فهو يعترف وبصراحة عندما يخطيء ويعتذر لوقوعه بذلك، ويتضح ذلك من كلامه الرائع الذي سطره في مقدمة كتابه (الإشارات إلى معرفة الزيارات) وإن جرى فيما أذكره بطريق

السهو والغلط لا بطريق القصد، فأسأل الناظر فيه والواقف عليه الصفح عن ذلك وإصلاح الخطأ وإيضاح الحق.

كان لدى الهروي ولعا جيدا في تدبر علمي الجغرافية والتاريخ. فقط اشتملت مؤلفاته على بعض الأفكار الأصيلة في ميداني الجغرافية والتاريخ. ويظهر ذلك جليا في كتابه عن كل من مدينتي القاهرة ودمشق حيث تحدث عنهما بطريقة علمية في غاية الروعة والجمال، كما أن كتاباته في هذين المجالين تدل على اطلاع واسع وتكوين علمي متين.

والمعروف لدى المؤرخين للعلوم أن أباالحسن الهروي قد دون في مصنفاته معارف جليلة حصل عليها من الأسفار والبحث ومخالطة كبار المفكرين في العالم. وارتياد المكتبات المشهورة في مختلف عواصم الأمة العربية والإسلامية. ولكن هذا النتاج العلمي اندثر ولم يبق منه إلا الشيء القليل.

ومن المؤسف حقا أن أباالحسن الهروي لم يعطه الباحثون من علماء العرب والمسلمين المعاصرين حقه من البحث والتنقيب، لذا أحاط به شيء من الغموض والإبهام، وذهب ضحية الإهمال، ولكن رحمه الله رحمة واسعة فقد قامت المستشرقة الفرنسية جانين سورديل تومن بتحقيق كتابه (الإشارات إلى معرفة الزيارات) ونشرته سنة ١٣٧٣هجرية، حيث صار هذا الكتاب في متناول القارىء العربي والمسلم. أما مؤلفاته الأخرى فهي في المكتبات العالمية تبني عليها العناكب بيوتها.

لقد أدى الإهمال والإجحاف بحق أبي الحسن الهروي أن يخلط الكثير بينه وبين موفق بن على الهروي وعلماء آخرين، فنسبت آثاره العلمية إلى غيره أرجو من الله سبحانه وتعالى أن أكون قد وفقت في تقديم هذه السيرة الموجزة لعالم من مفاخر الأمة العربية والإسلامية ومن كبار علمائها، من الذين سهروا الليل وأحيوا النهار لإنماء دوحة المعرفة الإنسانية.

ابن جبير:

هو محمد بن أحمد بن جبير الكناني، ويكنى بأبي الحسن، ويلقب بالبلنسي وفي بعض الأحيان يعرف بالشاطبي. لقب ابن جبير بالبلنسي لأنه ولد في مدينة

بلنسية سنة ٥٤٠ هجرية، أما لقبه الشاطبي لأنه تلقى تعليمه الابتدائي في مدينة شاطبة الأندلسية. وتوفي رحمة الله عليه في مدينة الإسكندرية عن عمر يناهز ٧٦ سنة (أي سنة ٦١٦ هجرية).

ينتمي ابن جبير إلى أسرة عربية أصيلة وعريقة هاجرت من المشرق العربي إلى بلاد الأندلس ضمن أعداد كبيرة من العائلات العربية سنة ١٢٣ هجرية، كان والده من طلاب العلم المتميزين، ولذا احتل مكانة مرموقة في حكومة الموحدين، مما ساعده على تعليم ابنه محمد. فقد تولى تعليم الابن كبار المفكرين في مدينة غرناطة التي كانت تعج بجهابذة الفكر، ومن هنا نبغ ابن جبير الابن في الأدب والعلوم الشرعية والجغرافية والتاريخ.

لقد كسب ابن جبير الابن سمعة عظيمة بين معاصريه لقدرته الفريدة على الكتابة، حيث تميزه في الأدب العربي، فهو بلا شك صاحب موهبة ويقظة. كما أنه كان يعتني بالدقة والملاحظة وسلاسة الأسلوب. لذا خرج كتابه (تذكرة الأخبار عن اتفاق الأسفار) والمعروف باسم (رحلة ابن جبير) سهل المنال لكل من المثقف والإنسان العادي وهذه الخاصية تميزت به ما أنتجته قريحته المتوقدة.

نال كتاب (رحلة ابن جبير) إعجاب المتخصصين في علمي التاريخ والجغرافية لما يحتويه من معارف غزيرة في هذين الميدانين. والحقيقة أن كتابه هذا يدل على اطلاع واسع وتكوين علمي متين ليس فقط في الأدب ولكن في علمي التاريخ والجغرافية أيضا. فقد ضمنه معلومات عن المدن والمسالك والمصانع والأحوال السياسية والاجتماعية والإنتاج الزراعي، لذا صار كتاب (رحلة ابن جبير) من أهم المصادر الرئيسية للباحثين في كل من التاريخ والجغرافية والأدب، ويذكر انخل جنثالث بالنثيا في كتابه (تاريخ الأندلس) أن رحلة ابن جبير أشبه ما تكون بمذكرات شخصية ويوميات سفر صيغت بأسلوب بارع وبكلام سهل بسيط الأحاسيس، فكانت رحلته ذات صفة أدبية مع العناية بالرسم والوصف والاهتمام بالمعاهد الثقافية وبالمدارس الدينية ودراسة الأوضاع والعلاقات الاجتماعية، وهذا كله ينم عن موهبة أدبية أصيلة، وكل هذا يضفي على الرحلة صفة التنوع والشمول.

تميزت رحلة ابن جبير عن غيرها من الرحلات لأصالتها وسلامة أسلوبها،

ولقلة الانطباعات الذاتية التي تحمل بين دفتيها، فهي تحتوي على نمط علمي فريد من نوعه، لذا يعتبرها الجغرافيون نموذجا يجب أن يحتذى به عند الكتابة عن الرحلات، فقد كان ابن جبير يوجز عندما يتحدث عن المدن والقرى ويسهب عندما يتكلم عن الحياة الاجتماعية والزراعية والطرق والبحار والأنهار.

ويلمح شاكر خصباك في كتابه (في الجغرافية العربية) أن رحلة ابن جبير تعتبر بحق سجلا أمينا للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للبلدان التي مر بها فضلا عما تميزت به من وصف حي للمدن وعن إشارات تاريخية وطبوغرافية ومناخية. والجدير بالذكر أن هذه الرحلة ذاعت شهرتها بين المتأدبين، واقتبس منها العديد من الرحالة والمؤرخين، كما اعتبرت من المستشرقين أنها أحسن نموذج لأدب الرحلات في الجغرافية، بل إن ابن جبير هو الأب المؤسس لهذا النمط من الكتابة الأدبية الجغرافية.

تحمل رحلة ابن جبير معلومات تاريخية وجغرافية مهمة جدا لكل من الحروب الصليبية وجزيرة صقلية، حيث كان ابن جبير يدون بكل دقة وأناة ما شاهده وسمعه من العلماء الثقات وكذلك المعارف التي استخلصها من المراجع الموثوق بها. لذا لا غرابة أن يكون كتاب (رحلة ابن جبير) من المصادر الضرورية لكل من الجغرافيين والمؤرخين والأدباء المهتمين في الحروب الصليبية وجزيرة صقلية.

وخلاصة القول لقد رأى أبوالحسن بن جبير الهول والصعوبات خلال رحلته الأولى، ولكن هذه المعاناة وتجشم أخطار السفر لم تمنعه من قيامه في زيارات أخرى لكل من مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف. وتدل هذه الزيارات المتكررة للأماكن المقدسة عند ابن جبير أنه كان طيب القلب حسن الطوية. فهو يلجأ إلى الله سبحانه وتعالى في رضاه وغضبه وفزعه.

عاش محمد بن جبير حياة عادية بسيطة في جوهرها، نذر عالمنا الجليل حياته للعلم والتعليم فانقطع في آخر أيام حياته لتدريس طلاب العلم كلا من الفقه والحديث والجغرافية والتاريخ والأدب العربي، فكان الطلاب يأتون إليه من كل حدب وصوب للتتلمذ على يده، لذا احتل مكانة مرموقة في المجتمع ليس فقط لأنه أستاذ ناجح ولكن لحكمته وعلمه أيضا.

أما عن كتابه (رحلة ابن جبير) فهذا الكتاب يحتوى على آداب الرحلات

الجغرافية بكل دقة وإتقان، حيث عرض ابن جبير في هذا الكتاب للقاريء وللباحث مادة ذات أهمية عظيمة في ميدان كل من التاريخ الاقتصادي والجغرافية الوصفية وآداب الرحلات الجغرافية. فعندما نقرأ وصفه للطريق الذي يربط مكة المكرمة بالمدينة المنورة وبالكوفة لا يسعنا إلا أن نقول إن هذا العالم الجغرافي متمكن وله باع طويل في هذا الحقل الحيوي.

يتضح للقاريء بجلاء في كتابه (رحلة ابن جبير) أن أباالحسن بن جبير اهتم اهتماما بالغا في وصف المدن التى مكث فيها، لأنه تكلم عن العمائر والمساجد والمدارس والمستشفيات والتجارة والزراعة والمناخ وغيرها من الظواهر الطبيعية، فهو بلا أدنى شك علاّمة عصره فكتابه هذا يصور تماما الحياة الاجتماعية والسياسية للأمة العربية والإسلامية في القرن السادس الهجري أي مرآة هذا العصر.

نوه المؤرخون عن وفاء وصدق ابن جبير، فمثلا عندما تحدث عن صلاح الدين الأيوبي مدحه بما يليق به كقائد شجاع أشوس، فأبرز صفات العدل والتواضع والنبل وحسن الأخلاق والشهامة والكرم فيه. كما كتب عن بعض العلماء المشارقة والمغاربة الذين يستحقون أن يكتب عنهم لأنه يرى أن هذا واجب حتمي على كل باحث. كما جمع في كتابه (رحلة ابن جبير) ما رآه وسمعه وقرأه، لذا ظهر هذا المؤلف متكاملا أصيلا.

اختلف المؤلفون في تسمية رحلة صاحب الترجمة فمنهم من سماها (رحلة الكناني) وفي مقدمتهم حاجي خليفة في كتابه (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ـ المجلد الأول) أما البعض الآخر فاستعملوا (رحلة ابن جبير) والكثير يفضلون التسمية الأخيرة. كما أنه ثابت أن هذه الرحلة تبدأ بالعبارة (تذكرة الأخبار عن اتفاق الأسفار) وتنتهي بالجملة (الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك).

استفاد من رحلة ابن جبير كبار المفكرين في الحضارة العربية والإسلامية أمثال: العبدري والبلوي والمقريزي والمقري وابن بطوطة وغيرهم. فابن بطوطة الذي يعتبر أستاذ الرحلات الجغرافية نقل جميع المعلومات الخاصة في كل من حلب ودمشق وبغداد من كتاب (رحلة ابن جبير) ووضعها في مؤلفاته الخاصة في

هذا المجال. والجدير ذكره أن أي باحث يرغب أن يكتب عن الجزيرة العربية أو جزيرة صقلية أو الأندلس لا بد له أن يرجع لكتاب (رحلة ابن جبير) فلله دره.

ياقوت الحموي:

هو الشيخ الإمام شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموي البغدادي، ويكنى بأبي عبدالله ويلقب بالرومي، لأن أصله من بلاد الروم (الأناضول) كما عرف أيضا باسم الحموي نسبة لسيده حيث سبي طفلا صغيرا نتيجة للمعارك التي دارت رحاها بين الروم والعرب، فبيع واشتراه التاجر المشهور ببغداد عسكر الحموي.

خمن المؤرخون أن ياقوت الحموي ولد في بلاد الروم سنة ٥٧٤ هجرية تقريبا ولكنه توفي في حلب سنة ٦٢٦ هجرية، فقد نشأ وترعرع في دار السلام (بغداد) في بيئة إسلامية غنية فعلمه سيده عسكر الحموي اللغة العربية والنحو والعلوم الشرعية والحساب حتى نبغ فيها وشق طريقه في العلوم الأخرى بنفسه من خلال قراءته للكتب المتوفرة عند الوارقين في بغداد وغيرها من البلدان التي زارها.

بقي ياقوت الحموي في الرق حتى بلغ العشرين سنة من العمر، حيث اعتقه سيده عسكر بن إبراهيم الحموي البغدادي سنة ٥٩٦ هجرية فبدأ حياته الحرة في نسخ الكتب، لأن النسخ في ذلك الوقت كان الوسيلة للحصول على عدد من النسخ للكتاب الواحد. ولكن سرعان ما دعاه التاجر عسكر الحموي ليكون شريكا له في تجارته لأمانته واستقامته، ولكن التاجر عسكر الحموي توفي بعد فترة وجيزة بعد أن أوصى لياقوت الحموي ببعض ثروته التي استخدمها ياقوت في تجارة الكتب.

عاش ياقوت في فترة تمزق الدولة العباسية وظهور دول وإمارات جديدة منفصلة عن الحكم العباسي في بغداد مثل الغزنويين في الشرق والفاطميين والأيوبيين في مصر والأمويين في الأندلس، ولكن حكام هذه الدول تميزوا باحتضانهم للعلماء والمفكرين، ولذا ازدهرت العلوم التجريبية في عصرهم ازدهارا رائعا.

لقد عملت جحافلت المغول المجرمة حصارا وملاحقة لكبار المفكرين في العالم

العربي والإسلامي، مما جعل ياقوت الحموي ينتقل في عدد كبير من مدن الأمة العربية والإسلامية فانتهى به المطاف في مدينة الموصل، ومنها أرسل رسالته الشهيرة إلى وزير السلطان (الظاهر بن صلاح الدين الأيوبي) صاحب حلب جمال الدين أبي الحسن على بن يوسف القفطي (المتوفى سنة ٦٤٦هـ) يطلب منه السماح له في زيارته في مدينة حلب، فرحب به القفطي، ويصف القفطي حالة ياقوت الحموي عند وصوله إليه في كتابه (أنباه الرواة) فيقول ولما وصل دخل عليَّ في حالة يسوء منظرها، ووصف من أمره أموراً لا يسر مخبرها وقال: لقد ألقيت عصاتي ببابك، وخيم أملي بجانب جنابك».

استطاع ياقوت الحموي في حلب أن يؤلف كتابه (معجم البلدان) الذي قال في مقدمته «أما بعد، فهذا الكتاب في أسماء البلدان والجبال والأدوية والقيعان والقرى والمحال والأوطان والبحار والأنهار والغدران. ولم أقصد بتأليفه وأصمد نفسي لتصنيفه لهوا ولا لعبا. ولكن رأيت التصدي له واجبا والانتداب له مع القدرة عليه فرضا لازما، وقضى عليه الكتاب العزيز الكريم، وهداني إليه النبأ العظيم».

يقول جورج سارتون في كتابه (المدخل إلى تاريخ العلوم) إن ياقوت الحموي ألف معجما جغرافيا فريدا من نوعه سماه (معجم البلدان) وهو كتاب في علم الجغرافية ومعجم زاخر بالمعارف ليس له من نظير في سائر اللغات. أما أغناطيوس كراتشكوفسكي فيقول في كتابه (تاريخ الأدب الجغرافي العربي ـ الجزء الأول) أكاد أقول إن كتاب (معجم البلدان) لياقوت الحموي أفضل مصنف من نوعه. وهو جماع للجغرافيا في صورها الفلكية والوصفية واللغوية وللرحلات أيضا، كما تنعكس فيه الجغرافيا التاريخية إلى جانب الدين والحضارة والأثنولوجيا (علم الأجناس والفصائل البشرية) والأدب الشعبي والأدب الفني. وهكذا لا يزال هذا المعجم المعتمد في ميدان علم الجغرافية في المعمورة حتى يومنا هذا.

ولياقوت الحموي كتاب آخر اسمه (معجم الأدباء) مكون من عشرين مجلدا لا يقل أهمية عند النحويين واللغويين والنسابين والقراء المشهورين والإخباريين والمؤرخين والوراقين المعروفين والكتاب المشهورين وأصحاب الرسائل المدونة وأرباب الخطوط المنسوبة والمعنية، وكل من صنف في الأدب تصنيفا أو جمع في فنه

تأليفا، مع إيثار الاختصار والإعجاز في نهاية الإيجاز، ولم آل جهدا في إثبات الوفيات وتبيين المواليد والأوقات، وذكر تصانيفهم ومستحسن أخبارهم بأنسابهم وشيء من أشعارهم.

لا تزال مؤلفات ياقوت الحموي الأخرى حبيسة في مكتبات العالم تحتاج إلى من يحققها وينشرها ومنها: كتاب معجم الشعراء وكتاب المبدأ والمال في التاريخ، وكتاب الدول، وكتاب المقتضب في النسب، وكتاب أخبار المتنبي.

وخلاصة القول كان أبوعبدالله ياقوت الحموي مثقفا واسع الاطلاع، وذلك ناتج من تجارته بالكتب والتطواف في العالم باحثا عن المؤلفات القيمة، حيث زار خزائن الكتب ومكتبات في العالم العربي والإسلامي والتقى بعلمائها من نهر جيحون إلى النيل. ولا يخفى على القاريء أن ياقوت الحموي استفاد من تجارته المتنوعة، وهكذا استطاع الرقيق أن يتحرر من العبودية وأن يصل إلى درجة عالية من العلم بالجد والمثابرة.

وعندما ندرس (معجم البلدان) لياقوت الحموي يتضح لنا أنه ليس فقط مؤرخا للبلدان التي كتب عنها ولكنه أيضا لغوي وذلك لما يعرض من اشتقاق أسمائها وصيغها. وفوق هذا كله فهو جغرافي من الصنف الأول حيث تحدث عن الأقاليم وأوصافها وأوضاعها وكروية الأرض بطريقة علمية مذهلة.

لقد بلور ياقوت الحموي الصلة بين اللغة العربية وعلم الجغرافية بطريقة أدبية رائعة، وهذا عائد لكونه أديبا واسع الأفق، وأثبت أن الكثير من علماء اللغة العربية لهم باع طويل في حقل علم الجغرافية، ولا تزال العلاقة العلمية بينهما وثيقة وواضحة في المعاجم الجغرافية واللغوية. والمعروف لدى الباحثين أن ياقوت الحموي كان كثير الاستشهاد بنصوص شعرية لمعظم الحقائق الجغرافية.

تميز (معجم البلدان) لياقوت الحموي عن غيره من المعاجم الجغرافية أنه كان حريصا كل الحرص على دراسة المكان دراسة علمية متأنية، وذلك فيما يتعلق بطريقة لفظه واشتقاقه اللغوى، كما حاول أن يرد كل اسم ورد في معجمه إلى أصله العربي ويستدل على ذلك بأبيات من الشعر القديم.

ويذكر ياقوت الحموي في مقدمة كتابه (معجم البلدان) أن علم الجغرافية من العلوم الضرورية لمعظم الناس على اختلاف درجاتهم، كالعابد الورع والطبيب

والحاكم اللبيب وعلماء الفلك، وعلماء اللغة العربية والشريعة الإسلامية. لذا صار هذا المعجم مرجعا جامعا لكثير من المعارف. والجدير بالذكر أن أبا عبدالله ياقوت الحموي ركز فيه على الجغرافية الوصفية والطبيعية والفلكية واللغوية. ومعجم البلدان لياقوت الحموي من المراجع القليلة جدا التي يقرؤها طلاب العلم المعاصرين دون عناء ومشقة بل يجدون فيه مادة خصبة ومفيدة.

لقد اقتبس ياقوت الحموي من نتاج العلماء السابقين له في مجال علم الجغرافية، ولكن حاول تعديل ما اختلف عليه، وأضاف أسماء جديدة لعدد كبير من البلدان. كما اهتم اهتماما بالغا بضبط نطق أسماء البلدان التي عرضها في كتابه (معجم البلدان) على الوجه الصحيح، وكذلك أعطى الطرق والمسالك عناية خاصة لمساعدة حجاج بيت الله الحرام والتجار، فبقي كتاب معجم البلدان في متناول الجميع.

اعتكف ياقوت الحموي على القراءة والتأليف، فدون مادة علمية نادرة في مؤلفاته، في وقت كادت الحوادث والقلاقل التي خلفها الغزو التتري المخرب، تفتك وتقضي على معظم المصادر ومظاهر الحضارة العربية والإسلامية. لذا يعود الفضل لياقوت الحموي لحفظه معظم نتاج علماء العرب والمسلمين في ميدان علم الجغرافية في مصنفاته. وهكذا انتهت حياة أبي عبدالله ياقوت الحموي وهو في أوج رجولته.

سيجد القاريء في نتاج ياقوت الحموي ما يشفي الغليل، لأنه استمد مادته العلمية من مصادر كثيرة ومتنوعة أغلبها مفقود. واشتهر أيضا بتحريه للدقة في ثبات ما يجب أن يثبت وحذف ما يلزم حذفه. كما عرف أنه دائما يعرض الفكرة على الشك والنقد حتى تتضح له الحقيقة الناصعة، وهذا بدون شك منهج العالم المدقق والباحث الأمين.

البغدادي

هو موفق الدين عبداللطيف بن يوسف البغدادي، ويكنى بأبي محمد، ويلقب بابن اللباد، ولد ببغداد سنة ٥٥٧ هجرية وتوفي فيها عن عمر يناهز ٧٢ سنة.

نشأ موفق الدين عبداللطيف البغدادي وترعرع في بيت علم، فوالده من علماء

الأدب والفقه والمنطق، لذا نستطيع القول بأن البيئة العلمية التي نما فيها أثرت عليه كثيرا.

تلقى أبومحمد البغدادي تعليمه على يد كبار المفكرين بدار السلام بغداد، فنبغ في الطب والكيمياء والصيدلة والجغرافية. وعرف بين زملائه بالطبيب العشاب الماهر والمعين الذي لا ينضب.

بذل عبداللطيف البغدادي جهدا عظيما في دراسته لعلمي الحيوان والنبات لعلاقتهما الوطيدة في مهنته كطبيب. كما نتج عن اهتمامه بهذين العلمين تنقله في معظم بلاد العرب والمسلمين باحثا عن الأعشاب والحيوان، وبهذا اطلع على الطرق والمناخ والتضاريس لكل بلد حل به، لذا اعتبر عبداللطيف البغدادي من أعلام الجغرافية الوصفية.

يصف أغناطيوس كراتشكوفسكي صاحب الترجمة في كتابه (تاريخ الأدب الجغرافي العربي) فيقول «كان عبداللطيف البغدادي رجلا جم المعرفة ضاربا في جميع فروع العلم بسهم، كان عالما دقيق الملاحظة، فهو بهذا يمثل طراز العالم المحقق الذي يتوق إلى المعرفة الإيجابية مع ميل واضح إلى التجربة العلمية.

غادر عبداللطيف البغدادي بغداد في سن الخامسة والثلاثين من عمره متجها إلى مصر، فمر ببلاد الشام وأمضى وقتا قصيرا هناك. ولكنه ما لبث أن استقر مدة طويلة في مصر يتعلم ويعلم ويؤلف في كل من الطب والصيدلة والنبات والحيوان والجغرافية. كما جمع معلومات ثمينة ضمنها كتابه المشهور (الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر) الذي صار من أهم المصادر للباحثين في علمي الجغرافية والتاريخ.

وعندما أشبع عبداللطيف البغدادي نهمه بالمعارف غادر مصر سنة ٦٠٢ هجرية إلى القدس، وظل يعلم طلاب العلم في المسجد الأقصى، وفي هذه الفترة التقى بصلاح الدين الأيوبي وأعجب به كثيرا. وقال عنه في كتابه (الإفادة والاعتبار). «وجدت مجلسا حافلا بأهل العلم يتذاكرون في أصناف العلوم، وصلاح الدين يحسن الاستماع والمشاركة... ويأتي بكل ماض بديع».

وبقي عبداللطيف البغدادي يتنقل بين عواصم البلدان العربية والإسلامية باحثا عن جهابذة الفكر العلمي لكي يتبادل الأحاديث معهم، وأخيرا قرر العودة

إلى مسقط رأسه دار السلام بغداد وتوفي فيها سنة ٦٢٩ هجرية. بعد أن خلف لنا كنوزا من المعارف العلمية.

ومن الأسباب التي دعت علماء الجغرافية أن يضعوا عبداللطيف البغدادي في قائمة علماء العرب والمسلمين في ميدان الجغرافية ما توصل إليه من معلومات أصيلة عن كل من سطح ومناخ ومياه ونبات وحيوان مصر، وهذه العناصر تعتبر من المقومات الهامة في علم الجغرافية.

ويذكر شاكر خصباك في كتابه (في الجغرافية العربية ـ دراسة في التراث الجغرافي العربي) أن كتاب (الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة في أرض مصر) لعبداللطيف البغدادي ينقسم إلى قسمين رئيسين: الأول يتناول دراسة جغرافية مصر النباتية والحيوانية والإقليمية، مع الاهتمام بآثار مصر القديمة. كما تظهر روح المقارنة والبحث العلمي الدقيق واضحة في هذا الجزء. أما الثاني فيشمل شرحا واضحا وشاملا عن نهر النيل ومنابعه وأثره على الحياة الاقتصادية في مصر.

قام المستشرق الفرنسي دي ساسي سلفسترا (De Sacy silvestre) سنة ١٢٢٥ هجرية بترجمة كتاب (الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر) لعبداللطيف البغدادي إلى اللغة الفرنسية. كما أفرد المؤرخ محمد عبدالله عنان لأبي محمد البغدادي فصلا كاملا في كتابه (مصر الإسلامية) سنة ١٣٥٠ هجرية، ولذا يجب أن نسدي الشكر لهما، لأنهما هما اللذين أبرزا مكانة البغدادي العلمية في مجال الجغرافية.

ولا يخفى على القاريء أن عبداللطيف البغدادي نذر حياته للبحث والاستقصاء والتأليف، فله ما يزيد على مائة وسبعين كتابا في معظم فروع المعرفة كالطب والصيدلة والنبات والحيوان والجغرافية والرياضيات والمعادن والتاريخ والمنطق والفقه واللغة العربية، فهو موسوعة تمشي على قدمين وصاحب العقل المتيقظ.

كان يتخلل كتابات أبي محمد عبداللطيف البغدادي بعض النصائح المسلكية لطلاب العلم وينقل لنا بول غيلونجي وسعيد عبده في كتابهما (عبداللطيف البغدادي) أنه قال «أوصيك أن لا تأخذ العلوم من الكتب وإن وثقت من نفسك

بقوة الفهم. وعليك بالأستاذ في كل علم تطلب اكتسابه. وإذا قرأت كتابا فاحرص على أن تستظهره وتملك معناه، وتوهم أن الكتاب قد عدم وأنك مستغن عنه. يتبقي أن تحاسب نفسك في كل ليلة إذا أويت إلى منامك. وتنظر مااكتسبت في يومك من حسنة فتشكر الله عليها، وما اكتسبت من سيئة فتستغفر الله منها وتقلع عنها».

مما تقدم يظهر للقارىء جليا أن عبداللطيف البغدادي كان قلبه مفعما بوشائج المحبة والود. فهو بلا ريب يتصف بصفات العالم الزاهد الأمين الذي يعرض على طلابه ما تفرزه قريحته المتوقدة. فلله دره.

خلاصة القول لقد كان سكان الصعيد في مصر يعتقدون بالخرافات والتكنهات حول موضوع فيضان نهر النيل. ولما جاء عبداللطيف البغدادي إلى مصر حارب هذه الأفكار الواهية وعمل دراسة إحصائية وافية ومستفيضة معتمدا على الخط البياني لأحوال فيضان نهر النيل لعدة سنوات، وسجل هذه الدراسة الإحصائية في كتابه (أخبار مصر الكبير). فكانت آراؤه قنديلا استضاء بها علماء مصر.

ومما لا شك فيه أن الدراسة التي عملها عبداللطيف البغدادي حول فيضان نهر النيل توحي بأن علماء العرب والمسلمين كانوا يعرفون بعض النظريات الإحصائية، وأن علم الإحصاء معروف لديهم.

تحدث عبداللطيف البغدادي في كتابه (الإفادة والاعتبار) عن الإنتاج الزراعي في مصر وقدم دراسة رائعة مستندا على الترجمة والمشاهدة، فأبرز وجه الشبه بين النباتات. كما أولى عناية خاصة للمواد الغذائية وتأثيرها على جسم الإنسان. فالبغدادي دائما يتكلم بلسان الطبيب الماهر عند تعرضه لأنواع الحيوان والنبات.

نستطيع أن نستنتج الآن أن اهتمامات عبداللطيف البغدادي في علم الجغرافية تقوم على فرع مهم من فروع هذا العلم ألا وهو الإنتاج الاقتصادى ومقوماته. أي الجغرافية الاقتصادية.

لقد كان للدراسة الجغرافية التي قام بها عبداللطيف البغدادي على أرض مصر أكبر الأثر في تقدم هذا العلم الحيوي، حيث اعتمد عليها علماء العرب والمسلمين في دراساتهم عبر تاريخهم الطويل.

لقد لمع صاحب الترجمة عبداللطيف البغدادي في نواح عديدة من المعرفة، فأخذ الباحثون المعاصرون في النواحي الشديدة اللمعان وتجاهلوا تماما النواحي الأخرى. فالبغدادي من مشاهير أطباء الحضارة العربية والإسلامية واعترف بذلك جميع مؤرخي العلوم دون استثناء ولكن القليل جدا من العلماء الذي تطرق لمكانة عبداللطيف البغدادي في حقل علم الجغرافية.

أرى شخصيا أن نبذل جهدنا لإخراج نظريات وآراء عبداللطيف البغدادي في علم الجغرافية للملأ لكي نوفيه حقه من البحث والتنقيب. فهو بلا أدنى شك له جولات وصولات في هذا المجال.

أرجو أن أكون قد خدمت عالمنا الجليل عبداللطيف البغدادي بهذه الترجمة المختصرة، وذلك في إبراز مكانته في علم الجغرافية، أما مكانته في علمي الطب والنبات فهو أشهر من نار على علم. والله أسأله أن يجعل هذه السيرة الموجزة حافزا لشباب الأمة العربية والإسلامية أن يعملوا دراسة عن أبي محمد عبداللطيف البغدادي في هذا الموضوع ليبددوا الشكوك في مجد هذا العالم الجليل.

التميمي المراكشي

هو عبدالواحد التميمي المراكشي، ويعرف باسم محيى الدين، ولد في مراكش سنة ٥٨١هجرية، وتوفي فيها سنة ٦٣٧هجرية وهو من كبار المفكرين في حقلي التاريخ والجغرافية، له أيضا دراية عظيمة في أصول علم السياسة، فهو من العلماء الذين ساندوا دولة الموحدين في المغرب. ينتمي التميمي المراكشي إلى أسرة عربية عريقة، لها مكانة مرموقة بين القبائل العربية الأصيلة، هي قبيلة بني تميم التي اشتهرت برجالها ومالها وجاهها.

ويخلط البعض بين صاحب الترجمة وأبي على الحسن المراكشي المتوفى سنة ٦٦٠ هجرية الذي كتب كتاب (جامع المبادىء والغايات في علم الميقات) العالم الجليل في الفلك والرياضيات، له أرصاد خطيرة اعتمد عليها كبار المفكرين في علم الفلك فقد قدم دراسة مفصلة عن أكثر من ٢٤٠ نجما لعام ٦٢٢هجرية.

انتقل المراكشي وهو في التاسعة من عمره إلى فاس ليتعلم القرآن الكريم

والحديث والنحو على معلمين متميزين هناك. ثم منها نزح إلى الأندلس بقي ردحا من الزمن في بلاد الأندلس لتلقي العلم، وزار مصر سنة ٦١٣هجرية وتتلمذ على يد جهابذة الفكر في مراكز الثقافة في العالم العربي والإسلامي، فنبغ في علمي الجغرافية والتاريخ.

قضى المراكشي فترة طويلة متنقلا بين عواصم البلدان الإسلامية. فأدى فريضة الحج سنة ٦٢٠هجرية والتقى بنخبة جيدة من أساتذة العلوم الشرعية والعربية وتداول معهم ما يجول في نفسه ثم عاد إلى مسقط رأسه مراكش، فصار من المستشارين لدولة الموحدين.

حظي المراكشي باحترام وتقدير قادة دولة الموحدين في المغرب العربي، فصار من أقرب الناس إليهم، فطلب منه أن يؤلف كتابا عن بلاد المغرب يكون مرجعا يفيد الباحثين في الجغرافية والتاريخ وآداب اللغة العربية، فكتب كتابه المشهور (المعجب في تلخيص أخبار المغرب) وفي بعض الأحيان يسمى (كتاب تاريخ الموحدين) الذي يعتبر من أهم الوثائق التاريخية لبلدان المغرب والأندلس. وقد نوه إسماعيل باشا البغدادي عن هذا الكتاب في كتابه (هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين).

ويذكر الدومييلي في كتابه (العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي) أن كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب (تاريخ الموحدين) للتميمي المراكشي نال نصيبا وافرا من المستشرقين المهتمين في الحضارة العربية والإسلامية فقد نشره المستشرق دوزى (Dozy) في ليدن سنة ١٢٦٣هجرية وترجمه إلى اللغة الفرنسية إدمان فانيا (E. Fagnnan) الذي أخرجه في الجزائر سنة ١٣١١هجرية. لهذا كان كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب متداولا في القطاعات الأكاديمية ومتواجدا في معظم مكتبات العالم، لأنه يحمل معلومات نادرة في غاية الأهمية عن تاريخ دولة الموحدين.

وقد اندفع كل من سعيد العريان ومحمد العلمي العربي لدراسة (كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب) للتميمي المراكشي لما يحتوى عليه من معلومات جغرافية وتاريخية سليمة عن بلاد المغرب. وقد رأيا أخيرا أن يحققاه فخرج سنة ١٣٦٣هجرية في القاهرة للقراء العرب. وبقي هذا الكتاب من أهم

المصادر العلمية في حقلي الجغرافية والتاريخ للباحثين العرب.

ولعبدالواحد المراكشي كتاب آخر عنوانه (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) كتبه على نمط كتب المسالك والممالك التي ألفها علماء العرب والمسلمين في هذا المجال. وقد استقصى بالبحث والتنقيب معظم مصنفات علماء العرب والمسلمين في علمي الجغرافية والتاريخ. لذا خرج كتابه هذا على شكل موسوعة علمية مختصرة. وقد تطرق المراكشي في بحوثه في هذا الكتاب عن البيئة وأثرها على جسم الإنسان من حيث اللون وصفاء الذهن.

والجدير ذكره أنه كان هناك محاولات جادة بين علماء العرب والمسلمين في الفصل بين المادتين التاريخ والجغرافية، وجعلهما مادتين لكل منهما منهج علمي خاص. وقد بلور هذه الفكرة التميمي المراكشي. لذا ترى معظم المؤرخين ينسبون هذا الفضل للمراكشي دون استثناء.

وخلاصة القول لقد كان عبدالواحد المراكشي رجلا واعيا يمتلك صفات نادرة، فكانت علاقاته قوية مع رجال الدول وعلمائها. فقد أعانه على ذلك حافظة واعية، وذاكرة نادرة، وذكاء مفرط وعلاوة على كل هذا كان ذا عقلية مرتبة لماحة.

خرج نتاج التميمي المراكشي متكاملا، وهذا ينم عن ثقافة عميقة، حيث استطاع أن يلتهم معظم مؤلفات عصره والسابقين له، فاستخلص منها آراءه الجريئة في كل من الجغرافية والتاريخ والاجتماع والأدب. كما اشتهر في جرأته في قول كلمة الحق، فكان لا يخشى فيه لومة لائم. كما أن أسلوبه في الكتابة يجمع بين السهولة والجزالة.

إن انشغال عبدالواحد المراكشي في إسداء المشورة لقادة الموحدين في بلاد المغرب لم يمنعه من التأليف والرحلات إلى الشرق منبع العلم آنذاك، فكان ذا همة عالية جمع خبرته في كتابه (المعجب في تلخيص أخبار المغرب) الذي يوحي بغزارة العلم وسعة الثقافة.

القزويني

هو زكريا بن محمد بن محمود القزويني، يكنى بأبي يحيى وعماد الدين، ويلقب

بالأنصاري لأن نسبه ينتهي إلى الإمام أنس بن مالك الأنصاري صاحب المذهب المالكي، مما قاد كثيرا من المؤرخين في العلوم إلى الاعتقاد أن عائلة القزويني انتقلت من المدينة المنورة إلى قزوين.

ولد زكريا القزويني في بلدة قزوين الواقعة بين رشت وطهران في شمال إيران عام ٦٠٥هـ، وتوفي في مدينة دمشق سنة ٦٨٢هجرية. لقد أمضى القزويني شطرا كبيرا من حياته في قزوين ثم بدأ حركة التنقل وهو في ريعان شبابه، حيث قصد بغداد ودمشق لكي يتتلمذ على يد جهابذة الفكر فيهما (وذلك أيام الخليفة المعتصم آخر خلفاء بني العباس)، فنبغ في كل من العلوم الشرعية واللغوية والجغرافية والتاريخ والنبات والفلك والرياضيات والمعادن ولكنه ذاع صيته بين رفاقه في الحديث وعلومه.

كان منهج القزويني في البحث ممزوجا بطابع الدين، فكثيرا ما يستشهد في كلامه بآيات قرآنية وأحاديث نبوية. كان رحمه الله بعيدا كل البعد عن الخرافات والأوهام التي كان لها دور عظيم في عصره، بل إنه يبني معلوماته على الحقائق العلمية البحتة، واشتهر بين معاصريه بالأمانة والصدق في النقل.

احتار الكثير من المؤرخين للعلوم في تصنيف القزويني، فمنهم من وضعه في قائمة علماء الطبيعة والفلك والرياضيات، واعتبره آخرون أمام مؤرخي العرب وجغرافييهم، وهو يبدو في الحقيقة وكأنه من كبار علماء كل من علم الجغرافية وعلوم الأرض وعلم النبات، رغم أنه نال سمعة مرموقة في علمي الفلك والرياضيات.

قدم القزويني معلومات في غاية الأهمية عن كل من المدن والأقاليم والجبال والجزر والبحيرات والأنهار والبحار والمحصولات الزراعية والصناعية في الجزء المعمور من الأرض في كتابه القيم (آثار البلاد وأخبار العباد).

يقول القزويني في مقدمة كتابه (آثار البلاد وأخبار العباد) إني جمعت في هذا الكتاب ما وقع لي وعرفته، وسمعت به وشاهدته من لطايف صنع الله تعالى، وعجائب حكمته المودعة في بلاده وعباده، فإن الأرض جرم بسيط متشابه الأجزاء وبسبب تأثير الشمس فيها، ونزول المطر عليها، وهبوب الرياح بها ظهر فيها آثار عجيبة، وتختص كل بقعة بخاصية لا توجد في غيرها منها ما صار حجرا صلدا،

ومنها ما صار طينا حرا، ومنها ما صار طينة سبخة. ولكل واحد خاصية عجيبة وحكمة بديعة، فإن الحجر ينبت الثمار والزروع بعجيب ألوانها وأشكالها وطعومها وروايحها والطينة السبخة يتولد منها الشبوب والزجات والأملاح بفوائدها، وكذلك الإنسان حيوان متساوي الآحاد بالحد والحقيقة، لكن بواسطة الألطاف الإلهية تختلف آثارهم، فصار أحدهم عالما محققا، والآخر عابدا ورعا، والآخر صانعا حاذقا.

يتضح للقاريء من النص المتقدم أن القزويني دقيق الملاحظة عميق التفكير، فقد عرض أفكارا علمية رائعة عن الأرض وتكوينها. وهكذا استطاع القزويني أن يشرح بعض الظواهر الجغرافية بطريقة علمية سهلة يفوق بها علماء العصر الحديث الذين يستخدمون الآلات والأجهزة العصرية، ولا عجب أن نرى المتخصصين في تاريخ العلوم ينعتونه بالموسوعة التي تمشي على قدمين، لأنه لم يترك باباً في الجغرافية والتاريخ والجيولوجيا والنبات والحيوان إلا كتب عنه.

يذكر نفيس أحمد في كتابه (الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي) أن القزويني تناول المادة الجغرافية الخالصة، حيث وصف الجبال والجزر والبحار والأنهار والينابيع وغيرها. كما أن كتابه (آثار البلاد وأخبار العباد) يضفي بمعلومات دسمة في التاريخ والتراجم، وهو مزود بكثير من الرسوم والصور ويبحث في الجغرافية التاريخية والوصفية بطريقة علمية نادرة ويعتبر القزويني بحق مؤسس علم الجغرافية التاريخية التي لعبت دورا هاما في الحضارة الإنسانية.

أما كتاب (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات) للقزويني فهو كتاب فريد وغني بمعارفه العلمية لكل من علم الجغرافية وعلم الفلك، حيث وصف الأرض وما عليها، وتحدث عن الكواكب والأبراج وحركاتها وما ينتج عنها من فصول السنة والشهور والأيام، والجدير ذكره هنا أن بعض المؤلفين لتاريخ العلوم يطلقون على هذا الكتاب اسم (كوزموغرافيا) لما يتضمنه من معلومات تخص نشأة الكون.

وخلاصة القول أن القزويني مفطور على حب التسهيل والتبسيط في كتاباته، فهو دائما يحاول أن يتعامل مع غير المتخصص. وقد اتبع بذلك المنهج الذي يعتمد على التجربة والاستنباط اللذين كانا نبراسه. كما تميز القزويني عن غيره في

الأصالة والأمانة في النقل، وإعطاء كل ذي حق حقه. فقد قضى معظم حياته عاكفا على قراءة الكتب والاستزادة في كشف الحقيقة والوقوف عليها. والمعروف عنه أنه كان يردد أنه يجد في البحث والاستقصاء والمتابعة لذة هي أسمى أنواع اللذات. لذا نرى عالمنا الجليل أثرى المكتبة العربية في نتاجه الفكري مما أدى إلى ارتقاء المدنية وازدهارها، فهو بحق يعد من الأركان الذين قامت عليهم الحضارة العربية والإسلامية.

ومما لا يقبل الشك أن القزويني كان عبقريا بارزا، فكان له تأثير في أوروبا خلال القرون الوسطى. ولم يقف القزويني عند نظريات القدماء حائرا، بل دخل المختبر، وفحص، وحقق تحقيقا علميا مبنيا على الملاحظة والاستنتاج العلمي، حتى لقد جعل علماء أوروبا في القرون الوسطى وفي العصر الحديث يعجبون بنتاج القزويني الغزير، بل إن كثيرا منهم أبدى الدهشة لما تحتويه هذه المؤلفات من معلومات واسعة ونادرة. ومن ذلك نستنتج أن جميع الآراء المغرضة التي قالها بعض المستشرقين المتطرفين، والتي ملخصها أن القزويني مجرد ناقل، ومردد لأفكار اليونان. قد جانبها الحق في هذا، بل إن القزويني كان من كبار المفكرين الذين تفتخر بهم الأمة العربية والإسلامية، بل العالم أجمع، لما قدمه من عمل جليل لخدمة المعرفة الإنسانية.

ويجمع الباحثون في تاريخ العلوم أن القزويني شخصية بارزة في عالم الفكر والمعرفة، على الرغم من أنه عاش في فترة صعبة جدا، حيث كانت الأمة العربية والإسلامية في حالة قلق واضطراب شديدين، ولكن تلك الظلمات السياسية لم تؤثر كثيرا في حياة القزويني العلمية فقد شق طريقه وأثر في مجرى أحداث عصره بكل حكمة. اشتهر القزويني بأفكاره وآرائه الخلاقة المنبعثة من وجدانه العميق، فهو رحمه الله مثال التواضع، فقد اعترف بفضل علماء العرب والمسلمين السابقين له بوضعهم أسس البحث العلمي الدقيق.

وعندما نقرأ بتمعن نتاج القزويني العلمي لا يسعنا إلا أن نعترف بعبقريته العلمية المبنية على الملاحظة العلمية الدقيقة للظواهر الطبيعية. وهذا يدحض وبكل وضوح الملابسات المشبوهة التي يحاول علماء الغرب ادعاءها، وذلك أن العقل العربي والإسلامي عقل أدب وليس عقل علوم بحتة وتجريبية.

حقا إن القزويني مفخرة وأي مفخرة للأمة العربية والإسلامية، لذا حاولنا أن نضع سيرته بين يدي شباب هذه الأمة ليقتبس منها ما يفيده وينفعه، كما أرجو من الله سبحانه وتعالى أن يجعل أعمال القزويني العلمية والأدبية والشرعية نبراسا للعاملين ونهجا للتابعين وهديا للتائهين ومحفزا ومنبها للغافلين والمقصرين.

وهناك حقيقة مؤلمة يجب أن يعرفها القاريء وهي أن القزويني بقي مدة طويلة مجهولا لأبناء جلدته، ولكن لحسن الحظ بدأ المستشرقون بدراسة آثاره العلمية لأهميتها، لذا أشرق نجم القزويني، وصار الباحثون في تاريخ العلوم يتسابقون على معرفة أعماله العلمية التي كانت تتسم بالأصالة والعمق التاريخي.

حاولت أن أضع القزويني في موضعه اللائق من حيث الزمان والمكان ومكانته العلمية المرموقة التي كان يتمتع بها، كما بذلت جهدا كبيرا في عرض نتاجه العلمي عرضا موضوعيا وميسرا وواضحا، لذا أتعشم أن أكون قد وفقت في اجتهادي وساهمت ولو قليلا في إحياء ذكرى هذا العالم الفذ الذي كانت آراؤه ونظرياته تتصف بالاعتدال والموازنة والإبداع.

ابن سعيد المغربي

هو علي بن موسى بن محمد بن عبدالملك بن سعيد المغربي الأندلسي، ويكنى بأبي الحسن، ويلقب بالغرناطي وفي بعض الأحيان بالعنسي، ولد سنة ٦١٠هجرية بقلعة بني سعيد (قلعة يحصب) والتي تبعد عن غرناطة حوالي ٥٢ كيلومتر. وتوفي في دمشق سنة ٦٨٥ هجرية، وهناك رأى آخر أنه توفي في تونس. ويكفي عائلة ابن سعيد المغربي فخرا واعتزازا أن نسبهم يرتبط بذرية الصحابي الكريم عمار بن ياسر.

كان والده موسى بن محمد بن سعيد المغربي محبا للمطالعة والقراءة والكتابة، لذا ترك الحكم وتفرغ لطلاب العلم الذين أتوا إليه من كل فج. تتلمذ ابنه على يده فنبغ في كل من العلوم الشرعية واللغوية والتاريخية والجغرافية. اشتهر الوالد موسى بورعه وتقاه وإخلاصه للبحث والتنقيب والاستقصاء، فهو من قادة الفكر في بلاد الأندلس.

نشأ أبوالحسن بن سعيد المغربي في بيت علم وجاه، فكان كل من والده وجده

من كبار أدباء الأندلس. تولى الجد عبدالملك حكم قلعة يحصب وشرع في تأليف كتابه (المغرب في حلي المغرب) وتوفي سنة ٥٦٢هجرية قبل إتمامه، فعمل به والد صاحب الترجمة موسى فلم يتمكن من إكماله فأنهاه الابن على بن موسى بن سعيد المغربي وصار هذا الكتاب من أهم المصادر العلمية التي تعنى ببلاد المغرب والأندلس.

كان أبوالحسن بن سعيد مغرما بالأسفار، فقد أقام في كل من الموصل وبغداد والبصرة وتنقل بينهما لطلب العلم وتجميع المعارف الأدبية والتاريخية والجغرافية، فاستفاد من تجواله هذا بزيارته المتكررة للمكتبات والمعالم الأثرية ومجالسة العلماء لذا صارت مؤلفاته ذات قيمة علمية أصيلة عند الباحثين ليس فقط في علم الجغرافية ولكن في التاريخ والأدب.

يقول أغناطيوس كراتشكوفسكي في كتابه (تاريخ الأدب الجغرافي العربي - القسم الأول) وقبل استيلاء هولاكو على بغداد بأعوام قليلة تمكن على بن سعيد من متابعة دراساته بمكتباتها البالغ عددها ستا وثلاثين مكتبة والتي يصفها لنا بحماس يماثل الحماس والإعجاب الذي وصف به ياقوت الحموي مكتبات مرو لعهده. ولكن للأسف الشديد هولاكو الملعون دمر هذه المكتبات العامرة بإحراقها.

غادر أبوالحسن بن سعيد العراق واتجه إلى بلاد الشام ومنها إلى مكة المكرمة فحج للمرة الثانية سنة ٦٥٢هجرية. وجمع ابن سعيد في هذه الرحلة من المعارف العلمية في علمي التاريخ والجغرافية الشيء الكثير، معتمدا بذلك على المشاهدة واللقاءات الشخصية بكبار المفكرين في هذه البلدان وقراءة المصادر النادرة. لذا حفلت مؤلفاته بالمعلومات التي لا يستغني عنها الباحث اللبيب في مجالي الجغرافية والتاريخ.

يقول حسين مؤنس في كتابه (تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس) عاش ابن سعيد حياة طويلة عريضة حافلة بالأحداث والتجارب والأسفار والعمل، وهو دون شك من أعاظم الأندلسيين الذين وفدوا على المشرق ومن أبعدهم أثرا فيه، فقد أقبل إلى المشرق يحمل قطعة عزيزة من تاريخ بلده. ثم أتم أبوالحسن ابن سعيد عمل آبائه وختم تاريخهم أجمل ختام بفضل ما أوتي من الذكاء والنشاط

وطرافة الشخصية وما حرص عليه من الدعوة العريضة لوطنه الأندلس وأهله، فأما دعوته للأندلس فقد اتجهت نحو وصف الأرض والجو والمدن وما إلى ذلك فأمدتنا بمادة جغرافية صرفة من الطراز الأول، وأما دعواه لأهله فاتجهت إلى بيان امتيازهم الفكري، فأمدتنا بمادة أدبية قيمة لا تقدر.

الواضح لدينا أن الوالد موسى بن سعيد المغربي قد أوشك أن ينتهي من تأليف كتاب (المغرب في حلي المغرب) ولم يبق سوى اللمسات الأخيرة التي أكملها الابن علي بن موسى بن سعيد. أما الكتاب الثاني (المشرق في حلي المغرب) فقد خطط الأب لكتابته لكن المنية عاجلته قبل البدء به، فألفه الابن علي، ثم جمع الكتابين تحت عنوان واحد (فلك الأرب المحيط بحلي لسان العرب) وهذا الكتاب يحتوي على معلومات أساسية في التاريخ والأدب وجغرافية العالم الإسلامي كله.

ولأبي الحسن علي بن سعيد مؤلف آخر في حقل الجغرافية عنوانه (كتاب الجغرافيا) وفي بعض الأحيان يطلق عليه اسم كتاب (بسط الأرض في طولها والعرض) أو كتاب (جغرافيا في الأقاليم السبعة). وهذا الكتاب يحمل بين دفتيه معارف جغرافية هامة ليست فقط عن العالم العربي والإسلامي ولكن عن بلاد الغرب أيضا. ومعظم محتويات هذا الكتاب تدور حول رحلاته المترامية في المغرب والمشرق.

يقول حسين مؤنس في كتابه آنف الذكر: «وجدنا أنفسنا أمام كتاب (كتاب الجغرافيا لابن سعيد) يعتبر من أحسن ما ألف العرب في الجغرافية، ومن حسن الحظ أن عالما أسبانيا راسخ القدم في تاريخ العلوم عند العرب وهو خوان بير نيت خينسي الأستاذ بجامعة برشلونة قد عني بتحقيقه ونشره، وتولى معهد مولاي الحسن في تطوان طبعه في سنة ١٩٥٨م، علما أن هذه الطبعة لا تضم إلا النصف دون أي تعليق أو بحث أو دراسة».

تفرغ أبوالحسن علي بن سعيد للبحث العلمي والتأليف في أواخر أيام حياته، فأنتج إنتاجا علميا رائعا وغزيرا في كل من الجغرافية والتاريخ والأدب ومنها:

١- لذة الأحلام في تاريخ الأمم الأعجام (مجلدان)

٢- ريحانة الأدب.

٣- نتائج القرائح في مختار المراثي والمدائح.

٤ـ الشهب الثاقبة في الإنصاف بين المشارقة والمغاربة.
٥ـ الطالع السعيد في تاريخ بني سعيد (مرتب على السنوات).
٦ـ النفحة المسكية في الرحلة المكية.
٧ـ نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب.
٨ـ القدح المعلى (تراجم بعض شعراء الأندلس)
٩ـ المرزمة في الفوائد الأدبية والأخبارية.

وخلاصة القول أن منهج أبي الحسن على بن سعيد يمتاز عن غيره بسلامة الوصف ومتانة الأسلوب ودقة التعبير، فهو لا يطنب ولا يستطرد، عرف بغزارة المادة ورسوخ العلم ورحابة الصدر وطول الأناة. وهو علم من أعلام الفكر العربي والإسلامي تجاهلته بعض المصادر العربية الحديثة طويلا، بينما اهتم به المستشرقون اهتماما بالغا. ظل ابن سعيد يسافر من المغرب إلى المشرق ومن المشرق إلى المغرب يدافع عن أمجاد أمته في الأندلس التي اغتصبها المعتدون النصارى وكان دائم الحسرة مرير النفس على ضياع بلاد الأندلس.

ذاع صيت على بن سعيد بين معاصريه والتابعين له بالأدب. وصفه أحمد بن محمد المقرى في كتابه (نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب) بقوله: أديب زمانه غير مدافع. اعترف له أهل الشرق بالسبق وأهل الغرب بالإبداع. مما لا شك فيه أن أباالحسن علي بن سعيد قد ساهم كثيرا في الأدب وتاريخه، كما أن له صولة وجولة أيضا في مجالي الجغرافية والتاريخ.

لقد كان كل من جد ووالد علي بن سعيد يحلمان أن يصنفا كتابا شاملا يحتوى على تاريخ العرب والبلاد العربية منذ العصر الجاهلي حتى وقتهما، لذا قام الابن علي بن سعيد بتنفيذ الحلم بكامله، فاستخدم المعلومات التي جمعها كل من جده ووالده وأضاف عليهما الكثير وأخرج مؤلفا رائعا تحت عنوان (فلك الأرب المحيط بحلي لسان العرب) الذي صار من المراجع العلمية الهامة للباحثين في مجالي الجغرافية والتاريخ.

وتميزت محاولات أبي الحسن علي بن سعيد في ميدان علم الجغرافية بأنه استطاع وبجدارة أن يوظف خطوط الطول والعرض في تحديد الأماكن المأهولة بالسكان بطريقة علمية دقيقة وسهلة ومن هنا تمكن علماء العرب والمسلمين

التابعين له أن يستخرجوا تصوراً جغرافياً متكاملاً عن العالم. وفي الحقيقة أن حياة أبي الحسن بن سعيد حافلة في الابتكار والآراء العلمية السديدة.

وللأسف الشديد أن المتواتر عن المؤرخين للعلوم أن مؤلفات أبي الحسن بن سعيد قد بلغت أربعمائة مؤلف، ولكن معظمها لم ينج من الضياع وعبث العابثين، ولكن لحسن الحظ أنه يوجد بعض العناوين وبعض الفقرات المقتبسة من كتبه في بعض أمهات الكتب الموجودة في المكتبات العالمية. كما أنه من وقت لآخر يخرج إلينا بعض الفصول محققة ومطبوعة في مجالي الجغرافية والتاريخ تحمل بين طياتها مادة نادرة تدل على طول باع صاحب الترجمة في هذين المجالين.

العــبدري

هو محمد بن محمد بن علي بن أحمد العبدري، يكنى بأبي عبدالله، لا نعرف بالضبط متى ولد ولا متى توفي، ولكن الثابت أنه كان حيا بعد سنة ٦٦٨هجرية، نشأ وترعرع في بلدة صغيرة تعرف باسم الحاحة تقع بين بسكرة وتوزر في المغرب الأقصى.

المتواتر أن أبا عبدالله العبدري بدأ رحلته لشمال أفريقيا سنة ٦٨٨هجرية، وفي نفس السنة أدى مناسك الحج، وقفل عائدا إلى بلاده سنة ٦٨٩ هجرية.

ينبغي التحرز من الخلط بين صاحب الترجمة وبين أبي بكر محمد بن ميمون العبدري القرطبي المتوفى سنة ٥٦٧ هجرية، المفسر والفقيه والأديب المعروف، وصاحب شرح أبيات الإيضاح للفارسي، وشرح مقالات الحريري، وشرحان على الجمل للزجاجي في النحو كبير وصغير.

والجدير ذكره هنا أن بعض المؤرخين يدعون أن محمد العبدري من بلنسية، ولذا يلقبونه بالبلنسي. والحقيقة أنه من بلاد المغرب الأقصى، ويؤكد ذلك محمد الفاسي في بحث نشر له في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد سنة ١٣٨٢هجرية، حيث ينوه أن محمد العبدري من أصل عربي قريشي يرجع إلى بني عبدالدار بن قصي القرشي الذي وحد شمل قبيلة قريش. فليس هناك من شك أن أبا عبدالله العبدري عربي مغربي صميم رحالة خدم علم الجغرافية برحلته المغربية الميمونة.

لا ريب أن أباعبدالله العبدري تأثر برحلة ابن جبير الحجازية التي قام بها قبله بنحو ٨٩ سنة. ولكن أباعبدالله العبدري تميز عن غيره من علماء العرب والمسلمين بتقديم وصف متكامل للطرق والمسالك البرية التي عبرها. وتحدث أيضا عن كل مدينة حل بها من حيث السكان ومعاملة الأهالي للعلماء. كما اهتم اهتماما بالغا بالموقع الجغرافي والمعالم الأثرية، ولذا ظهر كتابه بصورة مشرفة ومفيدة للباحثين في مجال علم الجغرافية.

ويصف حسين مؤنس في كتابه (تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس) أبا عبدالله العبدري بأنه رجل ريفي ألف العيش في الجو الطلق الصافي في الجبال بعيدا كل البعد عن زحمة الناس وضجيج المدن، لذا كان العبدري جغرافيا طبيعيا مرموقا.

وأضاف لجنثالث بالنثيا في كتابه (تاريخ الفكر الأندلسي) أن منهج أبي عبدالله العبدري يشبه منهج ابن بطوطة لرواية الأخبار، إلا أن ابن بطوطة يمتاز بسهولة وسلاسة الأسلوب.

عني أبوعبدالله العبدري في دراسة كل من العلوم الجغرافية والشرعية واللغوية والأدبية، ويتضح ذلك في كتابه (الرحلة المغربية) التي فيها أسهب بالكلام عن هذه العلوم. لذا يضعه بعض المؤرخين ضمن أدباء الحضارة العربية والإسلامية.

في طريق العبدري لمكة المكرمة مر بتونس والقاهرة وغيرهما، ولكنه أبدى إعجابه بأهل تونس، حيث أكرموه وقدروه. أما القاهرة فقال عنها إنها دار العلم والعلماء ومركز الإشعاع العلمي.

لقد عرف المستشرق الفرنسي شاربونو (Charbomeou) بأعمال العبدري الجغرافية، حيث نشر مقتطفات من نتاجه في المجلة الأسيوية الفرنسية الشهيرة. لذا صار علما من أعلام علم الجغرافية في العالم في حين أن أبناء جلدته لا يعرفون عنه إلا نتفا قليلة لا تسمن ولا تغني من جوع.

قام أحمد بن جدو بنشر كتاب (الرحلة المغربية) لأبي عبدالله العبدري سنة ١٣٨٥هجرية بالجزائر لذا صار هذا الكتاب القيم متداولا بين الجغرافيين والأدباء بالمعمورة. كما كتاب أحمد بن جدو مقدمة رائعة لهذا الكتاب ساعدت على ترويجه فجزاه الله خيرا.

خلاصة القول أن حالة العبدري النفسية ونشأته أثرتا على رحلته المغربية، فتجده يتحمس للمدن الصغيرة والجبال والأنهار والمناظر الطبيعية فينعتها بنعوت في غاية الروعة، بينما يوحي بعدم ارتياحه للمدن الكبيرة.

لم يخف هذا الشعور، بل ذكر في كتاب (الرحلة المغربية) أنه يحس بالراحة والطمأنينة خارج المدن بينما يشعر بالاكتئاب والسخط والحسرة في داخلها.

بعض المؤرخين انتقدوا أسلوب أبي عبدالله العبدري في الكتابة بأنه يستعمل الكلمات غير المألوفة عند الناس، حيث كان يحاول أن يخاطب مجموعة معينة من المتخصصين في ميدان علم الجغرافية. وهذا بدون شك عيب خطير.

يجب علينا أن لا ننسى أن أباعبدالله العبدري كان ذكيا ولّماحاً، ويفهم بسرعة مالا يفهم غيره. فهو من علماء العرب والمسلمين المتميزين في حقل الرحلات الجغرافية، لذا بقي كتابه من أهم المصادر الجغرافية لشمال أفريقيا لدى الباحثين.

ومن نافلة القول أحب أن يعرف القاريء أن أباعبدالله كان شاعرا بارعا ومبدعا. وتحدث بعض المؤرخين عن هذه الموهبة بدهشة. فلله در عالمنا محمد العبدري.

الدمشقي

هو شمس الدين محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي، ويكنى بأبي عبدالله، واشتهر بين معاصريه بشيخ الربوة، ولد في دمشق سنة ٦٥٤هجرية وتوفي بمدينة صفد بفلسطين سنة ٧٢٧هجرية.

شهد أبوعبدالله الدمشقي منذ نعومة أظفاره حوادث كثيرة اجتاحت العالم العربي والإسلامي فالمغول دمروا دار السلام (بغداد) عاصمة المشرق، بينما الأندلس سيطر عليها النصارى ولم يبق بيد العرب والمسلمين إلا غرناطة.

لم يخرج أبوعبدالله الدمشقي من بلده الشام، فقد عين إمام بمسجد الربوة. فكان رجلا ورعا زاهدا يحب الخير للجميع. ولذا تفرغ للدعوة في أواخر أيام حياته.

نذر أبوعبدالله الدمشقي نفسه للعلم وطلاب العلم منذ الطفولة فقد انتهى

من تأليف (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر) سنة ٧٢٥هجرية. وهذا الكتاب يعتبر كتابا فريدا في علمي الجغرافية والكوزموغرافيا فقد قدم للقراء وصفا جميلا لنظام الكون إضافة إلى المعلومات الجغرافية الأصيلة.

والمعروف لدى المؤرخين والجغرافيين في العالم أن أباعبدالله الدمشقي من الرعيل الأول المتميز في رسم الخرائط، فقد نوه عن ذلك في كتابه المشهور (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر).

ينقل لنا عبدالعال عبدالمنعم الشامي في بحث له بعنوان (جهود الجغرافيين المسلمين في رسم الخرائط الجغرافية) وضع ضمن بحوث المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول (مركز البحوث جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية) أن الدمشقي ذكر في مستهل كتابه (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر) أنه قد ختمه بصورة جغرافية دهانا بالأصباغ وتخطيطا محررا على مثل مواقع الأطوال والعروض والأمتاع في المعمور لتكون مثالا حسيا مشاهدا بالحس يشهد منه ما وصف من الهيئة وليكون الوصف برهانا على ما مثلت أمثلته بالجغرافية (الخرائط) المذكورة.

وعرف كتاب (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر) لأبي عبدالله الدمشقي منذ عام ١٢١٤هجرية في الأواسط العلمية والأكاديمية، ويذكر أغناطيوس كراتشكوفسكي في كتابه (تاريخ الأدب الجغرافي العربي) أن كرزموغرافيا الدمشقي عرفت منذ القرن الماضى ١٣٤٢هجرية في طبعة وترجمة فرنسية جيدة من عمل المستشرق الدنماركي مرن (Mehrer) وبفضل انتشار مخطوطات الكتاب بين المجموعات المختلفة فقد بدأ الاهتمام به مبكرا. فمنذ ١٢١٤ هجرية نشر المستشرق السويدي نوربرج (Norberg) مقتطفات صغيرة منه.

ويحتوى كتاب (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر) لدمشقي على:

الباب الأول:

وصف الأقاليم السبعة وفصول السنة وشكل الأرض.

والباب الثاني:

عن المعادن والجواهر والأحجار الكريمة.

والباب الثالث:

عن الأنهار والعيون والآبار.

والباب الرابع :

عن البحار.

والباب الخامس :

عن البحر الأبيض ومو‌انئه.

والباب السادس :

عن المحيط الهندي.

البابان السابع والثامن : فتحدث فيهما عن الممالك المشرقية والممالك المغربية في العالم الإسلامي.

وأضاف أغناطيوس كراتشكوفسكي في كتابه آنف الذكر أن كتاب (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر) للدمشقي له أهمية كبيرة من وجهة نظر التاريخ الطبيعي، لأنه يحفل بمعطيات وافرة في النبات والحيوان والمعادن وطبقات الأرض. كما أنه استخدم المنهج العلمي في وصف بلاد الأندلس وبلاد الشام. لذا يعتبر هذا الكتاب بحق مصدرا أساسيا بالنسبة لجغرافية بلاد الشام خاصة التي قضى حياته فيها.

اعتمد أبوعبدالله الدمشقي في جمع مادة كتابه (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر) على مصادر مختلفة في علم الجغرافية، ولكن من الواضح أنه استخدم مؤلفات كل من المسعودي وابن حوقل وياقوت الحموي والبكري والإدريسي. كما يشمل الكتاب على معارف أصيلة لم يسبقه إليها أحد.

ويذكر نفيس أحمد في كتابه (الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي) أن كتاب (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر) يعتبر مصدرا هاما، لأنه يحتوي على أكبر قائمة من أسماء الأماكن التي لم تذكر في كتب من تقدموه وخاصة في مجال معرفة العرب بالهند الجنوبية على طول سواحل مليبار وكرومول وعلى وجه الإجمال يعتبر الدمشقي كاتبا أصيلا متعمقا يعنى بانتقاء معلوماته من المصادر المتنوعة.

وخلاصة القول أنه يتضح للقاريء أن أباعبدالله الدمشقي كان من كبار العلماء في حقل علم الجغرافية، وكان يختلف عن معاصريه والسابقين له، لأنه استند في نتاجه العلمي على المراجع المكتوبة، بينما معظم علماء العرب والمسلمين في هذا المجال حصلوا على أكثر معلوماتهم من الرحلات الشخصية.

يجب أن نعترف أن الدمشقي قدم لنا معلومات جغرافية وكوزموغرافية في مواضيع علمية في غاية الدقة، على الرغم من انشغاله بالدعوة وطلاب العلم الذين قدموا لأراضي الشام من كل فج ليتتلمذوا على يده ليس فقط في علمي الجغرافية والكوزموغرافية ولكن أيضا في العلوم الشرعية.

ويلزم أن نوضح أن لأبي عبدالله الدمشقي مؤلفات كثيرة ولكنه ذاع صيته بين معاصريه واللاحقين له من كتابه (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر) والذي بقي من أهم المصادر العلمية في كل من الجغرافية والكوزموغرافية.

ويؤلمني أن أقول إن كتب التراجم العربية لم تذكر شيئا عن أبي عبدالله الدمشقي. والفضل كل الفضل يرجع للمستشرق الروسي أغناطيوس كراتشكوفسكي الذي تحدث عنه بأمانة في كتابه (تاريخ الأدب الجغرافي العربي). مما دفعني أن أكتب هذه السيرة المختصرة راجيا أن يأخذ منها الأجيال حافزا يدفعهم إلى دراسة نتاجه الأصيل.

أبـوالفـداء

هو إسماعيل بن علي بن محمود بن عمر الأيوبي. ويكنى بأبي الفداء، ويلقب بكل من الملك المؤيد وعماد الدين وصاحب حماة. ولد بمدينة دمشق سنة ٦٧٢هجرية وتوفي بحماة عام ٧٣٢هجرية. وينتمي أبوالفداء إلى عائلة عريقة لها مكانتها في التاريخ الإسلامي، فهو من فرع المظفر بن شاهنشاه ابن أخي صلاح الدين الأيوبي. وحكمت عائلة أبي الفداء حماة مدة طويلة.

انخرط أبوالفداء في العسكرية وهو في ريعان شبابه، فكان شجاعا مظفرا. حارب ضد الصليبيين والتتر مع السلطان قلاوون وابنه الأشرف خليل. وعينه الناصر محمد بن قلاوون نائبا عنه في حماة سنة ٧١٠هجرية، ثم اعترف به كسلطان على حماة سنة ٧٢٠هجرية. وهكذا عادت حماة إلى الأيوبيين بعد أحد عشر سنة تقريبا من خروجهم منها على يد جيوش التتر عليهم اللعنة.

يقول أغناطيوس كراتشكوفسكي في كتابه (تاريخ الأدب الجغرافي العربي - القسم الأول) «وإلى جانب ما يملكه أبوالفداء من ذهن صاف وقريحة فياضة وملكة شعرية، وتملك لمختلف فروع المعارف، إلا أنه برز كذلك بشجاعته وصفاته العسكرية، وقد اعترف له معاصروه بالمرونة والاستعداد الدبلوماسي

فاستطاع في تلك الأزمنة الشديدة الاضطراب أن يحتفظ بما ورثه عن آبائه من أملاك بل وأن يوسع رقعتها».

لم تؤثر السلطة الكاملة التي حصل عليها في حماة على دراسته، فقد سلك أبوالفداء طريقة علمية في البحث والتنقيب في معظم فروع المعرفة، حيث قسم وقته الثمين بين الحكم والبحث والتأليف، لذا يعتبر بحق من علماء العرب والمسلمين البارزين الذين خدموا الحضارة العربية والإسلامية بنتاجهم العلمي. والحقيقة أن أباالفداء خلد اسمه بعلمه وليس باسترجاعه ملك أجداده وحكمه لحماة.

يعتبر كتاب (تقويم البلدان) لأبي الفداء من كتب علم الجغرافية الرائعة لما يحتوى عليه من معارف عن البحار والأنهار والجبال ووصف طبيعة الأرض واستخدام خطوط الطول والعرض في تحديد الأماكن. وكان من دوافع أبي الفداء لتأليف هذا الكتاب قوله لما طالعت الكتب المؤلفة في البلاد ونواحي الأرض من الجبال والبحار وغيرها لم أجد فيها كتابا موفيا بغرض.

وقد تكلم أبوالفداء في كتابه (تقويم البلدان) عن كروية الأرض، واستخلص أن خط الاستواء عبارة عن دائرة عظماء وهمية تمر بمنطقتي الاعتدالين الربيعي والخريفي كما قسم الأرض إلى قسمين شمالي وجنوبي وهذه الأفكار العلمية الناضجة تدل على ثقافة واسعة في مجال علم الجغرافية الفلكية.

لأبي الفداء كتاب آخر (المختصر في أخبار البشر) ويعرف أيضا باسم (تاريخ أبي الفداء) وهو كتاب ضخم جامع، ترجمت أجزاء عديدة منه إلى مختلف اللغات الأوروبية. وقد بذل أبوالفداء جهدا عظيما في تأليفه، واعتمد بذلك على أرشيف دولة المماليك في كل من مصر والشام وعلى المراجع الأصيلة ومن بينها: الكامل لابن الأثير الجزري، ومن تجارب الأمم لابن مسكويه، ووفيات الأعيان لابن خلكان، وتاريخ اليمن للفقيه عمارة، وكتاب لذة الأحلام في تاريخ أمم الأعجام لابن سعيد المغربي، وتاريخ القيروان للصنهاجي.

وتأتي أهمية كتاب (المختصر في أخبار البشر) لأبي الفداء بأن معظم المراجع التي اعتمد عليها مفقودة في هذه الأيام مثل: كتاب اليمن للفقيه عمارة، وتاريخ القيروان للصنهاجي وكتاب لذة الأحلام في تاريخ أمم الأعجام لابن سعيد

المغربي وغيرها. فمن هذا المنطق نجد هذا الكتاب من المصادر الهامة للباحثين في ميداني علم التاريخ والجغرافية، لأنه يحتوي على معلومات فريدة ونادرة ولا يمكن الوصول إليها إلا عن طريقه.

والحق أن أباالفداء يعتبر نموذجا يجب الاقتداء به. فقد حلق في سماء العلوم الاجتماعية، فله نتاج قيم تزخر به المكتبات العالمية في هذا الحقل ومنها على سبيل المثال لا الحصر: تاريخ الدولة الخوارزمية، ونوادر العلم، والكناش في العلوم، والموازين، وله موشحات كثيرة. ويتضح جليا أن أباالفداء صاحب شأن عظيم في التأليف والسياسة واشتهرت جميع مؤلفاته بالشمولية وسهولة الأسلوب.

يقول جورج سارتون في كتابه (المدخل إلى تاريخ العلم) إن أباالفداء يعتبر أكبر عالم جغرافي بين علماء الجغرافية أجمع. فكان يحب الرحلات إلى مختلف الأقطار لدراسة مناخها وحالتها السياسية. كما كان مغرما بالتأليف. وقد امتازت مؤلفاته في حقلي التاريخ والجغرافية بالدقة والتحري العلمي الصحيح. وهو أول من لاحظ أن السفر حول الأرض يؤدي إلى زيادة يوم أو نقصان يوم.

وخلاصة القول فقد وصلت مدينة حماة إلى مستوى عمراني مرموق بسبب جهود وأعمال أبي الفداء حيالها. فلا عجب إذا سميت مدينة أبي الفداء. ولا يزال سكان حماة يعتزون به، فهو الذي خلد اسم مدينتهم في التاريخ الإسلامي. وتوجد لهذا العالم مقبرة في حماة قرب مسجد الحيايا الذي أنشأه بنفسه. ولا يخفى على القاريء أن أباالفداء صرف انتباها ملحوظا لمدينة حماة وحكامها من عائلة الأيوبيين في نتاجه العلمي.

ويعتبر المؤرخون للعلوم الاجتماعية أن كتاب (تقويم البلدان) لأبي الفداء هو همزة الوصل بين الجغرافية الرياضية والجغرافية الأدبية. ولا شك أنه استفاد من منصبه القيادي في مدينة حماة، وذلك مكنه من الحصول على المعلومات الدقيقة عن طريق الوثائق الحكومية والتجار والرحالة والكتب النادرة ومشاهداته الشخصية التي عملها بنفسه، لذا خرجت إسهاماته العلمية ليس فقط في علم الجغرافية ولكن في العلوم الأخرى التي تتصف بالدقة العلمية المتناهية، لذا يشعر الباحث بكل ثقة عندما يقتبس من مؤلفاته المتنوعة.

ولقد جمع المادة العلمية التي دونها في كتبه من مؤلفات عديدة لعلماء العرب

والمسلمين الأوائل، ولكنه لم يقتصر على ذلك، بل أضاف مادة جديدة وأصيلة. كما تميز بمقدرته الهائلة لعرض الحقائق العلمية بأسلوب سهل واضح. ولمع بين معاصريه بالقدرة على النقد الموضوعي لذا يصح أن يطلق عليه العالم الناقد المخضرم.

أولى المستشرقون عناية خاصة لدراسة مصنفات أبي الفداء، فكتابه (تقويم البلدان) أول كتاب ترجم من اللغة العربية بهذا الفن. وعليه ذاع اسمه بينهم. كما يوجد نسخ كثيرة في مكتبات أوربا لهذا الكتاب مثل مخطوطة بمعهد الدراسات الشرقية بلينغراد وأخرى في مكتبة ليدن وغيرهما. وكما يحتوي هذا الكتاب على معلومات جيدة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية للعالم الإسلامي آنذاك. فلا عجب أن نرى اسم أبي الفداء على حائط قائمة الاجتماعات للجمعية الجغرافية الفرنسية في باريس.

والفضل يعود لأبي الفداء في استخدام جداول المعلومات الجغرافية الوصفية للمدن والأقاليم فهو من علماء العرب والمسلمين الذين اهتموا اهتماما تاما بجداول الزيوج الرياضية، وقد وظف ذلك في ميدان علم الجغرافية. فظهر كتابه (تقويم البلدان) مختصرا يشمل المعلومات الضرورية عن الحدود السياسية والتضاريس والحياة الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية والطرق، إضافة إلى المعلومات الأصيلة عن كروية الأرض والمناخ وغيرها.

أعتقد شخصيا أن الباحثين في العالم العربي والإسلامي لم يعطوا أبا الفداء حقه من البحث والاستقصاء في نظرياته الجغرافية والتاريخية والاجتماعية والتربوية. ولا تزال كتبه مطروحة على شكل مخطوطات في المكتبات العلمية تحتاج إلى من يحققها ويخرجها للعيان، علما أن المستشرقين حققوا نتفا من نتاجه في حقلي الجغرافية والتاريخ لأن له جولات وآراء سديدة وقيمة، فلقد أفاد كلا من الجغرافية والتاريخ والأدب والعلوم الشرعية ببحوثه المبتكرة. وبهذا استطاع أبوالفداء أن يسدي خدمات جليلة للحضارة العربية والإسلامية.

النـويـري

هو أحمد بن عبدالوهاب بن محمد بن عبدالدائم القرشي التميمي البكري،

المعروف باسم شهاب الدين النويري. ولقد بقوص في القطر المصري سنة ٦٧٧هجرية، وتوفي في القاهرة سنة ٧٣٣هـ. وينتمي إلى نويرة من قرى بني سويف بمصر، ولهذا يلقب بالنويري.

نشأ وترعرع في مصر التي اشتهرت بعلمائها الأفاضل، فكان طلاب العلم يأتون من جميع أصقاع العالم ليتتلمذوا على يد جهابذة الفكر هناك. لذا كان النويري صاحب بحوث غزيرة تدل على سعة اطلاعه.

والجدير بالذكر أن النويري كان من المغرمين بفن الخط، لذا كان خطاطا بارعا، فعمل بنسخ الكتب، واستحسنها في باديء الأمر واتخذها مهنة له، تواتر عن المؤرخين أنه نسخ صحيح البخاري تسع مرات قابل كلا منها بسائر الروايات.

كان شهاب الدين النويري من أقرب الناس للملك الناصر محمد بن قلاوون، فقد أسند إليه بعض الأعمال الرسمية، مما يدل على الثقة التامة بينهما. وقد استفاد النويري من هذه الصلة بأن حصل على معلومات جغرافية وتاريخية من مصادرها الأولية، لذا امتاز نتاجه العلمي بالأصالة والدقة.

والمتواتر أن للنويري باع طويل بالنثر، فكان أسلوبه يجمع بين السهولة والجزالة، فعندما يتحدث عن فكرة يعطيها حقها في التحليل والتعليق المفيدين للقاريء. كما أنه اشتهر في ابتعاده عن التعقيد والمراوغة فهو كاتب ذكي حكيم ألمع بليغ لبق. لذا صار كتابه (نهاية الأرب في فنون الأدب) متداولا بين طلاب العلم.

وكتاب (نهاية الأرب في فنون الأدب) لشهاب الدين النويري يعتبر بحق موسوعة معارف متكاملة، علما أنه ركز فيه على النواحي العلمية والجغرافية والتاريخية. فقد دون فيها معلومات تاريخية ثمينة عن صقلية اعتمد فيها على مصادر قيمة ضاعت بسبب الحروب التي عاشتها البلدان العربية والإسلامية آنذاك.

قال النويري في مقدمة كتابه (نهاية الأرب في فنون الأدب) فامتطيت جواد المطالعة، وركضت في ميدان المراجعة، وحيث ذل لي مركبها، وصغا لي مشربها، آثرت أن أجرد منها كتابا أستأنس به وأرجع إليه، وأعول فيما يعرض لي من

المهمات عليه. فاستخرت الله سبحانه وتعالى وأثبت منها خمسة فنون حسنة الترتيب بينة التقسيم والتبويب. كل فن منها يحتوي على خمسة أقسام :

الفن الأول :

في السماء والآثار العلوية والأرض والمعالم السفلية.

والفن الثاني :

في الإنسان وما يتعلق به.

والفن الثالث :

في الحيوان الصامت.

والفن الرابع :

في النبات.

والفن الخامس : في التاريخ وترجمته بنهاية الأرب في فنون الأدب.

وقد نوه حاجي خليفة في كتابه (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون) عن موسوعة (نهاية الأرب في فنون الأدب) من ٣١ مجلدا لشهاب الدين النويري، على أن العلامة النويري قد تمكن من الإحاطة بعلوم عصره فكتب عن معظم فروع المعرفة.

ويذكر عبدالفتاح محمد وهيبة في بحث له بعنوان (الجغرافية والثقافة الإسلامية) نشر ضمن بحوث المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول لعام ١٤٠٤هجرية (مركز البحوث: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية) أن كتاب (نهاية الأرب في فنون الأدب) للنويري يعتبر موسوعة ضخمة تتألف من (٩٠٠٠) صفحة، تتضمن تلخيصا لجميع العلوم الاجتماعية ومنها الجغرافية، ولذا فهي تعد من أهم المصادر التي نرجع إليها إذا ما أردنا التعرف على ثقافة العصر.

والجدير ذكره أن النويري قدم بحوثا في غاية الدقة عن علم النبات تصنيفا علميا لم يسبقه إليه أحد. لذا لا غرابة أن يجمع علماء النبات على أن النويري أول من صنف النبات بطريقة علمية صحيحة. أما في حقل الجغرافية فقد اعتمد في بحوثه على المراجع الموثقة وعلى المعلومات التي سمعها من أصحاب الرأي. فقد

تحدث في كتابه (نهاية الأرب في فنون الأدب) عن الأنهار المختلفة والبحار والمحيطات والجبال والسهول وعدد السكان والحالة الاجتماعية وغيرها، مما يجعله يستحق أن يوضع في قائمة علماء الجغرافية.

ويذكر أغناطيوس كراتسكوفسكي في كتابه (الأدب الجغرافي العربي) أن القسم الجغرافي من موسوعة النويري يشغل القسمين الرابع والخامس من الفن الأول، وفيه نلتقي بكل المعلومات المعروفة لنا عن خلق العالم والظواهر الجوية وقياس الوقت والفصول، وكذلك عن الأرض وأبعادها والأقاليم السبعة والجبال والبحار والجزر والأنهار والبحيرات والبلدان المختلفة والمدن وسكانها وآثار المنازل والمحال.

وخلاصة القول فإن لشهاب الدين النويري أن يوضع في أعلى قائمة كل من علماء الجغرافية والتاريخ والأدب، فقد تكلم عن هذه العلوم بكل دقة تدل على طول باعه في هذه المجالات الحيوية. فهو بحق مؤرخ وجغرافي وأديب مشارك في علوم كثيرة.

جمع النويري في موسوعته (نهاية الأرب في فنون الأدب) معارف عن السماء والأرض والإنسان والحيوان والنبات والتاريخ في غاية الأهمية، لذا نرى المستشرقين يهتمون بنتاجه اهتماما بالغا. كما أن العرب والمسلمين والمعاصرين استفادوا من هذه الموسوعة العظيمة عبر النسخة التي أصدرتها مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٤٢هجرية بفضل أحمد زكي باشا المتوفى سنة ١٣٥٣هجرية.

ولا ريب أن موسوعة (نهاية الأرب في فنون الأدب) للنويري تعتبر من المصادر الأولى في علمي الجغرافية والتاريخ، وإن كان عنوان الموسوعة لا يعطي هذا الانطباع. فعالمنا الموقر تناول علمي الجغرافية والتاريخ من منظور أدبي ولكنه لم يهمل الجانب العلمي. لذا بقي كتابه سهلا على الدارسين والباحثين في هذين العلمين.

العمـــري

هو أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري الدمشقي، يكنى بأبي العباس، ويلقب بالعمري ولد بمدينة دمشق سنة ٧٠٠ هجرية وتوفي فيها سنة

٧٤٩هجرية. ينتمي إلى عائلة عربية عريقة من سلالة الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولذا عرف باسم العمري.

كان والد صاحب الترجمة يحيى العمري من كبار موظفي الدولة في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، حيث شغل وظيفة رئيس ديوان الإنشاء، لهذا اختار لابنه معلمين متميزين في العلوم الشرعية واللغوية. واستمر الابن أحمد بن يحيى العمري في تلقي العلم على يد جهابذة الفكر في كل من مصر ودمشق، فنبغ أيضا في علمي الجغرافية والتاريخ. أسند لأحمد العمري وظيفة القضاء في مصر، فاشتهر بعدالته وقوله الحق. كما تولى رئاسة ديوان الإنشاء بعد وفاة والده وذلك أيضا في عهد السلطان الناصر.

يذكر ابن حجر العسقلاني في كتابه (الدرر الكامنة في أعيان الثامنة ـ المجلد الأول) أن أبا العباس العمري كان يتوقد ذكاء مع حافظة قوية ومقدرة عجيبة على الكتابة نثرا وشعرا، كما أنه كان يقرأ على السلطان الناصر محمد بن قلاوون رسائله السرية في زمن كان والده يحيى هو كاتب السر للسلطان المملوكي الناصر. وللأسف أن هذه العلاقة مع السلطان الناصر لم تدم طويلا، فغضب عليه السلطان الناصر وأرسله منفيا إلى دمشق حيث توفي هناك.

اهتم أبوالعباس العمري بالتأليف فصنف كتابه الرائع (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) الذي نال منه شهرة عظيمة. ويمتاز هذا الكتاب عن غيره بالمراجع الأصيلة التي اعتمد عليها المؤلف، فهو لم ينقل إلا عن كبار المفكرين أصحاب الثقافات العالية المشهود لهم بالسبق في مجالي الجغرافية والتاريخ. كما استفاد من الوثائق الرسمية التي كانت تحت يديه بحكم عمله. لذا صار هذا الكتاب من المصادر الضرورية للباحثين في كل من الجغرافية والتاريخ والأدب.

ويذكر أغناطيوس كراتشكوفسكي في كتابه (تاريخ الأدب الجغرافي العربي ـ الجزء الأول) أن كتاب (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) لابن فضل الله العمري يعتبر موسوعة ضخمة في الجغرافية التاريخية ويبدو أن هذه الموسوعة تتألف من اثنين وثلاثين جزءا، كما أثبت ذلك أحمد زكي باشا الذي استطاع بمجهوده الشخصي أن يجمع نسخة كاملة ويضعها في دار الكتب بالقاهرة. وإن كانت موسوعة العمري هذه لا تخلو من الطرافة الأدبية كمصنف أدبي قائم بذاته

فهي أيضا معين لا تنضب مادتها فيما يتعلق بعلمي الجغرافية والتاريخ.

لقد طرح أبوالعباس العمري في كتابه (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) الذى يأخذ في بعض الأحيان اسم (أخبار الملوك) تصورا علميا خطيرا، وذلك حول وجود أمريكا قبل اكتشافها بحوالي مائة وخمسين سنة من الزمن. يقول العمري: «لا أمنع أن يكون ما انكشف عنه الماء من الأرض من جهتنا منكشفا من الجهة الأخرى، وإذا لم أمنع أن يكون منكشفا من تلك الجهة لا أمنع أن يكون به من الحيوان والنبات والمعادن مثل ما عندنا أو من أنواع وأجناس أخرى. والحقيقة أن معظم نظريات العمري الجغرافية ثبت صحتها، فهو بلا شك صاحب عقل ثاقب وحس متميز».

لم يهمل العمري البحث والتنقيب والتأليف، فقد كتب أكثر من أحد عشر مؤلفا من بين رسالة وديوان وكتاب في موضوعات مختلفة ومنها: تذكرة الخاطر، والتعريف بالمصطلح الشريف وحسن الوفاء لمشاهير الخلفاء (قصيدة دامغة) الدعوة المستجابة، دمعة الباكي ويقظة الساهي، وذهبية العصر، وسفرة السافر، وصبابة المشتاق، وفواصل السمر في فضائل آل عمر (في أربعة مجلدات)، ونفحة الأرض، ومسالك الأبصار في ممالك الأمصار.

وخلاصة القول فقد كان أبوالعباس العمري رجلا عصاميا، فلم يتأثر كثيرا في الوسط الدواويني الذي أمضى فيه معظم حياته، بل كان باحثا مستقصيا لمعالم الحضارة العربية والإسلامية مما جعله واسع الاطلاع في العلوم المختلفة، فكان ناقدا مخضرما لم يقبل سوى الآراء والنظريات التي لم يكن حولها شبهات.

لقد تميز أحمد العمري في تركيزه على جوهر الموضوع فلم يسهب أو يختصر اختصارا مخلا بل يظهر في جميع مؤلفاته الترتيب المنطقي وتبنية المنهج التاريخي، لذا لقيت مصنفاته رواجا عظيما بين معاصريه والتابعين له. ولاريب أن نبوغه هذا خلق له الأعداء الحاقدون من العجزة والمقصرين الذين حاكوا له المكيدة أمام السلطان الناصر مما جعل السلطان الناصر يسجنه مدة طويلة من الزمن.

كان أبوالعباس العمري يحب التنقل بين بلدان الأمة العربية والإسلامية ليس للسياحة ولكن لجمع المعارف المختلفة وليتلقى العلم على يد كبار المفكرين في كل من دمشق ومكة المكرمة، لذا صارت مؤلفاته وفي مقدمتها (مسالك الأبصار في

ممالك الأمصار) مراجع هامة وضرورية للباحثين في مجالي الجغرافية والتاريخ، ويتضح ذلك من الاقتباسات التي استفاد منها المؤلفون في هذين الميدانين عبر التاريخ.

كان أبوالعباس العمري عالما موسوعيا ليس فقط في الجغرافية والتاريخ ولكن أيضا له نشاطات أخرى مثل نظم القصائد في المناسبات وعمل الأراجيز والموشحات. كما أن له نظريات رائعة في نظام الإدارة القائم آنذاك في العالم العربي والإسلامي، وذلك ناتج من اطلاعه الشخصي على الوثائق الرسمية في أرشيف دولة المماليك في مصر، لأنه تولى رئاسة الدواوين هناك بعد وفاة والده يحيى ردحا من الزمن.

اندهش المؤرخون في العالم لنتاج أبي العباس العمري الضخم الحافل بالأفكار الأصيلة لأنه كان يدرس العلم للعلم، رغبة منه لفهم الحقيقة والوقوف عليها بنفسه. وهكذا كان جميع علماء العرب والمسلمين الذين برزوا في تطوير الحضارة العربية والإسلامية.

كان أبوالعباس العمري معروفا تمام المعرفة لدى علماء العرب والمسلمين المعاصرين في حقلي الجغرافية والتاريخ، وذلك لنظرياته وأفكاره الخطيرة في هذين الموضوعين. وأنصفه المستشرقون بنعتهم له بأنه صاحب الثقافة العالية والاطلاع الواسع والمواهب النادرة. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه مَنْ مِن علماء العرب والمسلمين المعاصرين بلور نظرية أبي العباس العمري حول وجود القارة الأمريكية قبل اكتشافها بقرن ونصف من الزمن؟. الجواب لا أحد.

مما لا شك فيه أن كريستوفر كولومبوس (٨٥٥-٩١٢هجرية) الملاح الإيطالي الذي اكتشف أمريكا عام ٨٩٧ هجرية كان مطلعا على نظرية أبي العباس العمري آنفة الذكر، لذا قام برحلته البحرية ليثبت صحتها، فنظرية أبي العباس العمري جعلت من كريستوفر كولومبوس ما هو في تاريخ البشرية اليوم.

أرى شخصيا أنه إلزاما على الباحثين في العلوم الاجتماعية أن يضعوا أبالعباس العمري في مكانه اللائق به في تاريخ اكتشاف أمريكا، لأن نظريته في هذا الموضوع هي التي دفعت بكريستوفر كولومبوس أن يكتشفها.

ابـن بطـوطـة

هو محمد بن عبدالله بن إبراهيم اللواتي الطنجي، يكنى بأبي عبدالله، ويلقب بابن بطوطة. عرف باللواتي نسبة إلى قبيلة لواتة البربرية، وكذلك يسمى الطنجي لأنه ولد في مدينة طنجة التى تقع على مضيق جبل طارق بشمال المغرب. عاش أبوعبدالله بن بطوطة فيما بين ٧٠٣-٧٧٩هـ.

شب ابن بطوطة وترعرع في مدينة طنجة في حضن أسرة كريمة كانت تهتم كل الاهتمام بالعلوم الشرعية واللغوية، فنبغ في علم الفقه وهو في ريعان شبابه، لذا احتل ابن بطوطة مكانا مرموقا في مجال القضاء، فأسند إليه هذا المنصب عدة مرات خلال رحلاته حول العالم. كما ذاع صيته أيضا في رحلاته الواسعة والمتعددة والتى لا يكاد يدانيه في كثرتها سوى الرحالة الإيطالي ماركو بولو.

يقول نقولا زيادة في كتابه (الجغرافية والرحلات عند العرب) وفي طنجة عروس المغرب درس ابن بطوطة العلوم الشرعية على ما عرف عن أسرته من اهتمام بها. فلما بدأ رحلاته كان قد أصبح ممن يشار إليهم بالبنان في هذه العلوم. وقد عرف الحجاج المغاربة رفاقه في السفر فضله وهم في الطريق إلى مكة المكرمة (سنة ٧٢٥ هجرية) فجعلوه قاضيا لهم، مع أنه كان شابا يافعا يبلغ من العمر الثانية والعشرين. إن دل هذا على شيء فإنما يدل على بروز ابن بطوطة في العلوم الشرعية وحكمته وحسن تقديره للأمور.

وبعد أن أدى بن بطوطة فريضة الحج اتجه إلى العراق وإيران وتركيا وزار كبار المدن في كل منها ثم عاد إلى مكة المكرمة مرة ثانية للحج سنة ٧٢٧هجرية، وبقي في مكة المكرمة ردحا من الزمن للتبحر في العلوم الشرعية واللغوية على يد جهابذة الفكر هناك، وحج سنة ٧٢٨ و ٧٢٩ الهجريتين. وفي سنة ٧٣٠ هجرية غادر مكة المكرمة إلى شواطيء السودان واليمن والصومال وكينيا وتنزانيا ثم قفل إلى مكة المكرمة فحج للمرة الخامسة سنة ٧٣٢هجرية. وسمع ابن بطوطة عن غرائب وعجائب الهند فسارع إلى زيارتها وفي طريقه مر ببلاد الشام وجنوب روسيا وأفغانستان ووصل إلى دلهي. وعزم على الرحلة إلى الصين فمر على سيلان وأندونيسيا. وأخيرا قرر العودة إلى مسقط رأسه بلاد المغرب سنة ٧٤٦هجرية مارا بمكة المكرمة فحج للمرة السادسة والأخيرة سنة ٧٤٩هجرية. لم يبق طويلا في

فاس، فسافر سنة ٧٥١ هجرية إلى بلاد الأندلس، ولكنه لم يرغب البقاء إلا لمدة قصيرة لأن الوضع كان متدهورا هناك، فرجع إلى فاس للمرة الثانية، ولم يقم فيها طويلا بل بدأ رحلته سنة ٧٥٢هـ إلى القارة الأفريقية، ثم طلبه سلطان فاس المتوكل على الله أبي عنان المريني سنة ٧٥٤هـ، وصار ابن بطوطة من جلساء السلطان، وأمر الأديب محمد بن جزى الكلبي الغرناطي أن يكتب الأخبار التي يتحدث عنها ابن بطوطة.

بذل الأديب ابن جزى جهدا عظيما في إنهاء كتابه رحلة ابن بطوطة في ثلاثة أشهر وذلك سنة ٧٥٦هجرية، وقد كشفت لنا هذه الرحلة حقائق جغرافية وتاريخية وأدبية في غاية الأهمية.

يقول أغناطيوس كراتشكوفسكي في كتابه (تاريخ الأدب الجغرافي العربي - القسم الأول) «إن ابن بطوطة شخص شاهد الكثير وعرف كيف يصور ما شاهده بدقة وبساطة، وقد جعلت منه الأقدار جغرافيا وصنعت منه لونا من الرحالة نادرا عند العرب، ذلك الرحالة الذي يستهدف الرحلة لذاتها ويضرب في مجاهل الأرض استجابة لعاطفة لا تقاوم ورغبة جارفة للتعرف على الأقطار والشعوب، وهو نقيض الغالبية العظمى من الجغرافيين العرب لم يجمع مادته من صفحات الكتب بل جمعها عن طريق التجربة الشخصية وعن طريق محادثاته مع شخصيات تعرف عليها عرضا خلال رحلاته. ومن المستحيل إنكار أنه كان آخر جغرافي عالمي من الناحية العلمية.

ورحلة ابن بطوطة تمتاز عن الرحلات الأخرى ليس فقط بما تحتوي عليه من معلومات في الجغرافية الوصفية للبلاد والجبال والمسالك والمناخ والمحصولات الزراعية والصناعية ولكنها تهتم أيضا في العادات والتقاليد لسكان البلاد التي ورد ذكرها. فهذه الرحلة تعتبر سجلاً دقيقاً وشاملاً لحياة العالم المعمور، لذا لايستطيع يستغني عن كتاب (رحلة ابن بطوطة) علماء الاجتماع والجغرافية والتاريخ والسياسة والاقتصاد.

كان بودنا أن نقدم بعض المقتطفات كنماذج لرحلة ابن بطوطة كوصفه الرائع لمكة المكرمة والمدينة المنورة والمسجد الأقصى والمسجد الأموى بدمشق، وحديثه الممتاز عن الأوقاف وفضلها وغير ذلك كثير جدا، ولكن كتاب (رحلة ابن بطوطة)

موجود بكثرة في الأسواق وجميعها تحتوي على نصوص الرحلة بأكملها، والحقيقة أننا نحتاج إلى نسخة محققة ومشروحة باللغة العربية لكي تكون في متناول الباحثين وطلاب العلم.

وخلاصة القول يجب أن يعرف القارىء أن هناك عوامل كثيرة غير الحج تقود إلى التجوال في بعض مدن العالم. فعلى سبيل المثال التجارة التي تعتبر منذ فجر التاريخ همزة الوصل بين الدول، فكل بلد يحتاج إلى تسويق الغلات الزراعية والصناعية. وأيضا طلب العلم والرزق من الأسباب الهامة إلى الضرب في الأرض. ، وفي العصور الإسلامية فإن الفتوحات الإسلامية كانت من البواعث للرحلات ولمعرفة البلاد التي يريد قادة العرب والمسلمين فتحها كما آلت الرحلات أخيرا لإيجاد الصلة والتعاون بين حكام البلاد.

وقد اشتهر صاحب الترجمة ابن بطوطة باجتماعاته المتكررة مع علماء كل بلد يحل به ولذا نراه يمكث في مكة المكرمة فترة طويلة من الزمن لكي يتتلمذ على يد كبار المفكرين في العلوم الشرعية هناك بالإضافة إلى تحقيق حلمه الأول وهو البقاء مدة من الزمن في الديار المقدسة للعبادة.

ومما لاشك فيه أن ابن بطوطة من العلماء الشموليين الفريدين، حيث إنه لم يقتصر على فن من فنون المعرفة. فقد تحدث عن عادات الناس وتقاليدهم وطباعهم كأنه عالم الاجتماع. وتكلم بكل وضوح عن التجارة وعوامل نجاحها وكأنه خبير فيها ومن رجال الأعمال المرموقين. أما ما ذكره عن التضاريس والأودية والسهول والأنهار والبحار والطرق البرية والبحرية فيجعله رحالة جغرافيا متميزا. وهذا أعطى كتاباته أهمية خاصة.

ذاع صيت ابن بطوطة بأشعاره الكثيرة التي نظمها في مناسبات كثيرة عبر رحلاته المتعددة. وقد امتازت قصائده بوضوحها وسهولة فهمها، لذا حفظها وتناقلها الناس عبر التاريخ.

ولحسن الحظ فإن كتابه (تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) يحتوي على بعض القصائد المختارة الجيدة.

ساح ابن بطوطة في كل من روسيا وتركستان والهند والصين وسيلان وأندونيسيا إضافة إلى البلدان العربية وجمع معلومات جغرافية نادرة ضمنها كتابه (تحفة

الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) لذا صار كتابه من المصادر الهامة للباحثين في ميدان الرحلات الجغرافية. كما استفاد منه علماء الاجتماع والسياسة والاقتصاد لما يشمل عليه من آراء وأفكار هامة في هذه الميادين. والحقيقة أن ابن بطوطة كان من أعظم الرحالة العرب والمسلمين قاطبة وأكثرهم طوفاناً في الآفاق، لذا يستحق وبجدارة لقب شيخ الرحالين.

لقد غامر ابن بطوطة بنفسه في سبيل المعرفة والعلم والكشف عن المجهول، حيث تحمل عناء السفر على ظهور الجمال في القوافل التي عبرت الفيافي وفي بطون المراكب التي سارت بين الأمواج العاتية والعواصف المدمرة. هذه المغامرة تعطي القاريء فكرة جيدة عن عقيدة هذا الرحالة العظيم بالله سبحانه وتعالى. كما استطاع أبوعبدالله ابن بطوطة بتواضعه ونبل أخلاقه أن يعقد صداقات قوية ليس فقط مع كبار المفكرين في البلدان التي مر بها ولكن أيضا مع عامة الناس لكسب المعارف العلمية التي دونها لنا في كتابه (رحلة ابن بطوطة).

ترجم كتابه (رحلة ابن بطوطة) إلى اللغات البرتغالية والفرنسية والإنجليزية والتركية والألمانية واللاتينية والإيطالية وذلك للإضافة العلمية الهامة التي أضافها لعلمي الجغرافية والاجتماع. فجامعات أوربا بقيت تدرس علم الرحلات من هذا الكتاب مدة طويلة من الزمن، لأن ابن بطوطة لم يكن مؤلفا نظريا جافا بل العكس يفيض بالإنسانية والحيوية.

عرض ابن بطوطة محتويات رحلته بأسلوب فكاهي ظريف وقصصي في نفس الوقت، محافظا على قواعد اللغة العربية، وقد تحرى الأمانة والصدق حتى ولو كان الأمر متعلقا به شخصيا. ولهذا السبب لقب (بالرحالة الأمين). والحقيقة أن رحلة ابن بطوطة من أحسن الرحلات التي قام بها علماء العرب والمسلمين لما فيها من وصف للعادات والأخلاق الرفيعة، ولما فيها أيضا من معلومات جغرافية وتاريخية.

وتكمن قيمة رحلة ابن بطوطة بما تحتويه من حكايات نادرة لا تكلف فيها، بل جعلها بطريقة تدفع القارىء إلى قراءتها بكل إمعان. خاصة ما ذكره حول عجائب المخلوقات، وبذلك أثرى علمي الجغرافية والتاريخ. واشتهر ابن بطوطة بيقظته، فكان يسير دائما مفتوح العين بذاكرة ممتازة، لذا استطاع وبكل جدارة أن

يملي رحلته كلها لابن جزي من ذاكرته.

ولا يخفى على القاريء أنه من الصعب جدا الكتابة عن حياة عالم لم يعطه معاصروه حقه من البحث والدراسة والاستقصاء، ويزيد الطين بلة التشويه الذي حصل لنتاج شيخ الجوالين ابن بطوطة القاضي الورع التقي. حاولنا أن نستفيد من آراء الخبراء من مسلمين ومستشرقين في حقل الرحلات الجغرافية ونستخلص لهذا الرحالة العظيم سيرة علمية تخدم شباب الأمة العربية والإسلامية. كما أننا نهيب بأبناء الأمة العربية والإسلامية أن تخرج في القريب العاجل طبعة محققة ومشروحة لهذه الرحلة الفريدة من نوعها باللغة العربية تضارع الطبعة الباريسية آنفة الذكر.

أبو أحمد التجاني

هو عبدالله التجاني التونسي، يكنى بأبي أحمد، ويلقب بالرحالة السياسي. لا نعرف شيئا عن تاريخ ولادته، ولكن الثابت أنه من علماء القرن السابع الهجري ومن أهل تونس.

يخلط الكثير بين صاحب الترجمة والحسن بن عطية التجاني الذي عاش فيما بين (٧٢٤ـ٧٩٠هـ) بمدينة مكناس المغربية، والذي عرف بين معاصريه باسم الفقيه، حيث كتب في علم الفرائض وله عدة فتاوي تتناقلها الناس جيل بعد جيل.

تربى التجاني في بيت علم وجاه، فقد كان والده من كبار علماء المغرب كما كان جده وأعمامه من العلماء المرموقين المعروفين بجهودهم العلمية المتميزة. فلهم مكتبة عالمية تحتوي على الكتب النادرة في جميع المعارف وخاصة العلوم الشرعية واللغوية بمدينة تونس. فعائلته عائلة عريقة مشهورة بعلمائها المرموقين ليس فقط في العلوم الشرعية واللغوية ولكن في فروع المعرفة.

اهتم أبو أحمد التجاني بكل من الجغرافية والتاريخ والأدب والفقه، وذلك نابع من تشجيع والده على ذلك، حيث كان استاذا له في العلوم الشرعية واللغوية. أما معلوماته في علمي الجغرافية والتاريخ فقد حصل عليها من رحلته المعروفة باسمه (رحلة التجاني).

دون أبو أحمد التجاني معلومات هامة جدا عن كبار المفكرين في كل من الفقه والحديث والجغرافية والتاريخ والأدب في كتابه (رحلة التجاني). كما حاول أن يحضر بعض دروسهم في المساجد بمدينة تونس، حتى يتمكن من الكتابة عن كل منهم بطريقة دقيقة وميدانية.

قضى التجاني معظم حياته في البحث والتنقيب والاستقصاء في إسهام علماء العرب والمسلمين في معظم فروع المعرفة. فقد كتب في موضوعات كثيرة منها الفقه والحديث والجغرافية والتاريخ والأدب والتراجم. ومن المحزن أن نتاجه قد ضاع فلم يبق في متناولنا إلا كتابه (رحلة التجاني التي حققها حسن حسنى عبدالوهاب سنة ١٣٧٨هجرية.

ولحسن الحظ التجاني أنه عاش في فترة حكم دولة الحفصيين، الدولة التي اتخذت العلم نبراسها، لذا حصل التجاني على كل احترام وتقدير لمواهبه السياسية والاجتماعية والجغرافية والتاريخية وهذا بدون أدنى شك ساعده على النبوغ في هذه المعارف المتنوعة.

كان أبو أحمد التجاني من أقرب الناس إلى الأمير أبي يحيى بن اللحيان، فقد صحبه في تونس وخارجها، وذلك لحكمته وعلمه الغزير، ولا ريب أن التجاني استفاد من هذه العلاقة الوطيدة التي كانت بينهما. فقد طور ابن اللحيان التعليم في تونس وشجع على اقتناء الكتب وتأسيس المكتبات العلمية التي تحتوي على المعارف المختلفة. وذلك بمشورة من أبي أحمد التجاني، وعندما تولى أبويحيى بن اللحيان الحكم في تونس أسند إلى أبي أحمد التجاني مهام كثيرة لثقته القوية فيه ولما عرف عنه من حنكة ودبلوماسية. فقد استفاد التجاني من هذه الثقة بأن أسس صلات قوية مع كبار المفكرين في تونس. كما تطورت حركة التعليم في عهده.

ويذكر حسن حسني عبدالوهاب في مقدمة كتاب (رحلة التجاني) التي حققها أن أبا أحمد التجاني تولى رئاسة دواوين رسائل ابن اللحيان وعمل بكل إخلاص وتفان لجميع المهمات التي أسندت إليه طيلة حكم السلطان ابن اللحيان. كما أن هذا العمل لم يحد من نشاطه للقراءة والتأليف بل استمر بعمله في هذين الميدانين حتى أثرى المكتبة العربية والإسلامية بنتاجه العلمي.

صحب أبوأحمد التجاني ابن اللحيان إلى مكة لأداء مناسك الحج، وبقي

التجاني في هذه الرحلة قرابة ثلاث سنوات يتجول ويجمع المعلومات الجغرافية والتاريخية عن البلاد التي مر بها ودون ذلك كله في كتابه (رحلة التجاني) الذي صار من أهم المصادر لكل من الجغرافية والتاريخ والآثار والعادات الاجتماعية.

ويقول أغناطيوس كراتشكوفسكي في كتابه (تاريخ الأدب الجغرافي العربي) برهنت رحلة التجاني على أهميتها الكبرى وذلك بتزويده لنا بمعلومات وافية عن «جميع المناطق التي زارها وعن الأصقاع المجاورة لها. وهي تتناول مسائل الجغرافيا كما تتناول مسائل التاريخ الطبيعي وبوجه خاص التاريخ البشري. وكما جرت العادة فإنه يستشهد بمختلف المؤلفين ويقتبس أحيانا من الوثائق».

اشتهر أبوأحمد التجاني بأسلوبه السهل وعباراته الرنانة، فقد قدم وصفا جميلا لمعظم المدن التي أقام بها في رحلته الميمونة، وهذا يدل على طول باعه وعلو كعبه في منهج الكتابة عن المدن العامرة. ويظهر ذلك جليا فيما كتبه عن مدينة طرابلس الغرب.

وخلاصة القول يتضح للقاريء أن أبا أحمد التجاني اهتم اهتماما بالغا في الأحداث التاريخية التي تجمع بين علمي الجغرافية والتاريخ. فهو مؤرخ وجغرافي في آن واحد، وهذا المنهج سيطر على علماء المغرب والأندلس مدة طويلة من الزمن.

فعند قراءة ما كتبه التجاني عن جزيرة صقلية يتضح منهجه في الكتابة، حيث كان يدمج الأحداث التاريخية بالحقائق الجغرافية، لذا قدم مادة تاريخية وجغرافية ذات قيمة عظيمة للباحثين في هذين الميدانين.

أما الطريقة التي تبناها التجاني في الكتابة فهي طريقة أدبية، ولكنه أبعد عن الاستطراد والإثقال على القارىء بآرائه الشخصية الغير ضرورية. لذا ظهر كتابه (رحلة التجاني) من أحسن ما كتب في هذا المجال الحيوي.

الحقيقة أن أبا أحمد التجاني لم يأخذ حقه من الدراسة، بل كان من العلماء المهملين. ولكن رحمة الله سبحانه وتعالى عظيمة سخرت المستشرق الروسي أغناطيوس كراتشكوفسكي فكتب عنه نتفا في كتابه (تاريخ الأدب الجغرافي العربي)، مما دفع حسن حسني عبدالوهاب للبحث عن كتاب (رحلة التجاني) لأبي أحمد التجاني لكي يحققها ويخرجها للملأ. وهذا الذي حصل فجزى الله

حسن حسني عبدالوهاب خيرا.

المتواتر الآن أن نتاج التجاني قد ضاع، ولكن أغلب الظن أن أعماله في كل من الجغرافية والفقه والحديث والتاريخ موجودة على رفوف المكتبات العالمية تبني عليها العناكب بيوتها تحتاج إلى شباب الأمة العربية والإسلامية لنبشها وإخراجها لعلماء العصر الحديث ليعرفوا المكانة العلمية التي وصل إليها علماء العرب والمسلمين في الحضارة الإنسانية.

ابـن خـلدون

هو عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، ويكنى بأبي زيد، ويلقب بولي الدين، وشهرته ابن خلدون. ولد في تونس سنة ٧٣٢هجرية وتوفي في القاهرة سنة ٨٠٨ هجرية. ينتمي إلى عائلة عربية أصيلة جدها وائل بن حجر أحد أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

غادر الجد الكبير خالد بن عثمان الحضرمي المشرق العربي متجها إلى الأندلس، فاستقر في مدينة إشبيلية مع عائلته، وكان رجلا حكيما ومحنكا، فذاع صيته بين معاصريه باسم خلدون تعظيما له، فأسندت إليه القيادة والريادة، وهكذا معظم أجداد عبدالرحمن بن خلدون رجال سياسة وحكم وقضاء، فمنهم من تولى إمارة مدينة إشبيلية، وبقوا هناك حتى تدهورت الأمور السياسية وصعبت الحياة في الأندلس، فنزحت العائلة برمتها إلى تونس الخضراء، حيث ولد عبدالرحمن بن خلدون.

عاش عبدالرحمن بن خلدون في فترة التمزق الداخلي للمغرب العربي، حيث انقسم إلى ثلاثة أقسام: مراكش تحت حكم بني مرين، والجزائر كان يحكمها بنوعبدالواد، وتونس يديرها بنو حفص، وعلى الرغم من الوضع المتردي التي تعيشه بلاد المغرب فقد استمر عبدالرحمن بن خلدون يتلقى العلم على يد كبار المفكرين في تونس، فنبغ في كل من العلوم الشرعية واللغوية والتاريخ والجغرافية. ولكن في سنة ٧٤٩هجرية توفي كل من والده ووالدته من مرض الطاعون الذي حل في بعض البلاد العربية والإسلامية وأوربا، لذا انتقل كبار علماء العرب والمسلمين إلى فاس، ولحق بهم عبدالرحمن بن خلدون وهو في

السابعة عشرة من عمره، فلقي كل حفاوة وتكريم من حاكم فاس أبي عنان من بني مرين. وهكذا صار يتنقل في جميع بلاد المغرب العربي وتولى مراكز سياسية مرموقة، ولكنه خاف عواقب السياسة فآثر الاعتزال للبحث والتأليف في قلعة ابن سلامة عند بني العريف في الجزائر. وفي سنة ٧٨٤هجرية قرر ابن خلدون أن يؤدي مناسك الحج والعمرة، ولكنه تأخر إلى سنة ٧٨٩هجرية في مصر، حيث أسند إليه السلطان المملوكي برقوق منصب القضاء على المذهب المالكي. وبعد عودته من الحج انقطع للتدريس في الأزهر الذي يعتبر مركز كبار المفكرين في العلوم عامة وخاصة العلوم الشرعية واللسانية. كما عاود مهنة القضاء في القاهرة قبل وفاته بقليل.

تميز عبدالرحمن بن خلدون في عرضه نظريات علم الاجتماع، حيث بذل جهدا عظيما في تأسيس هذا العلم الهام، وليس أوجست كنت (Auguste Conte) المستشرق الفرنسي الذي عاش خلال القرن الثاني عشر الهجري. ويؤيد ذلك ساطع الحصري في كتابه (دراسات في مقدمة ابن خلدون) حيث يلمح أن حق ابن خلدون بلقب مؤسس علم الاجتماع أقوى بكثير من حق (كنت) ذلك لأنه كان قد فعل ذلك قبل كنت بمدة تزيد على ٤٦٠ عاما.

ومما لا يقبل الجدل والتأويل أن أبازيد ابن خلدون سبق أوجست كنت في دراسته الظواهر الاجتماعية على أساس علمي دقيق، حيث أثبت أن الظواهر العمرانية في تزاحمها وثوابتها تسيطر عليها قوانين، لذا فقد استفاد من نظرياته وآرائه أقطاب علماء الاجتماع. كما تناول ابن خلدون الحوادث الاجتماعية بنظرة هادئة ورزينة.

لا شك أن كلا من العالم الفرنسي كنت والعالم الإيطالي فيكو (Vico) والعالم البلجيكي كتلية (Guetelet) أضافوا إضافات رائعة وجوهرية لعلم الاجتماع الذي أسسه ابن خلدون فقد حاول هؤلاء العلماء الغربيون أن يخلصوا مجتمعاتهم من الفساد الذي كان منتشراً في جميع الطبقات، حيث كانوا يعتقدون أن صلاح الأخلاق تصلح جميع فروع الحياة الاجتماعية.

عندما نتحدث عن التاريخ دائما يأتي إلى البال نتاج ابن خلدون في هذا المجال. كما لا يخفى على القارىء الدور الكبير الذي لعبه ابن خلدون في تقديم

تاريخ البربر في كتابه (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) والذي عرف باسم (العبر وديوان المبتدأ والخبر) وفي بعض الأحيان يقتصر على اسم (العبر). فقد تميز ابن خلدون عن أسلافه بعدم الاعتماد على الخصوصيين لما يقدمون من المديح والزيف الذي لا يقبله مؤرخ مثل ابن خلدون الذي اعتمد على التجربة الشخصية عن طريق اختلاطه بالجماهير. إن هذا المفكر العظيم ظهر كنجم يتألق في عصر سرى فيه الانحلال واضمحل فيه التفكير، ولعل هذا ما دعى أرنولد توينبي أن يقول في كتابه (دراسة التاريخ) إن نجم ابن خلدون يبدو أكثر تألقا في كثافة الظلام.. إن ابن خلدون يبدو وحده نقطة الضوء الوحيدة في ذلك الأفق.

أما مكانة ابن خلدون في مجال علم الاقتصاد فمعروفة، فقد عرف أنه من العلماء الذين يفسرون التاريخ والظواهر الاجتماعية تفسيرا اقتصاديا. وكان أبوزيد عبدالرحمن بن خلدون دائما يتحدث بوعي ويقظة ويرجع التغيرات في المجتمع إلى العوامل الاقتصادية، فقد نحت نظرياته الاقتصادية في القرن الثامن الهجري بعقلية القرن الخامس عشر الهجري. كما خصص بابا كاملا عن مقدمته لطرح آرائه وأفكاره الاقتصادية.

اهتم ابن خلدون اهتماما بالغا في الجغرافية البشرية، فكان يؤول أن اختلاف البشر في ألوانهم وجسومهم وميولهم ونشاطهم وصفاتهم الجسمية والعقلية يعود إلى البيئة الجغرافية، يقول عزالدين فراج في كتابه (فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوربية) كانت محاولة ابن خلدون في تفهم أثر البيئة الطبيعية من سطح ومناخ ونبات على الحياة البشرية الأساس الذي قامت عليه الجغرافية البشرية. وقد سبق ابن خلدون علماء الجغرافية المعاصرين إلى أهمية المناخ على الصفات الجسمية والعقلية وعلى سلوك الناس. وبذلك يكون ابن خلدون مؤسس الجغرافية البشرية.

تكلم ابن خلدون عن شكل الأرض الكروي وعن البحار والأنهار والمسالك والممالك، وكأنه عالم جغرافي متخصص. يقول حسين مؤنس في كتابه (تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس) فإذا انتقلنا إلى تاريخ ابن خلدون وجدناه كله قائما على تصور جغرافي سليم، فهو لا يتحدث عن قوم إلا وجدناه يعرف أين هم

وطبيعة بلادهم وموقعهم من غيرهم وأهم الظواهر الجغرافية في بلادهم.

الحق أن ابن خلدون موسوعة تمشي على قدمين، فلم يترك فرعا من فروع المعرفة السائدة وقتئذ في العالم العربي والإسلامي إلا فهمه ووقف على أسسه ومنهجه ومسائله. فقد كتب عن كل من مفردات اللغة العربية ومدلولاتها، والعلوم التربوية، وعلم النفس، وعلم الحديث، وعلوم القرآن، والتوحيد، وأصول الفقه، والأدب العربي، والعلوم الطبيعية، والعلوم الرياضية وأنواع أخرى من المعارف والفنون مثل الفلاحة والبناء والتجارة والحياكة والخياطة والموسيقى وغيرها.

وخلاصة القول فإن ابن خلدون عانى من أعدائه ومناوئيه ومن دسائس العجزة والمقصرين والحسدة والحاقدين الأمرين، فكان مرة يشغل وظيفة رئيس الوزراء بكل مميزاتها وما يحيطها من أبهة، وتارة في سجن فاس يجتر آلامه وأحزانه، ومرة أخرى يبحث وراء شظف العيش في الصحراء. وهكذا حاض ابن خلدون غمار السياسة وتعرض لمحـنها وتقلباتها الكثيرة. ولكنه في أواخر أيام حياته تركها جانبا وتفرغ لتدريس طلاب العلم والتأليف. ومما لا شك فيه أن عمله في حقل السياسة ومعاناته العظيمة أكسبته خبرة جمة جعلت منه أستاذا ناجحا مبدعا في عرض أفكاره العلمية بوضوح لطلابه الذين كانوا يأتون من كل حدب وصوب للتتلمذ على يده.

وتميز ابن خلدون بسعة اطلاعه على ما أفرزته قريحة علماء العرب والمسلمين الأوائل حول أحوال البشر إضافة إلى خبرته الواسعة في الحياة السياسية والإدارية والقضائية وأسفاره المتعددة والمترامية الأطراف في العالم العربي والإسلامي. واشتهر ابن خلدون بأنه مفكر متزن أمين لا يميل مع الهوى، بل دائما يقيد نفسه في استنتاجاته العلمية ومشاهداته الميدانية والمصادر العلمية الموثوق بمؤلفيها، ونتج عن ذلك كله أنه أحاط بألوان الثقافات الشائعة في عصره وعمل رصيدا دقيقا للحركة الفكرية لعلماء الحضارات المندثرة.

يجمع المؤرخون والجغرافيون على أن ابن خلدون هو أول من عالج بمنهج علمي واضح ظواهر البيئة وآثارها الإيجابية والسلبية في حياة الشعوب من حيث نظمهم السياسة والاقتصادية والعلمية والأخلاقية والعقلية. وفي القرن الثاني

عشر الهجري بدأ علماء أوربا يعون ويفهمون نظريات ابن خلدون في هذا الميدان، فأول من اعتنقها منتسكيو ثم جاء بعده فريدريك راتسل وجان برون، وهكذا صارت نظريات ابن خلدون في المعارف المختلفة تدرس في جامعات أوربا.

المحقق لكتاب (العبر وديوان المبتدأ والخبر) لابن خلدون لا يسعه إلا أن يرى هذا الكتاب عبارة عن دائرة معارف متكاملة، حيث لم يترك المؤلف فيها علما من العلوم إلا وتطرق له وعرض أسسه ومسائله المستعصية واستوفى حلولها بطرق علمية ومنطقية. ويكفي ابن خلدون فخرا ما حازت مقدمته (الجزء الأول من كتاب العبر) من إعجاب واهتمام الباحثين في العالم لذا فقد ترجمت إلى معظم لغات العالم وكتب عنها كثيرا. ومن خصائص مصنفات ابن خلدون إبراز المعاني والآراء أكثر من الانصياع إلى الصيغ والألفاظ الرنانة البراقة التي كانت مسيطرة على أسلوب معاصريه، لذا كان الهدف واضحا وجليا أمام عالمنا الجليل ابن خلدون فيما يكتبه.

يعتبر ابن خلدون واضع اللبنات الأولى للتاريخ التحليلي النظري الذي يستند على النقد والتحقيق. وهو أول من قال إن حركية التاريخ تقاس بمستوى الحياة الاقتصادية والسياسية والعلمية. فالدارسون للتاريخ والجغرافية لا يمكنهم بأى حال من الأحوال الاستغناء عن الرجوع لمقدمة ابن خلدون في التاريخ، لأنها همزة الوصل بين التاريخ القديم والحديث. فقد حصل لهذه المقدمة من الشهرة في الفكر الغربي ما لم يحصل عليه أي كتاب آخر.

تحدث ابن خلدون عن التربية والتعليم في مقدمته وعرض آراءه وأفكاره الناضجة في هذا الميدان. فقد بلور بوضوح تثقيف الفرد لكي تتطور مداركه وتتسع آفاق معرفته حتى يتمكن من الابتكار. كما حارب ابن خلدون وبشدة الاستظهار في التعليم لأنه يصرف طالب العلم عن الفهم والنفاذ إلى لب العلم. لذا نستطيع القول أنه أرسى أصول التربية وطرق التدريس اللذين يتفقان مع التجارب العلمية والتربوية الحديثة. ومن المعروف أن ابن خلدون هو أول عالم كتب عن نفسه، لذا فإنه يكون بهذا مؤسس فن الأتوبيوجرافيا. فقد دون بشيء من التفصيل نسبه وسيرته وجعلها ذيلا لكتابه (كتاب العبر). وفصلت ترجمة ابن

خلدون في كتاب مستقل يعرف باسم (التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا) قام محمد بن تاويت الطنجي في كتابة المقدمة والحواشى والشروح والتعليقات وذلك سنة ١٣٦٩هجرية. ظهر سنة ١٣٩٩هجرية طبعة جديدة جيدة عن طريق دار الكتاب اللبناني صارت تباع في المكتبات المحلية والعالمية.

ولحسن الحظ فابن خلدون معروف عند الناس أكثر من غيره من علماء العرب والمسلمين لكثرة ما كتب عنه المتقدمون والمتأخرون من العرب والمستشرقين. وقد أنصفوه واعترفوا بفضله وثقافته الواسعة وعبقريته النادرة. وعمل له دراسات مستفيضة ودقيقة مما أهلته أن يتبوأ مركزا عاليا في الدراسات التاريخية والاجتماعية والجغرافية. فقد رصد لنا أفكارا علمية في غاية الأهمية في كل من جغرافية المدن والجغرافية البشرية والجغرافية الاقتصادية والسياسية، وهكذا حلق ابن خلدون في سماء العلوم الجغرافية، فلله دره.

القلقشندي

هو أحمد بن علي بن أحمد بن عبدالله القلقشندي، يكنى بأبي العباس وبابن أبي جده، ويلقب القاضى شهاب الدين. ولد في قلقشنده إحدى قرى إقليم القيلوبية والمعروفة الآن باسم قرقشندة، وهى على بعد ثلاثة فراسخ من القاهرة، وذلك سنة ٧٥٦ هجرية. وتوفي في القاهرة عن عمر يناهز ٦٥ سنة. ترعرع وتعلم أبوالعباس القلقشندي في القاهرة ثم انتقل وهو في ريعان شبابه إلى الإسكندرية لإكمال دراسته، فنال الإجازة العلمية من علمائها الأفاضل في الفقه الشافعي والحديث والأصول وفنون الأدب. ونبغ أيضا في علوم اللغة والبلاغة والإنشاء والعلوم الاجتماعية.

تفنن القلقشندي في العلوم الشرعية واللغوية، فتصدى للإفتاء والقضاء والتدريس وهو في عمر لا يتعدى الحادية والعشرين سنة. ولا شك أن الكثير من معاصريه استفادوا من ثقافته العالية عن طريق التدريس الذي تميز به، فكان طلاب العلم يلتفون حوله، لأنه كان يملك فكرا نيرا واسعا، كما أنه كان يحاول ويميل كثيرا إلى الاجتهاد في بعض المسائل الفقهية فهو بحق صاحب رأي ثاقب.

ويذكر محمد حسين شمس الدين الذي شرح وعلق وحقق نصوص كتاب

(صبح الأعشى في صناعة الإنشا) للقلقشندي أن القلقشندي التحق بخدمة ديوان الإنشا في سنة ٧٩١هجرية في عهد السلطان الظاهر برقوق (٧٨٤-٨٠١هجرية). وقد كان لديوان الإنشا أهمية خاصة في عهد المماليك. وكان المرشح للعمل يجب أن يكون من أقطاب النثر والبلاغة الذين تؤهلهم معارفهم الواسعة للوقوف على شئون الحكم والسياسة الداخلية والخارجية، وكذلك سير العلاقات الدبلوماسية بين مصر وباقي الأمم. وبقي القلقشندي في هذا المنصب حتى توفي في سنة ٨٢١هجرية في عهد السلطان المؤيد شيخ الحمودي.

استفاد أبوالعباس القلقشندي من منصبه (كاتب الإنشا) بديوان سلطان مصر، حيث جمع المعارف المختلفة من المصادر المتعددة بسهولة، لأن دولة المماليك بمصر والشام من أقوى الدول آنذاك، وسلاطينها مهتمون اهتماما بالغا في العلم وطلابه. لذا تشجع واندفع القلقشندي لتأليف كتابه الرائع (صبح الأعشى في صناعة الإنشا) الذي يعتبر موسوعة شاملة لجميع العلوم الشرعية والأدبية والجغرافية والتاريخية والتطبيقية.

يقول القلقشندي في خطبة كتابه (صبح الأعشى في صناعة الإنشا)«الحمد لله جاعل المرء بأصغريه، قلبه ولسانه، والمتكلم بأجمليه، فصاحته وبيانه.. وبعد فلما كانت الكتابة أشرف الصنائع وأرفعها. وأربح البضائع وأنفعها، وأفضل المآثر وأعلاها، لا سيما كتابة الإنشا التي هي منها بمنزلة سلطانها، وإنسان عينها بل عين إنسانها. لا تلتفت الملوك إلا إليها، ولا تعول في المهمات إلا عليها. يعظمون أصحابها ويقربون كتّابها. فحليفها أبدا خليق بالتقديم، جدير بالتبجيل والتكريم».

اهتم القلقشندي بعلم الجغرافية اهتماما بالغا، وذلك لأنه كان يعتقد أن علم الجغرافية لازم لتكوين الكاتب المثالي، حيت أنه يكسبه ثقافة واسعة عن العالم، لذا لا عجب أن تشغل المادة الجغرافية (١٥) بالمائة تقريبا من كتابه (صبح الأعشى في صناعة الإنشا) المتكون من أربعة عشر جزء.

ويذكر أغناطيوس كراتشكوفسكي في كتابه (تاريخ الأدب الجغرافي العربي - القسم الأول) أن أباالعباس القلقتسندي قدم في كتابه (صبح الأعشى في صناعة

الإنشا) وصفا جغرافيا للقطرين المصري والشامي، بل لجميع الدول التي لها علاقة بهما، مما جعل من مؤلفه مصدرا أساسيا للجغرافية وللتاريخ والإدارة والحياة الاجتماعية للعالم الإسلامي والأقطار المتصلة به. والجدير بالذكر أن القلقشندي أفرد المقالة الثانية من كتابه بأكملها للجغرافية وحدها، وهي تمثل (نصف الجزء الثالث والجزء الرابع ومعظم الجزء الخامس من الكتاب) وتحتوي على عرض تاريخي جغرافي مستقل، وتحتل مركز الصدارة فيه مصر.

أولى القلقشندي عناية خاصة للمناخ، فدرس أنواع الرياح وعرف السحب والرعد والبرق والمطر والثلج والبر والظواهر الضوئية (قوس قزح والهالة) والفصول الأربعة بطريقة علمية تنم عن سعة اطلاع في مجال علم الأنواء، مما جعل نتاجه العلمي من أهم المصادر العلمية للباحثين في حقل علم الجغرافية.

ومن بعض مؤلفات القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، وقلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، وحلية الفضل وزينة الكرم في المفاخرة بين السيف والقلم، والغيوث الهوامع في شرح جامع المختصرات، وضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر، وشرح لكتاب الحاوي الصغير في الفروع للقزويني (رسالة) والكواكب الدرية في المناقب البدرية (رسالة) وشرح على قصيدة بانت سعاد لكعب بن زهير (رسالة).

وخلاصة القول فإن القلقشندي يعتبر من علماء العرب والمسلمين الذين طوروا الجغرافية اللغوية إلى الجغرافية العامة. درس بتمعن وإتقان الجغرافية الاقتصادية والبشرية، وله في ذلك آراء وأفكار تدل على طول باعه في هذين الحقلين. ولكنه اشتهر بين معاصريه والمتخصصين في علم الجغرافية في كل من الجغرافية الإدارية وجغرافية المدن والجغرافية التاريخية والجغرافية السياسية.

ذاع صيت القلقشندي بين زملائه بأنه كثير القراءة. فقد قرأ كتبا متعددة في الفلك وأدب اللغة العربية والفقه والرياضيات والفيزياء والتاريخ والجغرافية والإدارة وغيرها. ولا يخفى على القارىء أن علم الجغرافية علم واسع الحدود، لذا فإنه بالامكان أن يحصل الباحث على فائدة جغرافية عبر قراءته الحرة لبعض الكتب. ولقد كان القلقشندي متواضعا خيرا لبقا يصل إلى ما يريده من ولاة الأمر ومن العلماء والتجار والمسافرين بسهولة، لذا صارت مؤلفاته غنية وجزلة

بهادتها العلمية.

تميز كتاب (صبح الأعشى في صناعة الإنشا) للقلقشندي بما يحتويه من مادة علمية دسمة، فقد عرض فيه معلومات جغرافية وتاريخية في غاية الأهمية، وتحدث فيه عن شكل الأرض وجهاتها الأربع وأقاليمها السبعة وبحارها وأنهارها وجبالها وبحيراتها ومحصولاتها الزراعية والصناعية بدقة متناهية تدل على مكانته العلمية وسعة أفقه وثقافته المتينة.

لا ريب في أن أباالعباس القلقشندي يختتم في كتابه (صبح الأعشى في صناعة الإنشا) سلسلة موسوعات عصر المماليك التي انتشرت وقتئذ، بل يختتم عهد الجغرافية العامة التي ازدهرت في القرنين السابع والثامن الهجريين، والتي حل محلها الجغرافية الإقليمية بعد ذلك.

الحقيقة أن كتب التراجم في المكتبات العربية والإسلامية لا تقدم لنا معلومات متكاملة عن حياة القلقشندي، بل البعض قدم عنه في معاجمهم نتفا لا تسمن ولا تغني من جوع. لذا بذلنا جهدا كبيرا في إبراز دوره العلمي في مجال الجغرافية من خلال موسوعته (صبح الأعشى في كتابة الإنشا).

القليل جدا من المثقفين في العالم العربي والإسلامي يعرفون دور القلقشندي في علم الجغرافية وأن له صولة وجولة في هذا الميدان، بل إن الكثير لا يعرف إلا أنه فقيه وأديب ومعلم متميز وكاتب للسر في دولة المماليك في مصر. أما المستشرقون فقد استفادوا من أفكاره الجغرافية التي ضمنها مؤلفاته، والكثير منهم اندهش من نتاجه الضخم الحافل بالآراء العلمية الدقيقة التي كانت من أسباب ارتقاء المدنية وازدهارها.

حافظ آبرو :

هو شهاب الدين عبدالله الرشيد الخوافي، ويلقب بحافظ آبرو، لانعرف بالضبط متى ولد ولكن الثابت أنه ولد بمدينة هراة، وتوفي سنة ٨٣٣ هجرية بزنجاب الإيرانية.

تلقى حافظ آبرو تعليمه بمدينة همذان الإيرانية، حيث كانت مأوى كبار المفكرين في العلوم آنذاك. ولقد تفنن حافظ آبرو في كل من علم الجغرافية

والتاريخ والشطرنج. فكان من المغرمين في لعبة الشطرنج، حيث كانت الوسيلة الوحيدة التى يتسلى فيها مع أصحابه في وقت الفراغ.

يخلط البعض بين صاحب الترجمة ومحمد بن شهاب بن محمود الخوافي الذي عاش فيما بين (٧٧٧ - ٨٥٢ هجرية). العالم الفاضل المشارك في معظم فروع المعرفة، إلا أنه ذاع صيته بين معاصريه من نتاجه الأصيل في ميدان علم المنطق الذي يعتبر عصب العلوم الأساسية.

كان حافظ آبرو رجلا بليغا رقيق اللسان ألمعا مؤرخا وجغرافيا من الصنف الأول، لذا حظى بتقدير حفيد تيمور شاهرخ، فأسند إليه وظيفة مؤرخ الدولة وصحبه في معظم غزاوته ورحلاته.

استفاد حافظ آبرو من علاقته القوية مع شاهرخ، فزار معظم البلاد العربية والإسلامية بأمر منه، وجمع مادة علمية قيمة في حقلي الجغرافية والتاريخ، استخدمها عندما شرع بالتأليف.

في سنة ٨١٧ هجرية، أهدى إلى حفيد تيمور شاهرخ كتاب قيم في علم الجغرافية باللغة العربية لم يعرف عنوانه، فطلب من حافظ آبرو ان يقوم بترجمته إلى اللغة الفارسية، لكي يكون مرجعا يرجع إليه طلاب العلم والباحثين في مجال علم الجغرافية.

لم نعثر على مرجع يثبت لنا أن حافظ آبرو قد أكمل ترجمة كتاب الجغرافية الذي باللغة العربية والذي حمل إلى شاهرخ، بل إن أغناطيوس كراتشكوفسكي يلمح بكتابه (تاريخ الأدب الجغرافي العربي) أن حافظ آبرو فرغ من المقدمة سنة ٨٢٠ هجرية والقسم الأول في عام ٨٢٢ هجرية، في حين انتهى من القسم الثاني سنة ٨٢٣ هجرية، وأضاف كراتشكوفسكي أنه من المحتمل جدا أنه لم يتمه لانشغاله بتأليف كتاب آخر في علم التاريخ.

وفي سنة ٨٢٠ هجرية كلف شاهرخ حافظ آبرو بتأليف مؤلف شامل في ميدان علم التاريخ عن الأمة العربية والإسلامية. وبهذه المناسبة نوه نفيس أحمد في كتابه (الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي) أن هذا الكتاب هو (زبدة التواريخ) لحافظ آبرو.

وأضاف نفيس أحمد أيضا أن المؤلف الذي كلف به حافظ آبرو من قبل حفيد

تيمور شاهرخ جاء بجزأين: أولهما يستهل الموضوع بمقدمة في نظام الكون، ثم يلي ذلك وصف للبلاد المتنوعة من بلاد المغرب غربا إلى كرمان شرقا. لقد جمع حافظ آبرو مادة هذا الكتاب من كتب افتقدناها، لذا صار مصدرا هاما لحوادث عصره، بل من المراجع التى لانستطيع الغناء عنها.

اهتم حافظ آبرو اهتماما بالغا في وصف الأرض والأقاليم والبحار والبحيرات والأنهار والجبال كما اشتهر بأسفاره الواسعة للحصول على معلوماته الميدانية في حقلي التاريخ والجغرافية. لذا قدم حافظ آبرو مادة غنية في التاريخ والجغرافية لبلاد فارس وللعالم العربي والإسلامي. فصار نتاجه العلمي من المراجع الضرورية ليس فقط في جغرافية وتاريخ بلاد فارس ولكن أيضا في جغرافية وتاريخ البلدان العربية والإسلامية.

ويذكر أغناطيوس كراتشكوفسكي في كتابه آنف الذكر أن المؤرخ بارتولد (Bar-tald) وضح باستيفاء كاف أهمية نتاج حافظ آبرو وأهمية المادة العلمية التى قدمها للقارىء هذا وقد أولى بارتولد عناية خاصة لروايات حافظ آبرو التى تؤكد أن نهر أمودريا (جيحون) كان يصب في بحر قزوين في الأزمنة التاريخية. وبنفس الأسلوب والتفصيل يلقي ضوءا على وصفه لبلاد ماوراء النهر كما قام بارتولد سنة ١٣١٥ هجرية بنشر شذرات مترجمة إلى اللغة الفرنسية من إسهامات حافظ آبرو العلمية التى لقيت استحسانا عظيما من القراء في العالم.

وخلاصة القول أن حافظ آبرو اتبع في تأليفه منهج المدرسة التقليدية في ميدان علمي الجغرافية والتاريخ، ومما يؤكد ذلك الطريقة التى اتبعها في ترتيب محتويات كتابه (زبدة التواريخ).

والمتواتر عند المؤرخين للحضارة العربية والإسلامية أن المراجع التى اعتمد عليها حافظ آبرو في تأليفه كتاب (زبدة التواريخ) جيدة ومشهورة بمادتها. لذا يتضح أن حافظ آبرو لديه ثقافة عالية، حيث كان يجمع بين الأدب الجغرافي والتاريخى العربي والفارسي.

كان حافظ آبرو كثير الاستشهاد بالخرائط في تأليفه. حيث استعمل طريقة بدائية لشبكة خطوط الطول والعرض لتعيين مكان المدينة والقطر. كما اشتهر بأسلوبه السهل الموجز، لذا صار نتاجه العلمي محببا لنفوس طلاب العلم

والباحثين.

والمعروف أن مخطوطة كتاب (زبدة التواريخ) لصاحب الترجمة حافظ آبرو منتشرة في جميع مكتبات العالم، ففي بريطانيا وحدها نسختين واحدة في مكتب بدلين بأكسفورد والثانية بالمتحف البريطاني بلندن.

أتمنى أن يندفع بحماس أحد أبناء الأمة العربية والإسلامية لتحقيق وإخراج كتاب (زبدة التواريخ) لحافظ آبرو للملأ لأنه يحتوى على معلومات في غاية الأهمية لمؤلفين ضاعت مؤلفاتهم. وهذا بالتأكيد سيحرض فلذات أكبادنا إلى السير على نهج الأجداد في رفع مستوى المدنية.

المقريزى

هو أحمد بن علي بن عبدالقادر المقريزى، يكنى بأبي العباس، ويلقب تقي الدين. ولد في القاهرة سنة ٧٦٦ هجرية وتوفي فيها سنة ٨٤٥ هجرية.

ويذكر خير الدين الزركلي في قاموسه (الأعلام الجزء الأول) أن أبا العباس المقريزى سمى بالمقريزى لأنه ينتسب إلى حارة في بعلبك تعرف بحارة المقارزة، لذا يصح القول أنه بعلي الأصل مصري المولد والمنشأ.

تلقى المقريزي تعليمه في القاهرة فنبغ في العلوم الشرعية واللغوية والتاريخية والجغرافية. وعرف بين المؤرخين للعلوم أنه مؤرخ الديار المصرية دون منازع، لما عرفه عنه من الحكمة والعلم. زار دمشق سنة ٨١٠ هجرية لتبادل الرأى مع جهابذة الفكر في بلاد الشام، فعرض عليه وظيفة القضاء في دمشق فرفض وعاد إلى مسقط رأسه. عمل أبو العباس المقريزي في وظائف الدولة فكان المسئول الأول عن الحسبة في القاهرة. كما تقلب في وظائف حكومية أخرى مثل القضاء. ولكن العجيب أن هذه الوظائف لم تؤثر أبدا على نتاج هذا العبقري، بل يقال إن مؤلفاته وصلت مائتي مجلد. كما أدى فريضة الحج سنة ٨٣٤ هجرية ومكث في مكة مدة من الزمن، فالتقى بكبار المفكرين هناك.

اهتم أبو العباس المقريزى اهتماما بالغا بالمراجع الجغرافية والتاريخية القديمة لأنها عادة تحتوى على معارف أصيلة نابعة عن المشاهدة والدراسات الميدانية. لذا نستطيع أن نقول إن صاحب الترجمة المقريزى كان مؤرخا وجغرافيا أصيلا مثقفا

عميق الثقافة والفهم، قدر أن يلتهم كل ماكان في عصره من مؤلفات.

مما لايقبل الجدل أن تقي الدين المقريزى مؤرخ عالي الكعب حلق في سماء المؤرخين في العالم، فقد كتب كتابة رائعة عن القبائل وأنساب النبي ﷺ، ووضعها في كتابه المعنون (الخبر عن البشر) في أربع مجلدات.

ولتقي الدين المقريزى أيضا كتاب ضخم من ثلاث مجلدات سماه (دور العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة) وهذا الكتاب يحتوى على سير أعلام زمانه ليس فقط في العلوم الشرعية واللغوية ولكن أيضا في علمي التاريخ والجغرافية. أما كتابة (السلوك لمعرفة دول الملوك) فقد خصصه لحكام مصر.

عاش المقريزى في عصر الموسوعات، ولكنه اتبع منهجا خاصا به ألا وهو نمط الخطط، فنبغ في ذلك وذاع صيته. وتظهر طريقته هذه واضحة المعالم في كتابه (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار).

يقول محمد محمود الصياد في كتابه (من الوجهة الجغرافية: دراسة في التراث العربي) «كتابة الخطط فن من فنون التاريخ، ولكننا نحتفل بها نحن الجغرافيين، إذ نجد فيها مصدرا مهما للدراسات الجغرافية. الطبوغرافية والاقتصادية والاجتماعية. فالتاريخ ميدانه الزمان والجغرافية موضوعها المكان، والخطط في دراستها تجمع بين الناحيتين، بل هي تتخذ المكان أساسا لدراسة الزمن».

لقد جمع أبو العباس المقريزى في كتابه العظيم (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) كل المعلومات الضرورية عن القطر المصرى من حيث أحوال السكان والمناخ والسهول والجبال والبحار والأنهار وغيرها. لذا نجد أن جميع مؤلفاته التاريخية لها وزنها في البحوث الجغرافية. والمتداول عن هذا الكتاب الطبعة التى أخرجها المستشرق الفرنسى فيت (G. Wiett) في خمسة أجزاء سنة ١٣٤٦ هجرية.

وينقل لنا حاجي خليفة في كتابه (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون) جزءاً يسيراً من مقدمة كتاب (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) للمقريزى وهي «ولما فحصت عن أخبار مصر وجدتها مختلطة، فلم يمكن الترتيب على السنين لعدم ضبط وقت كل حادثة، ولا على الأسماء لعلل أخرى تظهر عند تصفحه، فرتبته على ذكر الخطط والآثار، فاحتوى كل فصل منها على ما يلائمه وجعلته على سبعة أجزاء: الأول يشتمل على أخبار مصر وخراجها، والثاني

يشتمل على كثير من مدنها وأجناس أهلها، والثالث يشتمل على أخبار فسطاط مصر، والرابع يشتمل على أخبار القاهرة والخامس يشتمل على ذكر ما وقع في القاهرة من الأحوال، والسادس في ذكر قلعة الجبل وملوكها والسابع في ذكر الأسباب التي نشأ عنها خراب مصر».

تفرغ تقي الدين المقريزى للكتابة فألف مؤلفات كثيرة في فروع متنوعة من فروع المعرفة منها: إغاثة الأمة بكشف الغمة، والإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، والأوزان والأكيال الشرعية، والبيان والإعراب عما بأرض مصر من قبائل الأعراب، والتنازع والتخاصم فيما بين بني أمية وبين بني هاشم، وضوء القمر السارى إلى معرفة رؤية البارى، والطرافة الغريبة في أخبار حضرموت العجيبة، وعقد جواهر الأسفاط من أخبار مدينة الفسطاط، والتذكرة والمقاصد السنية في معرفة الأجسام المعدنية، والعقود في تاريخ العهود، وغيرها.

وخلاصة القول يتضح للقارىء أن المقريزى كان مؤرخا وجغرافيا مرموقا وذلك لدقته وأمانته في النقل ونشاطه العلمي الفريد الذي لايعرف الكلل والملل، بل كان منهجه المثابرة والاستقصاء في البحث. فلو ألقينا نظرة قصيرة على محتويات كتابه (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) آنفة الذكر، لرأينا أن المقريزى يرتبط بالتاريخ وبالجغرافية التاريخية على حد سواء.

لقد شهد لتقي الدين المقريزى كل من عرفه بالذكاء والدهاء والخطط، ويظهر ذلك واضحا وجليا من بحوثه المتشعبة والغزيرة التى كتبها بأسلوب سهل جزل مصقول. لقد كان تقي الدين المقريزى يتصف بالزهد والتقشف فلله دره.

الحميرى :

هو محمد بن عبدالله بن عبد المنعم الصنهاجي الحميرى، يكنى بأبي عبدالله ويلقب بابن عبدالمنعم الحميرى وأيضا بالشيخ العمدة. لانعرف كثيرا عن نشأته ولكن الثابت أنه من علماء القرن التاسع الهجرى، ويقال إنه توفى سنة ٨٦٦ هجرية تقريبا. كما أنه ولد بمدينة سبتة الأندلسية.

تلقى الحميرى تعليمه على يد كبار المفكرين بمدينة سبتة، فنبغ في كل من التاريخ والجغرافية. وعمل ردحا من الزمن بوظيفة توثيق العقود هناك. وقد عرف

بين أصحابه بأنه بليغ لبق رقيق الجانب يحب الخير للجميع، ولهذا بقي محل تقدير جميع زملائه.

كان أبو عبدالله الحميرى اجتماعيا يكره الوحدة والانزواء، لذا اشتهر بلعبة الشطرنج حتى صار يشار إليه بالبنان، وهذه الهواية لم تحد من إحاطته النادرة النظير في المكتبة العربية في حقلي التاريخ والجغرافية. ويعتبر بحق من كبار المفكرين في علم الجغرافية الوصفية.

ذاع صيت ابن عبدالمنعم الحميرى في فن المعاجم، فهو الدي جدد وعين معالم هذا العلم المفيدة. فالحميرى يمثل قمة من القمم التى وصل إليها علماء العرب والمسلمين في التأليف الجغرافي، ويتضح ذلك جليا في كتابه (الروض المعطار في خبر الأقطار) الذي صار من أهم المصادر للباحثين في كل من تاريخ وجغرافية الأندلس.

لم يكن ابن عبدالمنعم الحميرى معروفا للجغرافيين في المعمورة إلا بعد أن قام المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال (Levi provensel) بنشر الجزء الخاص بالأندلس من كتاب (الروض المعطار في خبر الأقطار) مع التعليقات المفيدة عليه باللغة الفرنسية.

ويذكر الدوميلي في كتابه (العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي) أن ليفي بروفنسال نشر أجزاء كثيرة من كتاب (الروض المعطار في خبر الأقطار) لابن عبدالمنعم الحميرى في ليدن سنة ١٣٥٧ هجرية. وقد جمع ليفي بروفنسال مادته من مخطوطات مختلفة ومتفرقة في مكتبات العالم، ولكنه استفاد من مخطوط يوجد في مكتبة الجامع الكبير بمدينة فاس المغربية.

أما آنخل جنثالث بالنثيا (A.G. Palencıa) فيذكر في كتابه (تاريخ الفكر الأندلسي) أن كتاب (الروض المعطار في خبر الأقطار) كان مجهولا حتى عثر عليه ليفي بروفنسال واختار الموضوع الخاص بالأندلس منه ونشره في معجم جيد سماه (صفة جزيرة الأندلس) وذلك سنة ١٩٣٨ ميلادية مع ترجمة فرنسية وتعليقات إضافية شافية وفهارس وافية. كما رتبه ترتيبا أبجديا بهر العقول.

والجزء الخاص بالأندلس من كتاب (الروض المعطار في خبر الأقطار) للحميرى يشمل على معلومات قيمة عن أعلام الجغرافية الذين ورد ذكرهم في

مؤلفات علماء الأندلس، وكذلك معلومات في غاية الروعة عن الثروة الطبيعية والنشاط الصناعي والمدن الأندلسية والطرق التى تربطها وعن طريقة حساب الضرائب وعدد السكان والخدمات الاجتماعية وغيرها.

ويتفق المؤرخون على أن ابن عبدالمنعم الحميرى أجاد في تدوين المعلومات الجغرافية والتاريخية عن الأندلس، كما أن المعلومات التى شملها كتابه (الروض المعطار في خبر الأقطار) توحي بسعة اطلاع وثقافة. فقد جمع مادة جغرافية صحيحة عرف كيف ينسقها ويرتبها، فلم يقتصر على وصف المدن ولكنه تعدى ذلك بأن قدم معلومات في غاية الأهمية عن المحيطات والبحار والأنهار والجبال والجزر والسهول وغيرها.

ومما لاشك فيه أن ابن عبدالمنعم الحميرى استفاد من مؤلفات علماء العرب والمسلمين الأوائل في مجالي التاريخ والجغرافية مثل: أبو زيد أحمد بن سهل البلخي وأبو إسحاق إبراهيم الإصطخرى وأبو قاسم محمد بن حوقل ومحمد بن أحمد المقدسي وياقوت الحموى وغيرهم.

استطاع ابن عبدالمنعم الحميرى أن يجنى ثمار رحلته إلى مكة المكرمة التى قام بها لأداء فريضة الحج، حيث مكث هناك ردحا من الزمن للعبادة والدراسة على يد جهابذة الفكر في المشرق العربي والإسلامي. كما أنه معروف لدى الجغرافيين في العالم أن ابن عبدالمنعم الحميرى أكمل معجمه (الروض المعطار في خبر الأقطار) الذي رتبه على الحروف الأبجدية بنفسه.

إن المشهود لابن عبدالمنعم الحميرى أنه قدم معلومات جغرافية فريدة في جملتها، ولكنه ركز على بلاد أوروبا فقدم مادة متناهية فى الدقة، حتى صار معجمه (الروض المعطار في خبر الأقطار) مرجعا هاما للباحثين في علمي التاريخ والجغرافية في جميع أصقاع العالم المتحضر.

المعروف لدى المؤرخين للجغرافية العالمية أن حاجي خليفة اعتمد على كتاب (الروض المعطار في خبر الأقطار) للحميرى عندما هم بتأليف كتابه الشهير (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون) الذي يعتبر أعظم مرجع للباحثين في الحضارة العربية والإسلامية.

وخلاصة القول على الرغم من الظروف السياسية المتردية التى كانت عاجة في

الأندلس إلا أن ابن عبدالمنعم الحميرى استطاع وبكل جدارة أن يقدم لنا معارف جغرافية ممتازة مستندا على رحلاته ومشاهداته الشخصية والمصادر الموثوق بها، ولايخفى على القارىء أن علم الجغرافية لايتطور إلا في جو يسوده الهدوء، ولكن الحميرى تحدى كل هذه المسلمات والبدهيات فقدم للقارىء في جميع أنحاء العالم معجمه (الروض المعطار في خبر الأقطار) الذي أدهش علماء العصر الحديث.

دون الحميرى مادته الجغرافية بأسلوب مترابط رائع في كتابه (الروض المعطار في خبر الأقطار) لذا اعتمد عليه علماء الجغرافية في بحوثهم في هذا الحقل الحيوى. والذى جلى هذه الحقيقة وجعلها مشرقة المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال عندما ضمن كتابه المشهور (صفة جزيرة الأندلس) ماكتبه ابن عبدالمنعم الحميرى عن الأندلس، أما إحسان عباس فقد نشر النص كاملا مع التحقيق لكتاب الحميرى المذكور أعلاه سنة ١٣٩٣ هجرية وبهذا اطلع علماء الجغرافية في العالم على ما أنتجته عقلية عالمنا الجليل في هذا الميدان.

وعلماء الجغرافية في المشرق والمغرب على السواء يعترفون وبصراحة أن ابن عبدالمنعم الحميرى قدم معجما هاما في تاريخ المعاجم، أثرى به المكتبة العالمية.

يجب أن لاننسى أن ابن عبدالمنعم الحميرى لم يهمل أبدا في كتابه (الروض المعطار في خبر الأقطار) الجانب التاريخى، بل على العكس دمج كلا من الجغرافية والتاريخ والأدب في بعضها. علما أن المنهج المتبع عند علماء العرب والمسلمين في الأندلس هو مزج علمي الجغرافية والتاريخ في علم واحد.

ومما يؤسف له أن الباحثين من علماء الأمة العربية والإسلامية في مجال علمي التاريخ والجغرافية لايعرفون شيئا يذكر عن ابن عبدالمنعم الحميرى قبل اكتشاف المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال مخطوط كتاب (الروض المعطار في خبر الأقطار) للحميرى. فلبروفنسال الشكر على إبراز مكانة ابن عبدالمنعم الحميرى في كتابه (صفة جزيرة الأندلس). ويجب أن نذكر أيضا المستشرق الأسباني آنخل جنثال بالنتيا الذي تحدث عنه في كتابه (تاريخ الفكر الأندلسي) حديثا رائعا معتمدا بذلك إلى استنتاجات بروفنسال.

السؤال الذي يتبادر إلى الذهن الآن: إلى متى ننتظر من المستشرقين أن يعرفونا بعلمائنا؟ أقول لقد حان الوقت. أن نزيل الغبار وبيوت العناكب عن

الكنوز العلمية المبعثرة في مكتبات العالم بأنفسنا.

أتمنى أن أكون في هذه الترجمة لابن عبدالمنعم الحميرى قد عرفت شباب الأمة العربية والإسلامية بهذا العملاق المجهول. كما أرجو أن يتحرك شبابنا الغيور للبحث والتنقيب والاستقصاء لنتاج عالمنا الفاضل.

عبدالرزاق السمرقندى

هو عبدالرزاق بن إسحاق السمرقندى، يلقب بكمال الدين، ولد بمدينة هراة من بلاد فارس سنة ٨١٦ هجرية وتوفي فيها سنة ٨٨٧ هجرية. وعرف باسم السمرقندى لأنه قضى ردحا من الزمن في سمرقند، حيث كانت مركزا للثقافة العربية والإسلامية في ذلك الحين.

نشأ وترعرع بمدينة هراة، ولكنه تلقى تعليمه في سمرقند. كما أن والده كان من موظفي الدولة الذين لهم شأن. لذا استفاد كمال الدين السمرقندى من معارف أبيه العلمية والأدبية في دراسته.

يحصل في بعض الأحيان خلط بين صاحب الترجمة ومحمد بن علي بن عمر السمرقندى المتوفى سنة ٦١٩ هجرية. والمكنى بأبي حامد. كان طبيبا ماهرا قتله التتر له نتاج علمي في علمي الطب والصيدلية ومنها: أغذية المرضى، وكتاب الأقراباذين، ورسالة مفيدة في مداواة وجع المفاصل.

عمل عبدالرزاق السمرقندي دبلوماسيا في حكومة الخاقان السعيد «شاهرخ»، وتقلب في وظائف كثيرة. وقد جمع معلومات جغرافية عن الهند وسمرقند وكيلان ومصر والجزيرة العربية. ثم تفرغ للكتابة في عام ٨٦٧هجرية، فانتهى من تأليف كتابه المعنون «مطلع السعدين ومجمع البحرين» وذلك سنة ٨٧٢هجرية الذي أكسبه شهرة علمية عظيمة.

اعتمد عبدالرزاق السمرقند في تصنيف كتابه (مطلع السعدين ومجمع البحرين) على المعلومات الميدانية التى اكتسبها من رحلاته الكثيرة، وأيضا على بعض مؤلفات علماء العرب والمسلمين في مجالي التاريخ والجغرافية وفي مقدمتها كتاب (زبدة التواريخ) لحافظ آبرو الجغرافي الفارسي المعروف والمتوفى سنة ٨٣٣هجرية.

يعتبر كتاب (مطلع السعدين ومجمع البحرين: مجلدان) للسمرقندي وثيقة تاريخية هامة، حيث تحدث عن تاريخ بلاد فارس بوجه عام. ولكن كمال الدين السمرقندي ركز على تاريخ المغول وتيمور وشاهرخ، فخرج كتابه هذا بصورة جميلة، وصار من أهم المراجع في هذا الميدان.

ومما لا شك فيه أن كتاب (مطلع السعدين ومجمع البحرين) لكمال الدين السمرقندي يقف في مقدمة المراجع الأولية لتاريخ وجغرافية منطقة الشرق الأوسط. ولكن مادته الجغرافية موزعة حسب الموضوعات التي كتب عنها المؤلف.

ويذكر نفيس أحمد في كتابه (الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي) أن كمال الدين السمرقندي كان يحتل مكانة مرموقة بين مؤرخي فارس. فهو العالم الكبير الذي بلور لنا الحياة الدبلوماسية في عصره. كما أن كتابه (مطلع السعدين ومجمع البحرين) من أهم المصادر الأصيلة التي تمدنا بالمعلومات عن المعرفة الجغرافية في ذلك العصر.

ومما يؤسف له أن كتاب (مطلع السعدين ومجمع البحرين) غير معروف لدى الباحثين في العالم العربي والإسلامي. فالفضل يرجع إلى محمد شفيع الذي نشر الجزء الثاني من هذا الكتاب الثمين بمدينة لاهور الباكستانية في ثلاثة أجزاء سنة ١٣٦٨هجرية.

ونوه إسماعيل باشا البغدادي في كتابه (هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين) عن كتاب آخر لكمال الدين السمرقندي وهو (شرح الرسالة العضدية في معنى الحروف والإشارات) وربما يكون هذا الكتاب أكثر انتشارا بين الباحثين في العالم العربي والإسلامي.

وخلاصة القول كان يستخدم كمال الدين السمرقندي أسلوبا في الكتابة يغلب عليه السجع والاستشهاد في بعض الأبيات الشعرية. ولكن في غير تكلف فقد كان يحاول بكل جدية أن يسيطر على مشاعر الباحث والقارىء لنتاجه، حيث ابتعد عن الأسلوب العلمي الجاف. لذا نستطيع القول أنه ضمن كتابه بعض الأفكار الجغرافية بأسلوب أدبي.

استعمل كمال الدين السمرقندي علاقته الشخصية القوية مع شاهرخ الذي كان يحب مجالسة العلماء بأن طلب منه أن يزور بعض المدن العاجة بالعلماء

والمفكرين في العالم العربي والإسلامي المتطور، ولذا عمل صداقات مع كبار المفكرين في هذه البلدان، فكان الاتصال وتبادل المعلومات الجغرافية والتاريخية والأدبية مستمراً بينهم، وهذا بلا شك من الأسباب الرئيسية التي شدت انتباه السمرقندي للبحث والتنقيب والاستقصاء في إسهامات علماء العرب والمسلمين الأوائل في حقلي الجغرافية والتاريخ.

والحقيقة أن عبدالرزاق السمرقندي عاش حياة المواطن المخلص للحضارة العربية والإسلامية. فقد دون ما عنّ له من أحوال بلاده التاريخية والجغرافية والسياسية بأسلوب أدبي متناسق سهل، ترك لنا تراثا ثمينا نرجع إليه ونستشهد به عندما نتكلم عن عصره.

ومن الغريب جدا أن عبدالرزاق السمرقندي وهو من كبار المؤرخين والجغرافيين في الحضارة العربية والإسلامية لم يرد اسمه في أكثر المراجع التي بين أيدينا. فلولا نتف بسيطة ذكرها نفيس أحمد في كتابه آنف الذكر، لما عرفنا عن شخصيته العظيمة شيئا، ولبقي مغمورا ودفينا في مكتبات العالم.

أتمنى من أعماق قلبي أن يقوم أبناء جلدته من الأمة العربية والإسلامية من المتخصصين في علم الجغرافية أو التاريخ بالتحقيق والتهميش على كتابه الفريد من نوعه (مطلع السعدين ومجمع البحرين) والذى سنأخذ منه زادا لمستقبل نبنيه، ونهضة نقيم كياننا على أسسها من الكفاية والعدل.

ابـن ماجـد

هو أحمد بن ماجد بن محمد السعدي بن أبي الركائب النجدي، عرف باسم شهاب الدين وأسد البحر الهائج والمعلم والسائح ماجد، ويلقب نفسه بشاعر القبلتين. كما أنه اشتهر لدى مؤرخي العلوم باسم النجدي نسبة إلى منطقة نجد العريقة. لا نعرف بالضبط متى ولد ولكن التحريات توحي أنه ولد في جلفار على الساحل الجنوبي من الخليج العربي (إمارة رأس الخيمة اليوم) سنة ٨٣٦هجرية تقريبا، وتوفي بعد سنة ٩٠٤هجرية.

ينتمي ابن ماجد إلى عائلة لها مكانة مرموقة في ميدان الملاحة، لذا كان ابن ماجد مولعا بفن الملاحة منذ نعومة أظفاره، فقد صحب والده وقاد المركب وهو

في العاشرة من عمره. تفنن في معرفة مطالع النجوم الملاحية ومغاربها وهو في السابعة عشرة من عمره ويتبين جليا أن ابن ماجد عاش وترعرع في مجتمع يعتمد اعتمادا كليا في معيشته على البحر.

كان لنشأة ابن ماجد على الساحل الجنوبي من جزيرة العرب المتاخم للمحيط الهندي والموازي للخليج العربي الأثر الكبير فى نجاح ابن ماجد فى الملاحة العالمية، حيث إن الطرق التجارية العالمية المنتعشة آنذاك كانت تمر بالخليج العربي ثم بلاد فارس ثم العراق.

يقول أنور عبدالعليم في كتابه (ابن ماجد الملاح) قضى ابن ماجد أغلب حياته في البحر يتنفس الهواء النقي ويعيش فى بساطه، متفرغا لعمله لا يشغل باله بعرض الدنيا وزينتها. فقد كان رحمه الله عفيف النفس ورعا تقيا مخلصا لربه ولمهنته زاهداً في المال يبدأ رحلته دائما بالصلاة، كما يتضح من كتاباته. . فهو رجل بحر مجرب موهوب خبير بالنجوم وبمسالك الملاحة الساحلية وفي أعالي البحار، وبالبحر وبعواصفه وأنوائه وتقلب أحواله، مشغول بقياساته الفلكية التي أنفق فيها عمره.

يجب أن لا ننسى أن ابن ماجد أرسى قواعد الملاحة للعالم أجمع، فقد بقيت آراؤه وأفكاره في مجال الملاحة سائدة في كل من البحر الأحمر والمحيط الهندي والخليج العربي وبحر الصين حتى سنة ٩٠٣ هجرية. ولا شك أن نتاج ابن ماجد في حقل علم الملاحة يبرز الوجه اللامع للحضارة العزبية والإسلامية.

قام الملاح البرتغالي فاسكو دي جاما (Vasco Degama) برحلته المشهورة سنة ٩٠٢هـ من البرتغال ووصل إلى ماليندي (كينيا اليوم) سنة ٩٠٣ هجرية. وبقي دي جاما هناك محتارا في موضوع الإبحار إلى الهند. ولكنه أثناء حيرته ربط علاقة وصداقة مع ملك ماليندي وطلب منه أن يعين له ملاحا يشق معه عباب البحر إلى الهند. فاقترح الملك على دي جاما أن يصحب الملاح العربي المشهور أحمد بن ماجد، فاجتمع فاسكو دي جاما بابن ماجد وأطلعه على خريطة الساحل الهندي والأجهزة المتقدمة التي كان يستعملها العرب والمسلمون في الملاحة، فاندهش دي جاما مما شاهد بعينه المجردة وعزم على الفور أن يبحر إلى الهند ومعه ابن ماجد كدليل، وفي نفس السنة وصلت السفينة إلى كلكتا. ومن هذا يظهر

أن ابن ماجد هو مكتشف طريق الهند وليس كما يدعي بعض المتطرفين الغربيين أن المكتشف هو فاسكو دي جاما.

ولا ريب فإن ابن ماجد قضى أكثر من خمسين سنة من حياته في البحر معلم ربابنة المحيط الهندي وجزره وسواحله الأفريقية والآسيوية، لذا يعتبر بحق أعظم ملاح عربي، ولكن هذه الخبرة المتميزة استفاد منها أعداء الإسلام بطريقة غريبة ولافتة للنظر، فمساعدة ابن ماجد للبحار البرتغالي فاسكو دي جاما أعطى الملاحين البرتغاليين والأوربيين علو شأن في هذا الميدان مما دفع بهم إلى الإساءة للملاحين العرب وذلك باغتصاب طريق تجارة الشرق من العرب واستعمار بلادهم الآمنة والقضاء على الملاحة العربية.

دوّن ابن ماجد معارفه الغزيرة في حقل الجغرافية البحرية في مؤلفاته وأراجيزه الكثيرة فقد تحدث بمنهج علمي في كتابه (الفوائد في أصول علم البحر والقواعد) عن الرياح الموسمية والطرق والموانىء البحرية والجزر. ولكنه كرس فيه معلوماته عن البحر الأحمر والخليج العربي والمحيط الهندي ومياه آسيا الجنوبية بطريقة تفوق التصور والخيال. فخليق بنا أن نذكر هنا أن كثيرا من علماء الجغرافية في العالم يعتبرون ابن ماجد المؤسس لعلم الجغرافية البحرية ومخترع البوصلة ومكتشف الطريق البحري الذي يربط الساحل الشرقي للقارة الأفريقية بالهند وسيلان وجاوه.

وخلاصة القول فإن أحمد بن ماجد كان على علم بفنون الملاحة ولديه معلومات واسعة في علم الفلك والهيئة، كما كان شاعرا وأديبا. كان من المغرمين بدراسة النجوم وحركاتها، مما هداه إلى ابتداع قياسات لم يسبقه إليها أحد. وقام أحمد بن ماجد ببحوث في غاية الأهمية عن السنين القمرية والشمسية والكبائس وعلم المجاري ومنازل القمر وحلول الشمس في البروج والأيام والساعات والدقائق وزيادة الليل والنهار، مما جعل إسهاماته في علم الجغرافية البحرية من المصادر الضرورية للباحثين في فن الملاحة وعلوم البحار عند العرب والمسلمين.

قضى أحمد بن ماجد حياته في الأسفار، لذا اهتدى بطريقة علمية وتجريبية إلى معرفة مهاب الرياح والمد والجزر وتحديد المسافات بين المدن الساحلية في كل من الهند وسيام وجاوه وسومطرة والصين ومدغشقر واليمن والحبشة وغيرها. من ذلك

نستنتج أن مصنفات ابن ماجد عبارة عن دوائر معارف للملاحين في البحر مثل: الإرشادات الملاحية التي تصنعها الأمم المعاصرة لهدف الوصول إلى الموانىء بسلامة.

يصر بعض علماء الغرب بتعنت أن البوصلة الملاحية من ابتكار الصينيين، ويحاولون إقناع السذج في العالم بأن وردة الرياح من اكتشافات الصينيين أيضا، وكل هذا في نظرنا تخريف. فإن وردة الرياح الصينية القديمة كانت مقسمة إلى ٢٨ قسما أوخنا، بينما وردة الرياح العربية والإسلامية مقسمة إلى ٣٢ قسما أوخنا. وهذا التقسيم الذي يظهر في البوصلة الملاحية الحديثة. والآن والحمد لله صار هناك شبه قناعة بين المثقفين المنصفين في المعمورة أن أحمد بن ماجد مخترع الإبرة المغنطيسية (البوصلة الملاحية).

لقد ساد عند علماء الغرب الاعتقاد الخاطىء أن خبرة العرب في الملاحة محدودة للغاية، حيث إنهم اشتهروا لديهم كرواد الصحراء ولم يرتادوا البحار والمحيطات لجهلهم بمسالكها وطرقها. . لذا استنتجوا من جهلهم أن ليس هناك مؤلفات في حقل الملاحة لعلماء عرب ومسلمين واستمروا على هذه الفكرة المظلمة حتى بدأ نخبة من المستشرقين يدرسون نتاج علماء العرب والمسلمين في مجال الملاحة ومن بينهم الروسي ثيودور شوموفسكي الذي عثر على أرجوزة ابن ماجد على شكل مخطوطة في مكتبة استنبول، ثم عثر على ثلاث مخطوطات أخرى في مكتبة جامعة لينينجراد لابن ماجد أيضا فدرسها دراسة وافية وحققها ووضعها في كتاب أسماه (ثلاث أزهار في معرفة البحار لأحمد ابن ماجد: ملاح فاسكو دي جاما).

منذ القرن الثاني الهجري وللعرب والمسلمين صولة وجولة في ملاحة البحار والمحيطات فقد وصلت أساطيلهم البحرية في عصر الأمويين الأندلس غربا وأواسط الصين شرقا، فعرفوا أسرار المحيط الهادي والهندي والأطلسي. والحقيقة أن الفضل يعود لأحمد بن ماجد في الانتصارات الملاحية التي حققها البرتغاليون في القرنين التاسع والعاشر الهجريين. حيث استفادوا فائدة عظيمة من خبرة وتمرس الربان العربي أحمد بن ماجد لمعرفته المرموقة للخرائط والمصورات البحرية وتحديد الأوقات الصالحة لخوض البحر والمواقع الجغرافية المختلفة والموانىء

والخلجان. والجدير بالذكر أنه لا يمكن أن ينسى الغربيون المحاولات الجريئة التي خاضها العرب والمسلمون لاستشكاف، ما وراء بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) من أرض يابسة.

بدأت البرتغال في آخر القرن التاسع الهجري (الموافق القرن الخامس عشر الميلادي) تفكر بطريقة الوصول إلى كنوز الهند عن طريق البحر، لتتمكن من التوسع التجاري والاستعماري في آن واحد. لذا توصل فاسكو دي جاما إلى طريق جديد حول أفريقيا للوصول إلى الهند خارج الطرق التي كانت تمر بالعالم الإسلامي وذلك بمساعدة ابن ماجد الذي يعتبر المكتشف الحقيقي لهذا الطريق.

لاشك أن رحلة فاسكو دي جاما هذه حول رأس الرجاء الصالح فتحت عصر تقهقر قيادة المسلمين على البحار وفتحت باب الاستعمار الأوربي. ومما يؤسف له أن يكون ابن ماجد ذلك الملاح العبقري الكبير والمسلم الصادق هو من فتح على الأمة الإسلامية هذا الباب إلى الخراب والدمار. ولكن لا يعرف المستقبل منا أحد، ولاشك أن لو كان يدري ابن ماجد ما سيحل بمساعدته لفاسكو دي جاما ما دله ولا ساعده. وكما قال الله عز وجل: ﴿**ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير**﴾.

عبدالباسط بن خليل الملطي:

هو عبدالباسط بن خليل بن شاهين الملطي، ويلقب بزين الدين، ولد فى مدينة ملطية سنة ٨٤٤هجرية وتوفي بالقاهرة سنة ٩٢٠هجرية ويعرف بين معاصريه باسم ابن الوزير الملطي.

نشأ وترعرع في مدينة دمشق، ولكنه تلقى تعليمه في القاهرة مركز الإشعاع العلمي. تربى في بيت علم، مما ساعده على التأقلم والمثابرة على الدراسة. فبرز فى كل من العلوم الشرعية واللغوية والتاريخ والجغرافية.

فوالده خليل بن شاهين الظاهري (٨١٣-٨٧٣هجرية) ولد ببيت المقدس وتوفي بطرابلس الشرق من كبار الموظفين في دولة المماليك. فقد دون خبرته الإدارية والسياسية والاجتماعية والجغرافية في عهد المماليك. كان مؤرخا أديبا

وشاعرا وفقيها.

اعتزل عبدالباسط الملطي عمل والده وركز على دراسة الفقه واللغة والتاريخ والجغرافية والشعر فكان شاعرا ملهما. كما عمل في مهنة التجارة فجاب معظم أجزاء الأمة العربية والإسلامية.

وفي الفترة ما بين (٨٦٥-٨٧٤هجرية) تنقل في بلاد الشام وبلدان شمال أفريقيا والأندلس، وبقي فترة في غرناطة التي تعتبر مركزا لرجال الفكر والثقافة والحضارة العربية والإسلامية آنذاك. كما مكث مدة من الزمن في كل من تلمسان ووهران تتلمذ على جهابذة الفكر هناك ثم عاد إلى بلاده.

لقد سجل في رحلته الطويلة ما شاهده من ظواهر طبيعية وجوانب اجتماعية لكل البلدان التي مر بها، ولكنه اهتم كثيرا بالوضع الاجتماعي للبلد التي زارها، وهذا الجانب لم يعره علماء العرب والمسلمين في علم الجغرافية بالا.

نال زين الدين الملطي شهرة عظيمة من كتابه (الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم) الذي يحتوي على معلومات ذات أهمية عن كبار المفكرين في التاريخ الإسلامي. كما ضمنه بحوثاً جيدة وعميقة عن كل من سوريا ومصر فلم يقتصر على الجانب السياسي بل ركز أيضا على الجوانب الأخرى الاقتصادية والاجتماعية والجغرافية.

ويذكر أغناطيوس كراتشكوفسكي في كتابه (تاريخ الأدب الجغرافي العربي) أن كتاب (الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم) لعبدالباسط الملطي يعتبر فريدا من نوعه، حيث يعالج تاريخ الفترة من عام ٨٤٤هجرية إلى زمن المؤلف، والذي يولي اهتماما خاصا لسير مشاهير الرجال خاصة العلماء الذين التقى بهم. وقد كشف المستشرق ليفي ديلا فيدا (Levi della Vida) منذ فترة قطعتين من كتاب (الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم) بمكتبة الفاتيكان إحداهما بخط يد المؤلف نفسه، وفيها يروي المؤلف بعض قصص أسفاره والحوادث المعاصرة له. وقد نشر ليفي ديلا فيدا الجزء المتعلق بالأندلس.

وأضاف زكي حسن في كتابه (الرحالة المسلمون في العصور الوسطى) أن المستشرق الفرنسي برنشونج قام بنشر الجزء الخاص بكل من تونس والجزائر ومراكش وختمها بتعليق وتحليل باللغة الفرنسية. فصار في متناول الباحثين في

مجالي التاريخ والجغرافية في صورة جيدة.

ولعبدالباسط بن خليل الملطي مؤلفات كثيرة متنوعة ذكر اسماعيل باشا البغدادي في كتابه (هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين) بعضها وهي: تاريخ مرتب على السنين، الزهر المقطوف في مخارج الحروف، غاية السول في سيرة الرسول، القول الجزم في تاريخ الأنبياء أولي العزم، القول الخاص في تفسير سورة الإخلاص، القول المأنوس في حاشية القاموس للفيروز أبادي، نزهة الألباب في مختصر أعجب العجاب، النفحة تفسير سورة الفاتحة، شرح عمدة الطالبين ورغبة الراغبين مجلدان، والمجمع المعنن بالمعجم المعنون وغيرها.

وخلاصة القول لقد استفاد الابن عبدالباسط الملطي من خبرة والده في العلوم الشرعية واللغوية، ولكنه تفوق على والده في المعارف الجغرافية، وذلك عائد لاتساع اطلاعه في هذا الحقل الحيوي.

اتصف عبدالباسط الملطي بالتسامح، فكان يقدر العلماء، لأنه يعرف تمام المعرفة أن العالم مثل الشمعة يحرق نفسه ويضيء للآخرين. كما أنه كان ينظر للمرأة بكل تقدير وإجلال فهو عالم جليل حكيم يحب الخير للجميع بعيدا كل البعد عن التزمت والتقوقع والانطواء فلله دره.

كان هدفه الأول من رحلاته العلمية أن يدرس الطب على علماء المغرب العربي والأندلس، ولكنه انصرف عن ذلك واتجه إلى دراسة العلوم الشرعية واللغوية والتاريخية والجغرافية فنبغ فيها، فقد خلف لنا تراثا غنيا في المعلومات الجغرافية والتاريخية، لذا صار نتاجه من أهم المصادر للباحثين في معظم فروع المعرفة.

عندما بدأ عبدالباسط الملطي بالكتابة عن رحلته الطويلة في شمال أفريقيا والمغرب والأندلس حاول أن يحيط بكل مقومات الحياة في البلدان التي زارها من الناحية الجغرافية والتاريخية والسياسية والحربية وعدد السكان والحياة التربوية والاجتماعية والاقتصادية والصناعية فكانت مؤلفاته جامعة شاملة. وهذا المنهج انفرد به عالمنا الفاضل عن غيره من علماء العرب والمسلمين.

المهـــري :

هو سليمان بن أحمد بن سليمان المهري، لا نعرف شيئا عن نشأته، إلا أنه كان حيا يرزق عام ٩١٧هجرية. وهو من قبيلة مهرة في جنوب الجزيرة العربية. نال شهرة عظيمة في الملاحة البحرية وعلم الفلك فقد كان ربانا بحريا بارعا.

كان سليمان المهري معاصرا لشهاب الدين أحمد بن ماجد، ولكنه أصغر منه سنا. والمعروف أن سليمان المهري كان ملاحا بارزا، وله مؤلفات في الجغرافية البحرية تعتبر من أهم المصادر في علمي الملاحة والجغرافية.

يذكر جمال الفندي في كتابه (الجغرافيا عند المسلمين) أن سليمان المهري يعتبر ملاحا عبقريا، فنتاجه العلمي في هذا المجال كان ذورة ما بلغه العرب والمسلمون في المعرفة الجغرافية البحرية. حيث استخدم خرائط بحرية دقيقة متوفر فيها خطوط الزوال والمتوازيات. وأدخل بعض التحسينات على الآلات الفلكية المستعملة في الملاحة آنذاك. والمتواتر أن معرفته في أسرار المحيط الهندي كانت متقدمة جدا.

ذاع صيت سليمان المهري بين معاصريه ومن أتى بعده من علماء الجغرافية البحرية، وذلك ناتج عن المعلومات القيمة التي يحتوى عليها كتابه (العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية) الذي انتهى من تأليفه سنة ٩١٧هجرية.

ويحتوي كتاب العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية على: معرفة مدارات الكواكب وأبعادها وأسمائها وما يتعلق بها، ونظريات علمية عن الرياح ومواسوم هبوبها، ودراسة جغرافية لبعض الجزر ولمحات عن القياسات البرية والبحرية، ومعرفة المواسم التي يسهل فيها التنقل بالبحر، وأفكار جغرافية حول توزيع الأماكن على المناطق الجغرافية.

ويقول سليمان المهري في مقدمة كتابه (العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية): «الحمد لله رب العالمين، الحمد لله حق حمده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وأصحابه التابعين لرشده. أما بعد، فإني لما رأيت علم البحر قليلا تأليف كتبه المحققة، بل في وريقات ملفقة وأراجيز مفرقة، فعرض لي أن أؤلف كتابا يكون ضابطا لمسائله الأصليات والفرعيات من الاختلاف الكائن في الديرات والقياسات بالتجربة المتواترة».

المهري يوحي بالأسباب التي دفعته إلى تأليف كتابه (العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية) وهى عدم جودة وقلة الكتب التي تتناول علم الملاحة. بل كانت رديئة وغير منظمة لذا كان كتابه هذا من أهم المصادر للدراسين في هذا الحقل.

وأضاف نفيس أحمد في كتابه (الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي) أن كتاب العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية لسليمان المهري يتضمن معلومات في غاية الأهمية عن علم الفلك البحري والطرق البحرية في بحر العرب، والمحيط الهندي، ومياه شرقي أفريقيا، وسواحل بنغال، والملايو، والهند الصينية. وهذه المعلومات الجغرافية تناقلها علماء الجغرافية البحرية لقيمتها العلمية في هذا الميدان الحيوي.

وقام أمير البحر التركي سيدي على بن الحسين المتوفى سنة ٩٦٢هجرية بترجمة كتاب العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية لسليمان المهري إلى اللغة التركية (كتاب المحيط) وقد خدم هذا الكتاب خدمة عظيمة، لأنه صاحب خبرة في الترجمة ومن علماء الجغرافية البحرية المرموقين وكما ترجم هذا الكتاب إلى اللغة السندية أيضا. وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على أهمية هذا المؤلف الثمين.

ويوجد كتاب (العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية) لسليمان المهري تحت عنوان كتاب المحيط ثلاث نسخ إحداها في المكتبة الأهلية في نابولي، والأخرى في المكتبة الأهلية في فيينا والثالثة في تركيا (ريفان رقم ١٦٤٣).

ولسليمان المهري نظريات وآراء علمية جيدة حول الرياح الموسمية في المحيط الهندي تدل على طول باعه في هذا المضمار، والكثير من علماء الجغرافية اقتبسوا منه بعض نظريات الرياح الموسمية في البحر العربي والمحيط الهندي.

ومن تصانيف سليمان المهري الموجودة في مكتبات العالم المنهاج الفاخر في علم البحر الزاخر، وحفة الفحول في تمهيد الأصول في الفلك، والأرجوزة السبعية، ورسالة قلادة الشموس، واستخراج قواعد الأسس جميعها تحتاج إلى من يحققها ويخرجها لعلماء العصر الحديث.

وخلاصة القول لقد بذل سليمان المهري مجهودا عظيما في جمع المادة التي وردت في مؤلفاته التي تتعلق بحقل الجغرافية البحرية حيث كان يعرف تمام المعرفة أن كتبه ستكون فتحا كبيرا للدارسين والباحثين في هذا المضمار الحيوي. وبالفعل

حقق ذلك بجدارة.

ليس هناك أصعب على الباحث الأمين من أن يكتب عن عبقري لم يعطه التاريخ حقه من البحث والتنقيب والاستقصاء. ويزيد الطين بلة أن ترى كتب التراجم وخاصة المراجع العربية لم تذكر عنه شيئا. ولكنني بذلت جهدي وكتبت هذه الترجمة المختصرة التي أرجو من الله سبحانه وتعالى أن يجعلها فاتحة خير.

لقد أمدنا نتاج سليمان المهري بمعلومات (عن الجزء الشرقي من المحيط الهندي والهند الصينية وشبه جزيرة الملايو الهندية) حافلة بمعارف أصيلة لم يسبقه إليها أحد ساعدت على ارتقاء المدينة وازدهارها.

الحسن الوزان:

هو الحسن بن محمد الوزان الزياني الفاسي، والمشهور باسم ليون الأفريقي، ويكنى بأبي على، ولد بغرناطة سنة ٨٩٧هجرية وتوفي بتونس سنة ٩٥٩هجرية. ويدل لقبه الوزان على أن أحد أجداده كان يعمل موظفا في مصلحة الموازين العامة.

وبعد سقوط غرناطة سنة ٨٩٧هجرية بيد النصارى الكاثوليكيين لجأت عائلته إلى المغرب العربي، واستقرت بمدينة فاس، فتلقى تعليمه هناك ونبغ في كل من علم الجغرافية وعلم التاريخ واللغة العربية، حيث نشأ وترعرع الحسن الوزان. وذاع صيته بين معاصريه بسبب الوصف الرائع الذي كتبه عن مدينة فاس العريقة.

تنقل في معظم عواصم البلدان الإسلامية، فزار شمال أفريقية وغربها، ودون معلومات في غاية الأهمية عن القارة الأفريقية استفاد منها طلاب العلم ليس فقط في العالم العربي والإسلامي ولكن في أوروبا.

في سنة ٩٢١هجرية غادر المغرب العربي متجها إلى الشرق، فمر بجنى ومالي وتنبكتو وجوجو وكانو وبرنو وغيرها، ثم في الجزيرة العربية ومصر وإيران والشام وأرمينيا. وفي سنة ٩٢٣هجرية أدى فريضة الحج والتقى بكبار المفكرين في العلوم الشرعية والعربية هناك، وبينما هو في طريق العودة إلى بلاد المغرب العربي قبض عليه قراصنة من جزيرة صقلية وقدم أسيرا للبابا ليون العاشر سنة ٩٢٧هجرية.

فاستغل البابا مقدرة أبي على الوزان العلمية أسوأ استغلال فأجبره على الإقامة في روما وعلى تدريس اللغة العربية في نولونية الإيطالية والتفرغ للبحث العلمي في ميدان علم الجغرافية.

أصر البابا ليون العاشر أن يغير اسم الحسن الوزارن إلى ليون الأفريقي نسبة لاسمه، لأنه يقصد أن أبا علي ملكا له، ولذا أكرهه على اعتناق النصرانية، وبقي في إيطاليا أكثر من ٣٢ سنة. ولكنه استطاع الإفلات من قبضة البابا الحديدية، فاتجه إلى تونس وأنكر النصرانية، وعاد صافي الذهن إلى دينه الإسلام، وصار حصنا قويا للدفاع عن العقيدة الإسلامية.

وفي سنة ٩٣٢هجرية أكمل أبوعلي الوزان كتابه المعنون (وصف أفريقيا) باللغتين العربية والإيطالية. فقد ضمنه مادة جيدة في ميدان علم الجغرافية، اعتمد عليها علماء أوروبا في بحوثهم حول أفريقيا، حيث كانت معلوماتهم عن قارة أفريقيا ضبيانية مهزوزة قبل صدور (كتاب وصف أفريقيا).

ويحتوى كتاب (وصف أفريقيا) للحسن الوزان على تسعة موضوعات: الأول عن أفريقيا بصفة عامة، والثاني عن مراكش من حيث مدنها وسكانها وظواهرها الطبيعية، والثالث لمدينة فاس المغربية، والرابع لمدينة تلمسان، والخامس لمدينتي بجاية وتونس، والسادس لمدينة طرابلس الغرب، والسابع للسودان، والثامن لمصر، والتاسع خصصه للأنهار والحيوانات والأسماك والطيور والمعادن والنباتات الموجودة في القارة الأفريقية بوجه عام.

ويذكر محمد محمود الصياد في كتابه (من الوجهة الجغرافية: دراسة في التراث العربي) أن أوربا لم تعرف أفريقيا إلا عن طريق المؤلفات العربية، حيث وقفت الظروف الطبيعية لسطح أفريقية حائلا أمام توغل الأوروبيين في القارة فاقتصر علمهم على سواحلها، في حين كان الجزء الأكبر من النصف الشمالي للقارة معروفا للعرب، وظلت كتاباتهم هي المصدر الوحيد عن جغرافية هذه المناطق إلى القرن الثالث عشر الهجري، ويكفي أن نشير إلى واحد من الجغرافيين العرب وهو الحسن بن محمد الوزان صاحب كتاب (وصف أفريقيا).

لقد خرج كتاب (وصف أفريقيا) لأبي على الوزان في جميع أرجاء المعمورة، فقد ترجم في سنة ٩٦٣هجرية إلى اللغتين اللاتينية والفرنسية، ثم ترجم أيضا إلى

اللغة الإنجليزية سنة ٩٦٧هـ، وهكذا استمر وانتشر هذا الكتاب وبلغات كثيرة وقد نوه المستشرق الفرنسي شيفير والمستشرق الإنجليزي بروان وغيرهما عن مكانة أبي علي الوزان الجغرافية المتميزة. بينما كتب التراجم العربية لم تتعرض لهذا العالم الفذ، اللهم إلا عبدالعزيز بن عبدالله ذكره سنة ١٣٨٠هجرية في كتابه (الطب والأطباء في المغرب) وكذلك أحمد أبوسعيدكتب عنه نتفا لا تسمن ولا تغني من جوع في كتابه (أدب الرحلات) الصادر في بيروت.

ولم تقتصر جهود الحسن الوزان على علم الجغرافية فقد كتب قاموساً طبياً يفسر الألفاظ العربية باللغة اللاتينية والعبرية، وله أيضا كتابا جامعا لتراجم بعض كبار الأطباء والفلاسفة في الإسلام. ويجمع المؤرخون للعلوم أن هذا الكتاب أول كتاب يصل إلى أوربا يبرز تطور العلوم عند العرب والمسلمين ليس في علم الجغرافية، ولكن أيضا في علمي الطب والفلسفة.

وخلاصة القول لقد اتسعت معارف علماء أوربا في جغرافية القارة الأفريقية، حيث كانت معرفتهم لا تتعدى المناطق الواقعة شمال خط الاستواء مثل ليبيا والسودان الغربي وأثيوبيا ومصر وبلاد المغرب العربي، وذلك بفضل (كتاب وصف أفريقيا) لأبي على الحسن الوزان الزياني.

ولقد اعترف علماء أوربا أمام الملأ أن نتاج الحسن الوزان الزياني يتصف بالأصالة والترتيب مما يدل على ثقافته الواسعة وذكائه المفرط. فكانت المعلومات التي وضعها الحسن الوزان في كتابه وصف أفريقيا هي الأساس التي اعتمد عليها علماء أوربا في هذا المجال.

ومما يؤسف له أن الأوروبيين عرفوا الكثير عن الحسن الوزان منذ صدور كتابه (وصف أفريقيا) الذي نشره راموزيو سنة ٩٥٧هجرية في مدينة البندقية. بينما الدوائر العلمية في العالم العربي والإسلامي لم يعرفوا شيئا يذكر عنه قبل سنة ١٣٠٠هجرية وذلك بواسطة مقالة لسليم ميخائيل شحادة صدرت في مجلة المقتطف المصرية تحت عنوان (بحث الجغرافية وجعرافيي الإسلام).

أرجو أن أكون قد أنصفت عالمنا القدير الحسن الوزان بهذه السيرة المختصرة التي أتعشم منها أن تكون حافزا قويا لأحد المتخصصين في علم الجغرافية في العالم العربي والإسلامي أن يتولى دراسة نتاح هذا العالم الكبير، لكي يقدموا لنا

إسهاماته في حقل علم الجغرافية متكاملة.

حاجي خليفة

هو مصطفى بن عبدالله كاتب جلبى المشهور باسم حاجي خليفة، ولد سنة ١٠١٧ هجرية في القسطنطينية، وتوفي هناك عن عمر يناهز الخمسين عاما.

ينتمي حاجي خليفة إلى أسرة تركية متوسطة الحال، فوالده عبدالله كان موظفا صغيرا في الجيش التركي، ولكنه تميز بصلاحه وورعه، فكان يحب مجالسة العلماء وأهل الخير، لذا بذل كل غال ونفيس لتعليم ابنه مصطفى. وعندما تعلم حاجي خليفة شغل وظيفة محاسب في ديوان الجيش التركي وتدرج فيها حتى وصل إلى منصب رئيس الكتبة، ولهذا لقب بكاتب جلبي.

اهتم حاجي خليفة اهتماما بالغا بدراسة القرآن الكريم والحديث النبوي والمنطق الرياضي والتاريخ والجغرافية ومبادىء الطب حتى صار من العلماء الذين يشار إليهم بالبنان.

كان حاجي خليفة بليغا لبقا طلق اللسان عظيم التأثير على سامعيه، فأحبه الوزير محمد باشا وقربه منه وصحبه سنة ١٠٤٣هجرية إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، فانتهز هذه الفرصة الذهبية وزار المكتبات العريقة في كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة وصار قلبه معلقا بالمطالعة وقراءة الكتب واقتناء الجيد منها بعد عودته إلى الأستانة، ولهذا عرف باسم حاجي خليفة.

في كل بلد مر به حاجي خليفة قضى وقتا في حصر أسماء الكتب التي عند الوراقين وفي المكتبات العامة والخاصة، وركز على المؤلفات التي تبحث في التاريخ والجغرافية والعلوم الأساسية والتطبيقية.

كل هذا قبل شروعه في تأليف كتابه (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون) الذي يعتبر بحق موسوعة بيلوجرافية نادرة.

ويذكر نفيس أحمد في كتابه (الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي) أن كتاب (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون) لحاجي خليفة يعتبر من أنفع ما كتب ليس فقط في علم الجغرافية ولكن في جميع فروع العلوم والآداب. فقد كرس المؤلف من وقته أكثر من عشرين عاما في جمع مادة هذا الكتاب القيم. إذا لا

عجب أن يكون من المراجع الأساسية التي اعتمد عليها الباحث الغربي مركاتور في تصنيف أطلسه المعروف باسم أطلس مركاتور (Marctor's Atlas).

أما كتاب حاجي خليفة الآخر الجغرافيا والمشهور باسم جهانتما في الجغرافيا فيشتمل على معلومات محددة وفي غاية الأهمية عن الأمة العربية والإسلامية. كما احتوى على معلومات جيدة عن رحلاته المتكررة التى قام بها إلى العالم العربي والإسلامي للتقصي والتنقيب عن الحقائق العلمية.

وله كتاب (تحفة الكبار في أسفار البحار) يحتوى على معارف مفيدة جدا عن الأقاليم السبعة الواقعة في الربع المسكون من كرة الأرض. كما شرح حاجي خليفة فيه فكرة خطوط الطول والعرض شرحا علميا متميزا، وتكلم فيه أيضا عن الجبال والبراري والبحار والأنهار وغيرها.

قضى حاجي خليفة جل وقته في البحث والتنقيب والاستقصاء عن موضوع حوادث عام ١٠٥٨هجرية التي هزت العالم العربي والإسلامي، فأرخ لها بطريقة علمية فنية تدل على طول باعه في علم التاريخ، ويظهر ذلك في كتابه المعروف باسم (تقويم التواريخ). وقد شمل هذا الكتاب الرائع النتائج التاريخية التي توصل إليها الباحث حاجي خليفة.

والجدير بالذكر هنا أن نذكر كتاب (لوامع النور في ترجمة أطلس منيور في الجغرافية) لحاجي خليفة، فهذا الكتاب كان أكثر كتبه انتشارا في العالم العربي والإسلامي، لذا ذاع صيت حاجي خليفة فصار من كبار علماء العرب والمسلمين في علم الجغرافية.

وخلاصة القول فلقد تفرغ حاجي خليفة في آخر أيام حياته لتدريس العلوم الأساسية والتطبيقية لطلاب العلم، فتبنى منهج كبار علماء العرب والمسلمين في التدريس، فانهال عليه طلاب العلم من كل فج للتتلمذ على يده الكريمة.

ولا ريب فإن حاجي خليفة عالم عبقري له دور بين المؤرخين للعلوم، وذلك لأمانته العلمية ولجهوده العظيمة التي بذلها في تصنيف كتابه (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون) الذي بقي في متناول أيدي الباحثين والدارسين حتى يومنا هذا. والحقيقة الواضحة أن هذا الكتاب منهل عذب لا يستغني عنه أبداً باحث في التراث العلمي العربي والإسلامي.

لقد ساعد حاجي خليفة على نجاحه الباهر وذاكرته القوية ولباقته المتناهية وتواضعه وحبه للعلم وطلابه، فكان إلى ذلك عقليته مرتبه لماحا يقول الحق ولو على نفسه.

والحق أن حاجي خليفة كان معتكفا على البحث والتأليف لا يفكر بالمال أو الغناء بل كان يفكر في لقائه مع عالم من علماء العرب والمسلمين أو في الانتهاء من تأليف كتاب يخدم الإنسانية لأجل هذا قطع البلاد كلها باحثا ومستقصيا للحقيقة.

هكذا قضى حاجي خليفة حياته مكبا على التفكير والبحث والتأمل بين يديه قلمه وورقه يدون ما يجول بباله من أفكار، فله اليد الطولى في نشر الوعي بين أبناء الأمة العربية والإسلامية عن مكانة الحضارة العربية والإسلامية، فلله دره.

قائمة المصادر والمراجع

حافظ آبـرو	: زبدة التواريخ
إسماعيل أبو الفداء	: تقوم البلدان
إسماعيل أبو الفداء	: المختصر في أجناس البشر
نفيس أحمد	: الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي
أحمد أبوسعيد	: أدب الرحـلات
خلف بن بشكوال	: كتاب الصـلة
محمد الطنجي بن بطوطة	: رحلة ابن بطوطة
محمد بن أحمد بن جبير	: رحلة ابن جبير
أبوالفرج بن قدامة بن جعفر	: كتاب الخراج وصنعة الكتابة
محمد بن علي بن حوقل	: صورة الأرض
أبومروان بن حيان	: المقتبس في تاريخ الأندلس
أبوالعباس بن خلكان	: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان
عبدالرحمن بن خلدون	: العبر وديوان المبتدأ والخبر
عبدالرحمن بن خلدون	: مقـدمة ابن خلـدون
عبدالله بن محمد بن الفرضى	: تاريخ الأندلس
أسامة بن منقذ	: الاعتبــار
أسامة بن منقذ	: المنازل والديار
إخوان الصفاء وخلان الوفاء	: رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء
الشريف محمد الإدريسي	: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق

جمال الفنـدى	: الجغرافيا عند المسلمين
عبدالعزيز بن عبدالله	: الطب والأطباء في المغرب
مسعر بن المهلهل	: عجائب البلدان
آنخل بالنثيا	: تاريخ الأندلس
آنخل بالنثيا	: تاريخ الفكر الأندلسي
ليفي بروفنسال	: صفة جزيرة الأندلس
كارل بروكلمان	: تاريخ الأدب العربي
أبوبكر الخطيب البغدادي	: تاريخ بـغداد
عبداللطيف البغدادي	: الإفادة والاعتبار في أمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر
إسماعيل باشا البغدادي	: هدية العارفين : أسماء المؤلفين وآثار المصنفين
عبدالله البكري	: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع
أحمد بن سهل البلخي	: صورة الأقاليم
أبوالريحان البيروني	: القانون المسعودي
ظهير الدين البيهقي	: تاريخ حكماء الإسلام
سليمان التاجر	: رحلة سليمان التاجر
عبدالله التجاني	: رحلة التجـاني
أرنولد توينبي	: دراسة التاريـخ
أحمد بن محمد الجيهاني	: المسالك في معرفة الممالك
عبدالله الحجـاري	: المسهب في غرائب المغرب
زكـي حسـن	: الرحالة في العصور الوسطى
ساطع الحصري	: دراسات في مقدمة ابن خلدون
ياقوت الحموي	: معجم البـلدان
ياقوت الحموي	: معجـم الأدباء
عبدالرحيم حميدة	: أعلام الجغرافيين العرب

محمد الحميري	: الروض المعطار في خبر الأقطار
ناصر خسرو	: سفرنامة
شاكر خصباك	: في الجغرافية العربية
حاجي خليفة	: تقويم التواريخ
حاجي خليفة	: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون
على بن عبدالله الدفاع	: أثر علماء العرب والمسلمين في تطوير علم الفلك
على بن عبدالله الدفاع	: إسهام علماء العرب والمسلمين في علم النبات
على بن عبدالله الدفاع	: تاريخ العلوم للكليات المتوسطة
على بن عبدالله الدفاع	: دراسة في العلوم الصرفة في الحضارة الإسلامية
على بن عبدالله الدفاع	: رواد علم الفلك في الحضارة العربية والإسلامية
على بن عبدالله الدفاع	: العلوم البحتة في الحضارة العربية والإسلامية
على بن عبدالله الدفاع	: لمحات من تاريخ الحضارة العربية والإسلامية
على بن عبدالله الدفاع	: المناحي العلمية عند ابن سينا
على بن عبدالله الدفاع	: المناحي العلمية عند القزويني
على بن عبدالله الدفاع	: الموجز في التراث العلمي العربي والإسلامي
شمس الدين الدمشقي	: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر
أحمد العذري الدلائي	: نظام المرجان في المسالك والمهالك
ر. ب. أ. دوزي	: مباحث في التاريخ السياسي والأدبي لأسبانيا
فرانز روزنثال	: علم التاريخ عند المسلمين
أحمد الرازي	: هفت إقليم
محمد بن أبي بكر الزهري	: الجغرافية
نقولا زياده	: الجغرافية والرحلات عند العرب
جورج سارتون	: المدخل إلى تاريخ العلوم
عبدالكريم بن محمد السمعاني	: الأنساب
جلال السيوطي	: بغية الوعاة

عبدالرزاق السمرقندي	: مطلع السعدين ومجمع البحرين
شريف محمد شريف	: تطور الفكر الجغرافي
صدقوك وتيلر	: الموجز في تاريخ العلوم
إبراهيم بن محمد الإصطخري	: المسالك والممالك
محمود الصياد	: من الوجهة الجغرافية
محمد بن تاويت الطنجي	: التعريف بابن خلدون غربا وشرقا
محمد بن محمد العبدري	: الرحلة المغربية
ابن حجر العسقلاني	: الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة
س. م. ضياء الدين علوي	: الجغرافية العربية في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين
أحمد بن فضل العمري	: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار
اليسع بن عيسى الغافقي	: المغرب في محاسن المغرب
محمد بن عبدالكريم الغرناطي	: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب
عزالدين فراج	: فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوروبية
حسين فوزي	: حديث السندباد القديم
مختار قاضي	: أثر المدينة الإسلامية في الحضارة الغربية
زكريا القزويني	: آثار البلاد وأخبار العباد
زكريا القزويني	: عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات
أحمد المقريزي	: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
أحمد القلقشندي	: صبح الأعشى في كتابة الإنشا
أغناطيوس كراتشكوفسكي	: تاريخ الأدب الجغرافي العربي
عمر رضا كحالة	: معجم المؤلفين
عبدالمنعم ماجد	: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى
عبدالواحد المراكشي	: المعجب في تلخيص أخبار المغرب
عبدالواحد المراكشي	: تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار

أبوالحسن علي المسعودي	: مروج الذهب ومعادن الجوهر
محمد بن العربي المعافري	: ترتيب الرحلة
شمس الدين المقدسي	: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم
أحمد بن محمد المقري	: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب
على بن سعيد المغربي	: الجغرافيا
على بن سعيد المغربي	: فلك الأرب المحيط بحلي لسان العرب
عبدالباسط بن خليل الملطي	: الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم
حسين مؤنس	: تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس
سليمان المهري	: العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية
الحسن المهلبي	: العزيزي
أحمد بن ماجد النجدي	: الفوائد في أصول علم البحر والقواعد
سليمان الندوي	: أرض القرآن
محمد بن إسحاق النديم	: الفهرست
أحمد بن عبدالوهاب النويري	: نهاية الأرب في فنون الأدب
محمد بن يوسف الوراق،	: مسالك أفريقية
الحسن بن الوزان	: وصف أفريقيا
عبدالفتاح محمد وهيبة	: الجغرافية والثقافة الإسلامية (بحث)
على بن أبي بكر الهروي	: الإشارات إلى معرفة الزيارات
لسان اليمن الحسن الهمداني	: الجوهرتين العتيقتين المائعتين من الصفراء والبيضاء
لسان اليمن الحسن الهمداني	: صفة جزيرة العرب

نبذة عن المؤلف

* ولد الدكتور علي بن عبدالله الدفاع في مدينة عنيزة سنة ١٣٦٢هـ، وتلقى تعليمه الابتدائي والثانوي فيها.

حصل على البكالوريوس في الرياضيات البحتة من جامعة أوهايو، وماجستير في الرياضيات البحتة من جامعة فندربلت، والدكتوراه في الرياضيات من كلية بيبدى من جامعة فندربلت وكلها في الولايات المتحدة الأمريكية.

التحق بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن سنة ١٣٩٢هـ بوظيفة أستاذ مساعد ثم أستاذ مشارك فرئيس قسم العلوم الرياضية حتى سنة ١٣٩٧هـ ثم عميد كلية العلوم من سنة ١٣٩٧هـ الى ١٤٠٣هـ، والآن يعمل كأستاذ الرياضيات وتاريخ العلوم التجريبية بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن ـ الظهران.

عمل أستاذا زائرا بكلية العلوم بجامعة الملك سعود من ١٣٩٩هـ ـ ١٤٠٢هـ.

شغل منصب رئيس اتحاد الرياضيين والفيزيائيين العرب فيما بين ١٣٩٨هـ ـ ١٤٠٠هـ، ثم انتخب للمرة الثانية رئيسا للاتحاد سنة ١٤٠٦هـ ولمدة سنتين.

عمل أستاذا زائرا في جامعة هارفرد بكيمبرج ماساتشوسيش في الولايات المتحدة الأمريكية في صيف عام ١٤٠١هـ.

عضو في لجنة موسوعة الحضارة الإسلامية ـ المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية ـ الأردن.

عضو شرف في مجمع اللغة العربية الأردني ـ عمان ـ الأردن.

عضو في المجلس العلمي للمؤسسة الإسلامية للعلوم والتكنولوجيا والتنمية (منظمة المؤتمر الإسلامي ـ جدة).

عضو لمجلس إدارة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية (الرياض)
عضو اللجنة المشتركة لدراسة مشروع إنشاء الجامعة الإسلامية في أوغندا.
عضو مؤسس للأكاديمية الإسلامية للعلوم.

عضو أسرة الرياضيات المعاصرة ـ وزارة المعارف ـ الرياض
عضو تحرير المجلة الرياضية ـ اتحاد الرياضيين والفيزيائيين العرب، بغداد الجمهورية العراقية.

بلغت مؤلفاته ٢٧ كتابا منها ٢٣ كتابا باللغة العربية و ٤ كتب باللغة الإنجليزية وأكثر من مائتي بحث ومقالة نشرت في مجلات عالمية وسعودية ومن بين مؤلفاته:

١) إسهام علماء العرب والمسلمين في الرياضيات (باللغة الإنجليزية)
٢) نوابغ علماء العرب والمسلمين في الرياضيات (باللغة العربية)
٣) الرياضيات الحديثة تخاطب القدرات العقلية
٤) الموجز في التراث العلمي العربي الإسلامي
٥) العلوم البحتة في الحضارة العربية والإسلامية (باللغة العربية)
٦) المدخل إلى تاريخ الرياضيات عند العرب والمسلمين (باللغة العربية)
٧) لمحات من تاريخ الحضارة العربية الإسلامية (باللغة العربية)
٨) أثر علماء العرب والمسلمين في تطوير علم الفلك (باللغة العربية)
٩) أعلام العرب والمسلمين في الطب (باللغة العربية)
١٠) لمحات من تاريخ الطب عند المسلمين الأوائل
١١) الهندسة التحليلية ـ للكليات المتوسطة (اشترك في تأليفه) باللغة العربية
١٢) تاريخ العلوم عند العرب والمسلمين للكليات المتوسطة (باللغة العربية)
١٣) العلوم الرياضية في الحضارة الإسلامية، مجلدين (اشتراك في تأليفهما) باللغة العربية
١٤) دراسات في العلوم الصرفة في الحضارة الإسلامية (اشترك في تأليفه) باللغة الإنجليزية
١٥) أعلام الفيزياء في الإسلام (اشترك في تأليفه) باللغة العربية
١٦) إسهام علماء العرب والمسلمين في الكيمياء (باللغة العربية)

١٧) إسهام علماء العرب والمسلمين في الصيدلة (باللغة العربية)

١٨) إسهام علماء العرب والمسلمين في علم النبات (باللغة العربية)

١٩) ترجمة كتاب حساب التفاضل والتكامل للجامعات، ثلاثة أجزاء (اشترك في ترجمته)

٢٠) الرياضيات الحديثة للصف الثاني والثالث الثانوي (٤ أجزاء) اشترك في تأليفهم باللغة العربية.

٢١) إسهام علماء العرب والمسلمين في علم الحيوان (باللغة العربية)

٢٢) المناحي العلمية عند القزويني (باللغة العربية)

٢٣) المناحي العلمية عند ابن سينا (باللغة العربية)

٢٤) مصادر علم الصيدلة عند العرب والمسلمين الأوائل

٢٥) رواد علم الفلك في الحضارة العربية والإسلامية

٢٦) إسهام علماء المسلمين الأوائل في تطوير علوم الأرض (اشترك في تأليفه)

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة

بيان مطبوعات النادى الأدبى بجازان
منذ تأسيسه عام ١٣٩٦هـ

م	اسم الكتاب	اسم المؤلف	تاريخ الطبع
١	التقرير السنوى للنادى	النادى	١٣٩٦هـ
٢	قصص من الجنوب	مجموعة من الشباب	١٣٩٧هـ
٣	مسابقة الشعر	=====	١٣٩٧هـ
٤	ديوان الينابيع	الأستاذ / محمد علي السنوسى	١٣٩٧هـ
٥	الأدب الشعبى	الأستاذ / محمد أحمد العقيلي	١٣٩٧هـ
٦	أبوسفيان بن حرب	الأستاذ / زاهر الحارثى	١٣٩٨هـ
٧	ديوان الأرض والحب	الأستاذ / أحمد يحيى بهكلى	١٣٩٨هـ
٨	مع الشعراء	الأستاذ / محمد علي السنوسي	١٣٩٨هـ
٩	المعجم الجغرافى	الأستاذ / محمد أحمد العقيلى	١٣٩٩هـ
١٠	محاضرات النادى	مجموعة من الأساتذة	١٣٩٩هـ
١١	مع الشباب في تنمية القدرات	د / زاهر عواض الألمعى	١٣٩٩هـ
١٢	الآثار التاريخية	الأستاذ / محمد أحمد العقيلى	١٣٩٩هـ
١٣	طيفان على نقطة الصفر	الأستاذ / أحمد يحيى بهكلى	١٣٩٩هـ
١٤	نفحات الجنوب	الأستاذ / محمد علي السنوسى	١٤٠٠هـ
١٥	ليلة في الظلام	الأستاذ / محمد زارع عقيل	١٤٠١هـ
١٦	الصندوق المدفون	الأستاذ / طاهر عوض سلام	١٤٠١هـ
١٧	أمسية فلسطين	إعداد النادى	١٤٠١هـ
١٨	وجوه من الريف	الأستاذ / حجاب يحيى الحازمى	١٤٠١هـ

م	اســم الكتــاب	اســم المؤلف	تاريخ الطبع
١٩	الملك أبو الفداء	الأستاذ/ ياسر فتوى	١٤٠١هـ
٢٠	بين جيلين	الأستاذ/ محمد زارع عقيل	١٤٠١هـ
٢١	مطولة على أحمد باكثير	الأستاذ/ محمد حلمى قاعود	١٤٠١هـ
٢٢	الأديب وموقفه من الحدث	الأستاذ/ علوى طه الصافى	١٤٠٢هـ
٢٣	الحلقة المفقودة	الأستاذ/ عبدالرحمن الرفاعى	١٤٠٢هـ
٢٤	حبيبتى والبحر	الأستاذ/ إبراهيم عمر صعابى	١٤٠٣هـ
٢٥	من ثمرات الكتب	الأستاذ/ عبدالسلام هاشم حافظ	١٤٠٤هـ
٢٦	السنة ومعرفة علوم الحديث	د/ عبدالحميد إبراهيم	١٤٠٤هـ
٢٧	العكوتان والجيولوجيا	الأستاذ/ راشد قاثم الشيخ	١٤٠٤هـ
٢٨	دور الإعلام في بناء الإنسان المثالى	الأستاذ/ محمد كامل الخجا	١٤٠٤هـ
٢٩	نظرات في العلم والأدب	مجموعة أعضاء النادى	١٤٠٥هـ
٣٠	عن الحب ومنى الحلم	الأستاذ/ علي أحمد النعمى	١٤٠٥هـ
٣١	الوحى والقرآن	الدكتور/ عبدالحميد إبراهيم	١٤٠٥هـ
٣٢	أبجديات في النقد والأدب	الأستاذ/ حجاب يحيى الحازمى	١٤٠٥هـ
٣٣	في حكم الجهر بالبسملة والاسرار	الأستاذ/ الحسن الحازمى	١٤٠٦هـ
٣٤	الرحيل إلى الأعماق	الأستاذ/ على أحمد النعمى	١٤٠٦هـ
٣٥	إطلالة على الشعر السعودى	الأستاذ/ فوزى خضر	١٤٠٦هـ
٣٦	الحفلـة	الأستاذ/ عبدالله باخشوين	١٤٠٦هـ
٣٧	دموع الندم	الأستاذ/ أحمد على حمود	١٤٠٦هـ
٣٨	ترانيم على الشاطىء	الأستاذ/ علي محمد صيقل	١٤٠٦هـ
٣٩	تقرير الجمعية الخيرية	تقرير	١٤٠٦هـ

م	اســـم الكتـــاب	اســـم المؤلف	تاريخ الطبع
٤٠	أحـــلامى	الفنان / خليل حسن خليل	١٤٠٦هـ
٤١	الحياة في ظل العقيدة الإسلامية	الشيخ زيد محمد هادى مدخلى	١٤٠٧هـ
٤٢	الكتابة خارج الأقواس	الأستاذ / سعيد السريحى	١٤٠٧هـ
٤٣	حوار على بوابة الأرض	الأستاذ عبده خال	١٤٠٧هـ
٤٤	حمدونه	الأستاذ عبد الله الشباط.	١٤٠٨هـ
٤٥	الزهور تبحث عن آنية	الأستاذ / عبدالعزيز مشرى	١٤٠٨هـ
٤٦	نبذة تاريخية عن التعليم بعسير وتهامة	الأستاذ / حجاب الحازمى	١٤٠٩هـ
٤٧	الأجوبة على المسائل التى الاختلاف فيها من الاختلاف المباح	تحقيق الأستاذ أبو زيد الحازمى	١٤٠٩هـ
٤٨	الأوانى الخشبية التقليدية عند عرب الجزيرة	تأليف الدكتور سليمان محمود حسن	١٤٠٩هـ
٤٩	الأعمال الكاملة	الأستاذ / محمدعلي السنوسي	١٤٠٣هـ
٥٠	الأفنان الندية	للشيخ زيد بن هادى مدخلـي	١٤٠٩هـ

مكتبة التوبة
الرياض ـ المملكة العربية السعودية ـ شارع جرير
هاتف ٤٧٦٣٤٢١ ص. ب ١٨٢٩٠ الرمز ١١٤١٥